أسّس الأب لويس خليفة (†)
جريدة بيبليا سنة ١٩٩٠
وحوّلت إلى مجلة بيبليا
سنة ١٩٩٨.

رئيس التحرير:
الأب أيّوب شهوان

هيئة التحرير:
الأب أيّوب شهوان
الخوري بولس الفغالي
الأخت باسمة الخوري
د. دانيال عيّوش

أسرة التحرير:
الأخت روز أبي عاد
د. نقولا أبو مراد
الأب جوزف بو رعد
الأم كليمنص حلو
الأب ميلاد الجاويش
الأب أسعد جوهر
الإرشمندريت جاك خليل
الأب جورج خوّام
الخوري نعمةالله الخوري
الأب لويس الخوند
القس عيسى دياب
الأب نجم شهوان
الخوري جان عزّام
د. جوني عواد
الأب أنطوان عوكر
القسّ هادي غنطوس
الأب هادي محفوظ
الخوري أنطوان مخايل
المطران بطرس مراياتي
الخوري جوزف نفّاع
الأب ريمون الهاشم

ISSN 1992-2094

جميع الحقوق محفوظة

مركز النشر والتوزيع
جامعة الروح القدس – الكسليك
ص.ب.: ٤٤٦ جونيه – لبنان
هاتف: ٠٩/٦٠٠٠٠٠
فاكس: ٠٩/٦٠٠١٠٠

في هذا العدد

الافتتاحية

روحانيّةُ القديّس بولسَ لاهوتيّة ومسلكيّة وإسكاتولوجيّة — رئيس التحرير ٢

أ) موضوعات

بولس الرسائل وبولس أعمال الرسل — الأخت باسمة الخوري الأنطونية .. ٧
بولس الشغوف بشعبه والمتجذّر في تنشئته — الأخت روز أبي عاد ٢١
خلفيّة مار بولس الثقافيّة وتأثيرها على أسلوبه الرسائليّ — الأخت دُولّي شعيا ر.ل.م. ... ٢٧
مجمع أورشليم ودور بولس فيه (أع ١٥: ١–٣٥) — الخوري أنطوان مخايل ٣٣
إسطفانُس يفتدي بولس — الأخت كليمنص حلو ٣٧
الأسفار البرّية والبحريّة في زمن القدّيس بولس — الخوري بولس الفغالي ٤١
بولس إن اعترف (١تم ١: ١٢– ١٧) — الأب ميلاد الجاويش ب.م. .. ٥٣

ب) بولس في كتابات الآباء

– بولس الرسول الثالث عشر والأفضل في الكنائس
في فكر الكنيسة السريانيّة — د. باسيل عكّولة ٦٣
– بولس في البِيت غازو المارونيّ Add. 14.703
(القرن الثاني عشر – الثالث عشر) — الأباتي يوحنّا تابت ٧١
– القدّيس بولس في كتابات آباء الكنيسة اليونانيّين واللاتين — الأب أيوب شهوان ٧٧

ثمن العدد
في لبنان : ٧٥٠٠ ل.ل. أو ما يعادلها
في الخارج : ١٠٥٠٠ ل.ل. أو ما يعادلها

الاشتراك السنوي (٤ أعداد)
في لبنان : ٣٠٠٠٠ ل.ل. أو ما يعادلها
في الخارج : ٤٢٠٠٠ ل.ل. أو ما يعادلها

الصف الإلكتروني، الإخراج،
فرز الألوان والطباعة:
Daccache Printing House
عمشيت (لبنان)

العنوان
كليّة اللاهوت الحبريّة
جامعة الروح القدس – الكسليك
ص.ب.: ٤٤٦ جونيه – لبنان
هاتف: ٠٩/٦٠٠٠٠٠
فاكس: ٠٩/٦٠٠١٠٠
E-mail: olmpac@hotmail.com

الافتتاحيّة

روحانيّة القديس بولس
لاهوتيّة ومسلكيّة وإسكاتولوجيّة

رئيس التحرير

مقدّمـــة

لا نجد كتاباتٍ واضحة لمار بولس ولا كلامًا واضحًا في كتاب أعمال الرسل عن روحانيّة هذا القديس. لذلك نستنتج معطيات الموضوع المطروح حول روحانيّته ممّا قاله الكتاب المذكور، وممّا كتبه هو بالذات، وبالتالي من مجمل حياته المملوءة بطولات استثنائيّة.

نذكّر بدايةً أنّ موضوع الروحانيّة لا ينفصل إطلاقًا عن حياة مار بولس، فهو بكليّته مجبولٌ بالروحانيّة. أوّلاً، كان رَجُلَ صلاةٍ يهوديًّا، وكانت له بالتالي روحانيّته، ثمّ سكن في أورشليم وتعلّم فيها، حيث كانت الفرصة متاحة له لزيارة الهيكل والصلاة فيه، ودراسة الليتورجيّا اليهوديّة وممارستها، والتي كان يعرف أنّها بحدّ ذاتها جيّدة وغنيّة جدًّا. ولكن، كما نعرف من الأنبياء، كان الله يتذمّر من عبادة اليهود لأنّها تحوّلت إلى طقوسيّات وعبادات خارجيّة لا روح فيها، لذلك قال الربّ: "يا بُنيّ أعطني قلبك" (ام ٢٣: ٢٦). وعند النبيّ عاموس نسمع الربّ يقول: "سئمَتْ نفسي ذبائحكم" (عا ٥: ٢٢). إذًا كثرت الشكليّات في الليتورجيّا وفي العبادة، لذلك قال الربّ: "أريد رحمةً لا ذبيحة" (هو ٦: ٦)؛ هذه الجملة بالذات هي ردّة فعلٍ على تلك الروحانيّة التي كانت قد أضحت في الواقع مفقودة. يعني هذا القول، "أريد رحمةً لا ذبيحة"، أنّ الله يريد قلب الإنسان ومشاعره وسلوكه. هناك إذًا عدّة أمور في ليتورجيّة اليهود يجب الوقوف عندها لكي نفهم كيف ولماذا عدّ بولس كلّ هذه الأمور كَلاَ شيء عندما صار مسيحيًّا. ستأخذ الشريعة والعبادات والطقوس منحًى جديدًا في حياته. لذلك، ودون أن يكون هنالك رذل أو نبذ أو ترك لليتورجيّا اليهوديّة، سيتحوّل بولس إلى "عابدٍ بالروح والحقّ" (يو ٤: ٢٣)، وهذا هو الفرق الكبير. وبالعودة إلى إنجيل يوحنّا، عندما سألته السامريّة: "أين نعبد، أعَلى هذا الجبل أم في أورشليم؟" (يو ٤: ٢١)، أجابها يسوع: إنّ الله يهمّه شيءٌ واحد، ألا وهو "العبادة بالروح والحقّ" (يو ٤: ٢٣). سيصل بولس إلى هذه النقطة بعد إشراق نور المسيح في حياته على طريق أورشليم–دمشق.

ولكي نتمكّن من أن نفهم هذه النقلة الإيمانيّة والروحيّة النوعيّة عند بولس يجب أن نقرأ رسائله، فنتعرّف عليه من خلال أقواله هو، ومن خلال ما كتب الإنجيليّ لوقا في كتاب أعمال الرسل عنه.

ونودّ هنا أن ننوّه بأمرٍ، ألا وهو التالي: يخبر **القديس يوحنّا الذهبيّ الفم**، الذي كرّمناه سنة ٢٠٠٧ بذكرى مرور ١٦٠٠ سنة على استشهاده أنّه **كان يقرأ رسائل مار بولس مرّتَيْن في الأسبوع**، هو الذي كان شغوفًا ببولس وبكتاباته، ورجلَ البلاغة والعلم، ومن أهمّ خطباء الكنيسة على الإطلاق. ويؤكّد أنّه كلّما كان يقرأ رسائل القدّيس بولس، كان يغتني أكثر فأكثر من معرفته. ونحن بدورنا، من أجل أن نفهم نقلة مار بولس العظيمة من عبادةٍ ماديّة وحرفيّة (تقدمة حيوانات وقرابين وعطور...) إلى عبادةٍ روحيّة

ويرتّلان ويهلّلان للربّ، فتزعزع السجن، وسقطت السلاسل، وفُتحَت الأبواب (أع ١٦: ٢٥-٢٦)، لأنّ للصلاة مفعولاً قويًّا، يجعل "الجبل ينتقل ويسقط في البحر". اكتشف بولس هذه النقطة في حياته وعاشها، لذلك، في لياليه، إن في المسكن أو في السجن، كان يصلّي، وهذا ما جعله الرسول الأقوى على الإطلاق. إذا قرأنا في ٢ كورنتس كيف يصف حياته الرسوليّة، وكيف تعب وعطش وجاع وتألّم وواجه المخاطر وهو يبشّر، نتساءل من أين أُعطيَ هذه القوّة؟ أليس من عند الربّ ومن روحانيّته؟

يقول جون كينيدي في كتابه السّياسي الوحيد الذي حرّره: "الحياة من دون جرأة لا طعمَ لها". كان بولس رسولاً جريئًا لأنّه كان مُدَعَّمًا روحيًّا بعبادته لله. **إذًا كنبيّ وكعبد لله وكرسول** هو إنسانٌ مميّز بهذه الروحانيّة.

يقول أش ٥٠ الذي كُتِبَ في القرن السادس ق. م. بأنّ الربّ يأتي يومًا فيومًا، صباحًا فصباحًا، يفتح أذنَي نبيّه، ويعلّمه ماذا يقول. يستعمل الكاتب في هذا النصّ الفعل ، المعادل للفعل السريانيّ لَمحدِب ("تَلْمِد")، أي "علّم". بكلّ تأكيد، لن يفيد العلم في شيء من دون الصلاة!

عندما فهم بولس هذه الأمور وعاش هذه الروحانيّة صرّحَ وقال في رو ١: ١: "من بولس **عبد** يسوع المسيح **المدعوّ والمفصول** لإنجيل الله". صار بولس والإنجيل حالاً واحدًا، بالتالي صار **بولس والمسيح في حالة تماهي** إلى حدٍّ كبير، ومَن تعلّق بحبّ المسيح نسيَ الدنيا وما فيها.

لقد تجرّأ بولس على أن يقول ذلك: "لقد عددتُ كلّ شيءٍ كالزبل لكي أربح المسيح". كان يفتخر بأنّه عبرانيّ وبنياميني وفرّيسيّ، ويتباهى بآبائه وبتقاليده وبالتوراة، ولكنّه ساوى أخيرًا كلّ ذلك باللاّشيء، لأنّه فهِمَ أنّ المسيح يسوع هو ملء حياته. ومن هنا التماهي بين بولس والإنجيل، وبين بولس ويسوع المسيح.

قلنا في البداية إنّ **روحانيّة القدّيس بولس** ليست عواطف ومشاعر تقويّة بل هي **روحانيّة لاهوتيّة**، لذلك، ومن أجل أن نفهم كيف تكوّنت هذه الروحانيّة يجب أن نعرف، عندما نقرأ رسائل بولس وأعمال الرسل، أنّها **مبنيّة على يسوع المسيح**.

هناك محطّات مهمّة جدًّا في حياة يسوع المسيح، أوّلها **تجسّده** ، ثمّ **آلامه وموته**، وأخيرًا **قيامته**. تلي هذه المحاورَ نقطةٌ جوهريّةٌ رابعة هي **العماد**، التي تربط المؤمن في العمق بموت يسوع وقيامته. **على هذه المعطيات الكريستولوجيّة اللاهوتيّة يبني بولس روحانيّته**؛ فهو يتأمّل في تَجسُّد يسوع المسيح وكأنّي به يسمو إلى فوق ليرى بهذا التجسّد رحمةً من الله وحبًّا شديدًا منه للبشريّة. تبدأ روحانيّته إذًا عندما يدرك أنّ التجسّد هو فعل رحمةٍ من الله للبشريّة الواقعة في الضعف. وعندما ينتقل إلى الكلام على آلام يسوع، كما عن آلامه هو –ومن أجمل مَن كتب عن الألم في تاريخ المسيحيّة هو القديس بولس– يقول: "إنّي أحسب آلام هذا الدهر لا توازي شيئًا من المجد الآتي".

فلقد **تألّمَ القدّيس بولس** أوّلاً في جسده من التعب، لأنّه قطع مسافاتٍ طويلة سيرًا على الأقدام أو في البحر، ومع ذلك كان يقول: "إنّي أفرح بآلامي".

الألم الثاني كان يسبّبه الجَلْد أو الرجم أو الدفع العنيف.

والألم الثالث كان يتسبّب به الإذلال، الذي كان ينتج عن تقييده وسجنه.

والألم الرابع كان ينتج عن افتراء اليهود عليه، واتّهامهم له زورًا، بهدف بلبلة الجوّ وخلق الاضطرابات.

والألم الخامس كان من أجل إخوته وأبناء قومه اليهود المُصِرّين على البقاء في الضلال...

فَهِمَ بولس كلَّ هذه الآلام، ولكنّه رآها كَلاَ شيء أمام آلام المسيح؛ لذلك صار يفرح بالتماهي مع يسوع المسيح، فهتف وقال هذه الجملة الفريدة في كلّ العهد الجديد: "أنا صُلِبت مع المسيح" (غل ٢: ١٩). **أحبّ يسوعَ حُبًّا جَمًّا**، فكتب أجمل كلامٍ حول الصليب. لقد شغف بالتأمّل في الصليب

ترتكز على تقدمة الذات، علينا أن نفهم لاهوت مار بولس وفكره السامي والفريد. **ليست العبادة الروحيّة** عند مار بولس مسألة مشاعر وعواطف تقويّة، بل **هي موقفٌ لاهوتيّ** وقناعات عميقة، ثمّ **سلوك**، وأخيرًا انشداد **إسكاتولوجيّ** وهذه هي النقطة الأساسيّة.

١ – روحانيّة مسيحيّة لاهوتيّة

إنطلاقًا ممّا تقدّم يمكننا أن نعطي **لروحانيّة القديس** بولس صفةً أولى بأنّها **مسيحيّة**، أي على خلاف **اليهوديّة**. كانت عنده روحانيّة يهوديّة، وفي طريقه إلى دمشق هلّ النور عليه وتحوّلت روحانيّته إلى روحانيّة جديدة مسيحيّة. كيف تجلّت هذه الأخيرة؟ لقد تجلّت عندما **فهمَ بولس على طريق دمشق** أنّه **مدعوّ**، فأخذ المفردات ذاتها، والأدوار ذاتها التي كانت تُعطى للنبيّ المختار في العهد القديم، وبالتالي سينفصل عن الماضي. فهم بولس إذًا أنّه **عليه أن يسير في خطّ الأنبياء؛ والنبيّ هو العابد** للّه، فيعرف عندها أن يتلقّى من الله ما عليه أن ينقله إلى الناس، ولكنّه أيضًا إنسانٌ **عابد روحانيّ** مصلٍّ باستمرار ليقدر على **المواجهة والصبر و تحمّل الآلام والإضطهاد**. هذا ما جعله يدرك ما قاله يسوع لليهود: "أيّ نبيٍّ من الأنبياء لم يضطّهده آباؤكم؟". لذلك الحياة الروحيّة عند مار بولس هي مرتبطة جدًّا بدوره النبويّ. كان يعلم أنّ عبادة الله **والحياة الروحيّة والصلوات تجعله يلعب الدور النبويّ** الموكَل إليه بأفضل ما يكون؛ لأنّ مَن لا يصلّي يتآكله الضعف.

النقطة الثانية المستلّة من العهد القديم: عندما صارت روحانيّة القدّيس بولس مسيحيّة، أدرك أنّه **نبيّ**، حامل الكلمة إلى الناس، وأنّه يجب أن يكون **عبدًا لله**؛ ونذكّر هنا أنّ كلمة "عبد" تعني "خادم"، أي "الذي يعمل عند فلان"؛ فعندما نقول: "عبد يهوه المتألّم" في أش٤٢ و٤٩ و٥٠ و٥٢–٥٣، نعرف أنّ هذا العبد يلعب دورًا نبويًّا من قبل الربّ لدى الناس. لكن **لماذا يتألّم العبد؟** لأنّه يحمل خطايا الآخرين، ويتألّم عنهم، وهذا الواقع عاشه القدّيس بولس، إذ صار عبدًا لله، وتألّم عن الآخرين ولأجلهم. هو الوحيد بين الرسل وبين مَن كتبوا العهد الجديد مَن تجرّأ على قول هذه الكلمة: "أنا صُلِبتُ مع المسيح" (غل ٢: ١٩)، لأنّه فهم دوره كعبدٍ لله وكخادمٍ لإرادته.

كان بولس عبدًا يتألّم عن الآخرين، وبسبب الآخرين، ولأجل الآخرين. ولو لم تكن الناحية الروحيّة عنده هي الأقوى لَمَا تمكّن من القيام بهذا الدور.

النقطة الثالثة بهذا الموضوع بالذات: **كيف تحوّل بولس من قديمه إلى جديده، وصار يعيش روحانيّة مسيحيّة؟** لقد أدرك أنّه رسول. تعني كلمة "رسول" في السريانيّة **حكْسًا**، وهي مشتقّة من فعل **حكْس** الذي يعني "رمى". يختار الربّ الرسول لـ"يشلحه" وسط العالم، ومن ثمّ صار معناه "المُرسَل" إلى العالم. كان بولس مُدركًا جيّدًا أنه مدعوٌّ كالرسل، وكما إرميا من قَبل، كي يقلع ويهدم وينقض ويُهلك أوّلاً؛ هكذا يكون الرسول في مواجهة الشرّ، لأنّه لا يقدر أن يبشّر بالخير إن لم يضع حدًّا للشرّ. لا يمكن الإنسان أن يكون ملاكًا وشيطانًا في الوقت عينه؛ ولكي يستطيع أن يكون قدّيسًا عليه أن يَقلع الشرير من حياته. الرسول هو إذًا إنسان المواجهة، لذلك، ولأنّه يعرف مسبقًا أنّه سيُضطَّهَد، يجب أن يكون مستعدًّا استعدادًا روحانيًّا قويًّا. لذلك قال القدّيس بولس: "لذلك تدجّجوا بسلاح الله..." (أف ٦: ١٣)، بمعنى أن نحمل كلّ أنواع السلاح كما فعل هو في حياته، وتدرّع بكلّ ما يلزم من قوّة روحيّة ليقدر أن يكون رسولاً. نحن نعلم أنّ القدّيس بولس **كان رجلَ الصلاة والعبادة والتأمّل وتلاوة المزامير**.

في العهد القديم كان الله يعطي دائمًا **الإيحاءات والرؤى** في الليل؛ لذلك كان بولس يضرع ويصلّي في الليل حتّى تأتيه الرؤى والإيحاءات، ولذلك أيضًا كانت كلّ حياته الروحيّة مبنيّة على هذه العلاقة الروحيّة الحميمة التي كانت تبلغ ذروة زخمها في الليل خاصّةً، حيث كان يعبد ويصلّي ويرنّم، "وحيدًا مع الوحيد". حتّى في السجن مع سيلا في غرفتهما المظلمة جدًّا، حيث كانت رِجلاَ كلٍّ منهما مثبّتَتين بالخشب، ويداهما مقيّدتَين بالسلاسل، كانَا يصلّيان

وبالكلام عليه. استهزأ اليهود واليونان والرومان بالصليب، أمّا هو فافتخر به، مع أنّه كان أداةَ تعذيبٍ وقتلٍ للمجرمين والخونة، وموضوعَ استهزاء وعارٍ. لولا هذه الروحانيّة المتجذّرة في **لاهوت الفداء** وفي **لاهوت الصليب**، لَمَا استطاع القدّيس بولس أن يفتخر بالصليب، وهذا ما جعله **يحوّل كلامه إلى فعل عبادةٍ**، وبالتالي **إلى حياةٍ روحيّة كثيفة مبنيّة على الصليب**.

قال أحدهم مرّةً: "أنا لا أفهم المسيحيّة إلاّ قيامة"، فقلنا: "المسيحيّة هي صليبٌ وقيامة"؛ فعمل الفداء في الكنيسة متواصل؛ وكم من المسيحيّين قبلوا أن يُستَشهَدوا لأنّهم شُغِفوا بالربّ يسوع وحملوا اسمه؟! لكن من أين يأتي القبول بالاستشهاد عند المؤمن؟ من التأمّل في الفداء، الأمر الذي يؤدّي إلى قبول مبدأ التماهي مع يسوع الذبيح.

يجب أن يعطينا هذا الكلامُ القوّةَ لأنّنا ضعيفو الإيمان؛ وهل رَدَّ الخوفُ مرّة اعتبارًا أو حمى من الموت؟ الجرأة والشجاعة تخلّصان من الموت، أمّا الخوف والانهزام فلا. لم يتخاذل القدّيس بولس ولم يتراجع أبدًا في حياته، لا بل افتتح الدنيا بـ"كلمة الله التي هي أقوى من سيفٍ ذي حدّين". لذلك **روحانيّة بولس مبنيّة على التأمّل في الصليب والفداء**، ولكن أيضًا في **القيامة**، ليس في ١ كو ١٥ فقط، بل بطرقٍ أخرى وفي رسائل أخرى أيضًا. وموضوع القيامة أصعب بكثير من موضوع الصليب، لأنّ لهذا الأخير شهودًا رأوا موت يسوع المسيح معلّقًا عليه وشهدوا دفنَه؛ أمّا القيامة فمَن رآها تحصل؟ هناك شهود عاديّون رأوا علامات القيامة وآمنوا، كما تفيدنا الأناجيل، أمّا بولس فقد حلّل وأعطى تعليمًا عقائديًّا ولا أقوى. هناك شهودٌ على القبر الفارغ، وعلى النسوة اللواتي زُرنَ القبر، وعلى ظهورات يسوع في العلّيّة؛ وجاء بولس يكمل ويقول: "لولا القيامة لَمَا كان الخلاص"، لأنّ القيامة هي الأساس.

وإذا كانَ الصلب حدثًا مؤسفًا، فما الذي يجعله حدثًا خلاصيًّا؟ أمران: أوّلهما **الإفخارستيّا** التي أسّسها يسوع مباشرةً ليلة آلامه، فشكّلت ضوءًا رائعًا مسلّطًا على حدث الصلب المظلم قبل حدوثه؛ أمّا الحدث اللاحق، أي القيامة، فهو الضوء الموجّه إلى حدث الصلب بعد حدوثه. إذًا الصلب والصليب والموت على الصليب هي كلّها بين نورَين، نور الإفخارستيّا، ونور القيامة. لذلك إنّ روحانيّة القدّيس بولس مبنيّة على هذه المعطيات اللاهوتيّة الثلاثة التي هي أساس إيماننا: **التجسّد والموت على الصليب والقيامة**. كيف يتواصل التجسّد والقيامة؟ بسرّي **العماد والإفخارستيّا**. ولمن الإفخارستيّا؟ ولمن كلّ هذه الأحداث الخلاصيّة؟ لكلّ من يؤمن ويعتمد.

هكذا نتبيّن أنّ **روحانيّة مار بولس هي مبنيّة على التجسّد والموت على الصليب والقيامة والعماد والإفخارستيّا**. لذلك هي ليست روحانيّة مشاعرية وتَقَويّة وعاطفيّة، بل روحانيّة لاهوتيّة بامتياز تخلق ممّن يعيشها بطلاً وقدّيسًا.

٢ – روحانيّة مسلكيّة

بعد النقاط اللاهوتيّة الأساسيّة، نصل إلى **النقطة المسلكيّة**.

– أعطاني الربّ أن أكون له تلميذًا، ولكنّ هذا الأمر لا يمكن أن يكون مثمرًا إلاّ من خلال شرطَين على الأقلّ: الأوّل، أن أبقى **عارفًا وعالمًا**؛ فكلّ مرّةٍ أنحو نحو الجهل، أسير بذات الفعل نحو الهاوية. وحدها المعرفة تعطيني القدرة على الارتقاء، وتقرّبني من الله، لأنّ الجاهل يقول في قلبه: "لا إله".

– يبرز في هذا المجال **الجهاد**. تأخذ كلمة "الجهاد" عند المسلمين طابع القتال، أمّا عند المسيحيّ فهي كلمة جوهريّة في حياة آباء الكنيسة وحياة كلّ رسولٍ فيها. إنّها صفة المؤمن في حياته اليوميّة، وصفة الكاهن الذي يتألّم ويعاني الكثير في خدمته. لهذا السبب لا يمكن للمعطيات اللاهوتيّة أن تُبقي روحانيّتي منتعشة من دون اكتساب **المعرفة** دون توقّف، ومن دون **الجهاد** اليوميّ. والجهاد ليس موجّهًا ضدّ خصمٍ معيّن، بل هو يبدأ ببيتي وفي حياتي الخاصّة. كان بنو

إسرائيل يفتخرون بأنّهم أبناء إبراهيم، وبالتالي بأنّ الله معهم، لكنّهم بالمقابل كانوا يتصرّفون على هواهم، إلى حدٍّ دفع بهوشع إلى أن يسمّيهم "الشعب الزاني". لا يمكن المؤمن ولا المكرَّس لخدمة الله وشعبه أن يهدأ أو يرتاح. هكذا هو القديس بولس المجاهد ليلاً ونهارًا.

تتّخذ هذه المسألة بُعْدًا مسلكيًّا وخلقيًّا، لأنّ هناك في حياتنا العديدَ من المواقف المضادّة لإرادتنا الصالحة. إذا قرأنا رسالة القدّيس يعقوب نعرف ما معنى السير في خطّ العالم؛ مثلاً أن يجلس الناس في قاعة ولا يسمحون للفقراء بالدخول، فيما هم يُجلسون الأغنياء في صدر المجلس؛ يتطلّب الموقف الإنسانيّ السليم هذا الجهادَ اليوميّ ضدّ المواقف الخاطئة؛ أو في مثل السّامري الصالح، حيث نرى كاهنًا يمرّ ويَزْوَرُّ ... بالنتيجة يمكنني أن أكون على مثال هذا الكاهن الذي رأى الجريح ولم يكترث له، ولكن يمكنني أيضًا أن أجاهد لأكون على مثال السامريّ الصالح، ولأحافظ على المستوى المطلوب الذي عاشه القدّيس بولس.

يتميّز المؤمن المسيحيّ إذًا **بمعرفته وبفضيلته**؛ فهو يصلّي أكثر وأفضل من أهل هذا العالم عندما يكون عالِمًا بالله وبعمله الخلاصيّ. وفي هذا جهاد ضدّ الشرّ بهدف الرسوخ والثبات في ما هو حَسَن، والاستمرار في عمل ما يُرضي الله، وهذا أمرٌ حياتيّ وجوهريّ للاستمراريّة.

٣ - روحانيّة إسكاتولوجيّة

البعد الإسكاتولوجيّ هو ذو أهمّيّة قصوى في روحانيّة القديس بولس؛ فهو الذي يعلّمنا أنّنا مشدودون بالرجاء والإيمان والمحبّة إلى حياةٍ دائمة مع يسوع المسيح: "إن كنّا نرجو هذا العالم فقط فنحن أشقى جميع الناس". روحانيّته إذًا هي مبنيّة على اللاهوت والجهاد والعِلم والمعرفة، ولكنّها أيضًا مشدودة إلى لقاء الربّ، لذا هتف وهو يصلّي مع الكنيسة: "ماراناتا"، "تعالَ، أيّها الربّ يسوع، تعال"، لأنّه كان يريد أن يعيش حياةً نُهيويّة إسكاتولوجيّة مع يسوع المسيح. هذا يعني أنّ روحانيّته ليست آنيّة بل هي مشدودة إلى حياةٍ سيكون فيها في **المجد**.

بعد موسى، كلّف الربّ الإله يشوع بن نون بأن يُدخل بني إسرائيل إلى "راحته". على مثال شعب الله دخل القدّيس بولس أيضاً **راحةَ الله** حتّى وهو يعاني كلّ تعب وجهاد وآلام. نقرأ في الرسالة إلى العبرانيّين أنّ بني إسرائيل "لم يدخلوا إلى راحة الربّ"، بالتأكيد لأنّهم كانوا خطأة. القدّيس بولس، وبالرغم من كلّ ألمه، كان بدأ بعيش هذه "الراحة" التي هي صورة عن الحياة الإسكاتولوجيّة.

وهنا نتساءل: لماذا نرى الكثير من المؤمنين البسطاء والوضعاء والذين هم كلا شيء يعيشون في السعادة بالرغم من الفقر، ونرى بالمقابل الكثير من الأغنياء محرومين من السعادة؟ بالطبع، لأنّ البعد الإسكاتولوجيّ غائبٌ عن أبصارهم ومن قلوبهم وأذهانهم. نتبيّن من الصلوات لأجل الموتى، مثلاً، كم أنّ البعد النهيويّ الإسكاتولوجيّ يشكّل جزءًا من حياة مَن هو لله. هذا ما عاشه القدّيس بولس لأنّه أدرك أنّ مدينتنا هي في السماء، و"ليس لنا هنا مدينة ثابتة، بل نرجو الآخِرة". لقد خلقت كلّ هذه المعطيات لدى القدّيس بولس روحانيّةً مميّزة ومثاليّة.

خاتمــة

لقد أحبّ بولسُ الربَّ يسوعَ، و"أحبّه كثيرًا"، لذلك وحده هتف قائلاً: "حياتي هي المسيح". هذا يعني أنّه ذاب حبًّا بيسوع المسيح، لذلك فإنّ روحانيّته هي **روحانيّة الإنسان المتصوّف**، ونحن نعلم أنّ المتصوّفين يهيمون بالله بشكلٍ منقطع النظير. وكان بولس كلّما كبرَ في محبّته ليسوع، كلّما صارت روحانيّته عظيمة، وكلّما ازداد اتّضاعًا. نعم، كلّنا نعلم أنّ بولس كان **متّضعًا** جدًّا؛ فبالرغم من كونه أعظمَ الرسل قال: "أنا كالسقط، أنا آخر الرسل". خلقت هذه الروحانيّة من بولس إنسانًا عظيمًا لكن بتواضعه، لذلك رفعه الله جدًّا، ورقى به عاليًا إلى دار الأنوار والخلود. فليتمجّد الله في هذا القدّيس العظيم.

بولس الرسائل وبولس أعمال الرسل

الأخت باسمة الخوري الأنطونية
أستاذة مادة الكتاب المقدس في جامعة الروح القدس – الكسليك

مقدمة

ربما نجد في قراءتنا لكتاب أعمال الرسل من ناحية، ولرسائل القديس بولس من ناحية ثانية، بعض المسافة بين الصورة التي يرسمها لوقا لبولس، من جهة، وبين تلك التي تستنتجها من كتابات بولس نفسه في رسائله، من جهة ثانية. هذه المسافة، أدّت بالبعض إلى التشكيك بحقيقة الشخص الذي رسم لوقا معالمه، فميّزوا بين "بولس أعمال الرسل" و"بولس الرسائل". لكنّ قراءة معمّقة لكتاب الأعمال إن على الصعيد اللاهوتيّ، أو على الصعيد الأدبيّ تظهر بأن "بولس الأعمال"، كما يقدّمه القديس لوقا، ليس غريبًا عن شخصيّة الرسول التاريخيّة.

١ – بولس كتاب الأعمال

يخصّص لوقا في كتابه ثلاثة نصوص لحدث اهتداء شاول الطرسوسيّ (أع ٩؛ ٢٢؛ ٢٦)، فيقدّمه تحت ملامح "يهوديّ مرتدّ"، جاعلاً من اللقاء على طريق دمشق حدثًا مؤسّسًا في مسيرة الرسول، ومن اهتدائه إلى المسيح عنصرًا أساسيًّا في بناء شخصيّته. لكنّ لوقا أضاف إلى هذا الحدث ملاحظات ثلاث تعطي معنى لمسيرة بولس كما يقدّمها في كتاب الأعمال. فبولس أوّلاً لم يخن إيمان آبائه عندما تحوّل إلى شاهد ليسوع المسيح القائم من الموت، بل أجاب على دعوة الربّ له، كما فعل الأنبياء من قبل؛ وهو ثانيًا بحمله البشارة إلى الوثنيّين، تمّم الرسالة التي تلقّاها من المسيح، فتمّم بالتالي رسالة شعب الله المدعوّ ليكون "نورًا للأمم"؛ وبولس ثالثًا، بمعارضته الأعداء، يقترح على الجماعة، التي ستتلقّى كتاب أعمال الرسل، بأن تفهم تاريخها لاهوتيًّا، على نور الكتب.

أيّ رسول هو بولس؟ إنّه بالطبع اليهوديّ المرتدّ، لكنّه الرسول الذي بشّر بالجديد الجذريّ، جديد الله الذي أقام يسوع من الموت، وهو بالتالي الرسول الذي شجب الطقوس الوثنيّة الباطلة. وبولس هو الرسول الذي أعلن سيادة الله الخلاق على الإنسانيّة بأكملها. وبولس هو من أسمَعَ، وبشكل طارئ، صوت الله الذي يدعو البشر للعودة إليه والتعرّف إلى برّه، من خلال يسوع القائم من الموت. مجرّد قراءة سريعة لكتاب أعمال الرسل، تكشف لنا أنّ بولس شخص دائم الترحال. فهذا الرسول، الذي يحتلّ أكثر من نصف سفر الأعمال، هو إنسان لا يستقرّ في مكان.

تبدأ قصّة رحلاته منذ اهتدائه (أع ١: ٩–٣١)، وسنتبعه من أورشليم إلى دمشق ثم إلى أورشليم، فقيصريّة وصولاً إلى طرسوس. وفي رحلته الرسوليّة الأولى مع برنابا ويوحنا ومرقس (أع ١٣–١٤)، ينطلق من أنطاكيا سوريا، إلى سلوقية فقبرص (سلامن ثم بافس)، فبرجة، وأنطاكيا بسيدية، وإيقونيوم، ولسترة، ودربة، قبل أن يعود سالكًا الطريق إيّاها: لسترة، إقونيوم، أنطاكيا بسيدية، برجة، ومنها إلى أطاليا فأنطاكيا سورية.

وتوجّهت رحلته الرسوليّة الثانية إلى الوثنيين برفقة سيلا، ثمّ تيموتاوس (أع ١٥: ١٨–٣٦)، فانطلق من أنطاكيا سوريا إلى قيليقية فدربة ولسترة

(فريجية وغلاطية)، وتراوس ومنها نحو البلاد الأوروبيّة: ساموتراس وينابوليس وفيليبّي وأوفيبّوليس وأبّولونية وتسالونيكي وبيرية وأثينا وكورنتس وأفسس قبل أن يعود إلى قيصريّة فأنطاكية سورية.

وهدفت رحلته الرسوليّة الثالثة إلى تشديد الجماعات وتثبيتها، فانطلق كالعادة من أنطاكية سورية إلى أفسس، فاليونان ومقدونية وتراوس وميليطس ورودس، قبل أن يعود إلى صور فقيصريّة ثم القدس، حيث أوقِف وسُجن.

أمّا رحلة السجن في روما، فانطلقت من أورشليم القدس إلى قيصريّة فصيدا وقبرص وميرة والمرافئ الآمنة، حيث تعرّضوا للغرق، فمالطا وسيراكوزا وبوطيول ثم روما.

وينهي لوقا كتابه دون أن يختم النص، بل يتركه مفتوحًا على المستقبل، وكأنه بذلك يعلن أوّلاً، بأنّ مغامرة بولس في روما، هي بداية كتابة تاريخ جديد؛ ويدعو قرّاءه ثانيًا، إلى تحمّل مسؤوليّة الشهادة للمسيح، فيحقّقوا بذلك كلمة الرسول بولس، بخلاص البشريّة كلّها، بحسب وعد الرب لشعبه.

في بنائه لشخصيّة بولس على هذا الشكل الأدبيّ، استند لوقا إلى قراءة لاهوتيّة للتقاليد التاريخيّة المتعلّقة برسول الأمم، للدلالة على حضور تراثه الحيّ في جماعته. وكما يظهر من كامل الكتاب، لم يبتعد لوقا عن هذه التقاليد لأنّه عرف كيف يمزج في نصّه الأسلوب الوثائقيّ مع التفسيريّ والشعريّ.

انطلق شاول الشاب من أورشليم إلى دمشق، ليَسجُن المؤمنين بيسوع. وانطلق شاول الشيخ من أورشليم ليُسجن في روما باسم يسوع. بين هذين الانطلاقَين، كم قطع من مسافات وكم سار من طريق! كانت أنطاكيا سوريا مركز انطلاقه الدائم. في البداية حمل كلمة الله في البلاد التي يعرفها؛ فهو من طرسوس، والمدن التي زارها في رحلته الأولى قريبة من بلاده نوعًا ما. بعدها توغّل في أراضٍ بعيدة على الشاطئ الغربيّ من آسيا الصغرى، وما تردّد أمام دعوة الروح له للالتزام في مرحلة جديدة. فالحلم في تراوس (أع ١٦: ٦-١٠) ليس في نظره سوى دعوة من الرب ليحمل كلمة إلى العالم اليونانيّ الذي ينتظر الخلاص. في هذه المدن اليونانيّة الكبرى: فيليبّي، تسالونيكي، أثينا، كورنتس، لم يبقَ بولس سوى وقتًا كافياً لإعلان الكلمة، وتأسيس جماعات مؤمنين وتنظيمها. كانت هذه الجماعات قليلة العدد. ففي فيليبّي كانت الكنيسة من أصل يهوديّ تجتمع في منزل ليديا (١٦: ١٥)، فيما كانت الكنيسة من أصل وثنيّ تجتمع في بيت حارس السجن الذي اهتدى (١٦: ٣٤).

ما سافر بولس مرّة وحيدًا. بدأ رحلاته برفقة برنابا (١٣: ٣)، لكنّه سرعان ما صار الأوّل. اختلفَا في بداية الرحلة الثانية (١٥: ٣٦-٣٩)، فاتّخذ بولس من سيلا وتيموتاوس مرافقَين له. وفي الرحلة الثالثة صار له مرافقين من الجماعات التي أسّسها (٢٠: ٤). وفي رحلة الأسر أيضًا كان عنده مَن يرافقه، وكأنّه في رحلة رسوليّة (أع ٢٧).

فما معنى هذه الرحلات؟ يعطي لوقا الجواب في نهاية كتابه: "مكث بولس سنتين كاملتين في منزل خاصّ استأجره، يستقبل جميع الذين كانوا يأتونه، يعلن ملكوت الله ويعلّم بكلّ جرأة ما يختصّ بالربّ يسوع المسيح، لا يمنعه أحد" (أع ٢٨: ٣٠-٣١). تابعت الكلمة رحلاتها عبر الأجيال، فوصلت إلى " أقاصي الأرض" (أع ١: ٨)، حتّى وصلت إلينا. وهي اليوم تدعو "رحّالة" آخرين يحملونها الى حيث لم تصل بعد.

"أُعبُر إلى مقدونية، تعال وأنجدنا" (أع ١٦: ٩). من عالم إلى آخر، عبرت كنيسة سفر الأعمال مع بولس الرسول من رحم اليهوديّة، إلى العالم الرومانيّ – اليونانيّ، وبقيت متجذّرة في تربة العهد القديم. وستواجه طيلة مسيرة تاريخها تحدّي العبور إلى عوالم وثقافات متعدّدة دون أن تفقد أمانتها لجذورها.

٢ – بولس الرسائل

أن نعرف القدّيس بولس هو أن نكتشف الوحدة بين هذا الرجل وبين

حياته. "أن أكون رسولاً" هو "أن أتّبع يسوع"، "أن أتتلمذ للمسيح يسوع وأن أشاركه حياته وسرّه". كانت هذه قناعة بولس، ولذلك امتلكته رسالته بشكل كامل فصارت "حياته هي المسيح" (فل ١: ٢١).

تواصل بولس منذ البداية مع كنيسة أورشليم، وخاصّة مع بطرس، خلال زيارته الأولى بعد اهتدائه سنة ٣٨. منه تعرّف إلى يسوع معرفة فعليّة واقعيّة.

ثمّ زار القدس مرّة أخرى أثناء "مجمع أورشليم" الذي انعقد لدراسة مسألة حريّة الوثنيّين تجاه الشريعة. قَبِلَ يعقوب دخول مؤمنيّ الأمم في الكنيسة، دون أن يفرض عليهم الختانة، لا عن قناعة دينيّة مسيحيّة، بل عن ضرورة اجتماعيّة وسياسيّة. ففي خضمّ الأزمة التي كانت قائمة بين اليهود والرومان، كان إدخال الوثنيين في اليهوديّة، قبل قبولهم في المسيحيّة، يعني إدخال أشخاص غير موثوق بهم إلى الشعب اليهوديّ. ساهمت السياسة في قبول يعقوب لبولس، لكنّ هذا القبول بقي هشًّا. هذا ما اختبره بولس أثناء "مشكلة أنطاكيا". تأثّر موقف بطرس في أنطاكيا بمواقف المتهوّدين، مما أدّى إلى استحالة التعايش بين المسيحيّين من أصل يهوديّ وبين مَن هم من أصول وثنيّة. منذ ذلك الحين، بدأت معارضة بولس الشرسة لممارسة الشريعة، حتّى أنّه أبعد عنها المؤمنين الآتين من اليهوديّة بحسب ما ينقله لوقا في أع ٢١: ٢١.

مارس بولس عمله الرسوليّ بين السنوات ٤٠ و٥٠ تحت مسؤوليّة كنيسة أنطاكيا، وذلك حتّى رحلته الرسوليّة الكبرى التي أوصلته إلى كورنتس سنة ٥٠–٥١. كانت أنطاكيا في البدء جماعة منفتحة جدًّا، لكنّها خضعت في ما بعد لتأثيرات أنصار يعقوب الرسول رئيس كنيسة أورشليم (غل ٢: ١١ي). فقد اعتبر موفدوه المتهوّدون، أنّ لهم الحقّ في مراقبة البناء البولسيّ في غلاطية وفي فيليبّي وحتّى في كورنتس، وإعادته إلى الحضن اليهوديّ – المسيحيّ المتزمّت. عندها صار بولس مقتنعًا بعدم وجوب التساهل مع هؤلاء "الإخوة الكاذبين"، وولدت معارضة جذريّة للشريعة. عندها أصبح من الضروريّ له أن يتسلّح بوكالة رسوليّة، لا تقتصر على "رسالة توصية" من كنيسة معيّنة (٢ كو ٣: ١–٣)، بل على إرسال مباشَر من قِبَل المسيح القائم من الموت بالذات. على هذا الضوء، نفهم مقدّمات الرسائل التي تعود إلى ما بعد "مشكلة أنطاكيا" (باستثناء تسالونيكي)، وتشديد بولس الحازم، إن لم نقل الاستفزازيّ، على كونه "رسول، لا من الناس ولا بدعوة من إنسان، بل بدعوة من يسوع المسيح والله الآب" (غل ١: ١).

بوصوله إلى أفسس، عرف بولس بالأزمة في غلاطية. كان غضبه كبيرًا جدًّا؛ فقد فهم أن المتهوّدين يلاحقونه ويتعقّبون أثر أعماله، محاولين التشكيك بما يقوم به والعمل على هدم ما بناه. ربّما تعود الرسالة إلى غلاطية إلى هذه الحقبة، ممّا يعني أنّها كُتبت قبل الرسائل إلى الكورنثيّين. من هذا المنطلق، تكون براهين بولس الكتابيّة، العميقة والصعبة، موجّهة إلى الرسل المتهوّدين؛ وإن فهم الغلاطيّون شيئًا منها فالشكر لله!

في أفسس أُسِرَ بولس، فكتب الرسائل إلى فيليبّي وإلى فيلمون وإلى كولوسّي. صحيح أنها كنيسة لم يؤسّسها، لكنّه في رسالته، ينجد إبفراس العاجز أمام أزمة تسبّب فيها تيّار تصوّفيّ يمجّد مسيحًا كونيًّا، مترافقًا مع نسك متصلّب، وممارسة غير واعية لعبادة الملائكة، متناسيًا دور الصليب المحوريّ. في رسالته يعيد بولس الأمور إلى نصابها ممجّدًا بكر الخليقة كلّها الذي تمّم السلام "بدمه على الصليب" (كو ١: ٢٠).

كان استقبال يعقوب للمساعدات مُلتبسًا. لم يدافع أحد عن بولس الذي أوقِف في ساحة الهيكل. بعد محاكمة أولى في روما، أُطلِق سراحه. كانت رحلته إلى أسبانيا، سريعة جدًّا. فقد تأخّرت أربع سنوات، ولم تكن جيّدة التحضير، وغير مدعومة من جماعة روما. لتعويض هذا الفشل، بدأ بولس رحلة رسوليّة جديدة في الحوض الشرقيّ للبحر المتوسّط. وصل إلى الليريكون (يوغوسلافيا الحاليّة) التي

كان قد مرّ بها سريعًا في رحلته الثالثة (رو ١٥: ١٩)؛ ثمّ إلى أفسس من جديد. شعر بضرورة العودة إلى روما لمساندة الجماعة المسيحيّة المصابة باضطّهاد نيرون (سنة ٦٥). لكنّ إعلان البشارة بجرأة كان يعني وضع المسيحيّين أمام خطر لفت انتباه السلطة الامبراطوريّة، أي الموت. أُوقِف بولس، فوجد نفسه وحيدًا في أسر قاسٍ جدًّا. لنا في الرسالة الثانية إلى تيموتاوس صدى لمسيرة الرسول الروحيّة الأخيرة هذه. أخيرًا تحقّقت رغبته في أن "يترك هذه الحياة ليكون مع المسيح" (فل ١: ٢٣) فقُطع رأسه، عالمًا أنّه بذلك يعلن أمام الملأ بأنّه "حفظ الإيمان إلى الغاية".

٣- يعرّف بولس عن نفسه كالتالي

"دُعيَ ليكون رسولاً، وأُفرد ليعلن بشارة الله" (رو ١: ١)؛ "ألستُ رسولاً" (١ كور ١:٩)؛ "عبد الله ورسول يسوع المسيح ليهدي الذين اختارهم الله إلى الإيمان" (تي ١: ١)؛ "خادم يسوع المسيح لدى الوثنيين" (رو ١٥: ١٦)؛ "كاهن إنجيل الله" (رو ١٥: ١٦)؛ "وكيل أسرار الله" (١ كو ٤: ١)؛ "معاون الله" (١ كو ٣: ٩)؛ "رسول الله" (٢ كو ١: ١)؛ "سفير للمسيح" (٢ كو ٥: ٢٠)؛ "خادم الله" (٢ كو ٦: ٤)؛ "خادم الإنجيل" (أف ٣: ٧)؛ "معلّم الوثنيّين في الإيمان والحقّ" (١ تم ٢: ٧)؛ "خادم المسيح يسوع" (رو ١: ١)؛ "خدم من أجل يسوع" (٢ كو ٤: ٥).

كيف استوعب بولس دعوته كرسول؟

اقتنع بولس أنّه "مدعوّ ليكون رسولاً"، لا بواسطة تعيين من إنسان مهما علت رتبته، ولا بناء على طلبه الخاصّ لوظيفة رسول، بل باختيار إلهيّ فقط. في رسائله، يردّد رسول الأمم مرارًا أنّ كلّ حياته ثمرة مبادرة الرحمة الإلهيّة المجّانيّة (١ كو ١٥: ٩-١٠؛ ٢ كو ٤: ١؛ غل ١: ١٥). اختير ليعلن إنجيل الله (رو ١: ١)، وينشر إعلان النعمة الإلهيّة التي تصالح الإنسان مع الله، والإنسان مع ذاته ومع الآخرين، بالمسيح يسوع. كان نجاح رسالته مرتكزًا على التزامه الشخصيّ بإعلان الإنجيل، في إعطائه ذاته كليًّا لا للمسيح. لم يخف المخاطر مرّة، ولا تراجع أمام الصعوبات والاضطّهادات، فأعلن عاليًا "لا موت ولا حياة، لا رئاسات ولا سلاطين، لا حاضر ولا مستقبل، لا قدرات، لا علو ولا عمق ولا أيّ خليقة أخرى يمكنها أن تفصلنا عن محبّة الله لنا بالمسيح ربّنا" (رو ٨: ٣٨-٣٩).

وكأنّه آتٍ من الظلّ. لا يذكر عن عائلته شيئًا، إنّه من الذي لم يشأ أن يستعيد شيئًا من إنسانه القديم، بعد أن صار "خلقًا جديدًا" بلقائه المسيح (غل ٦: ١٥). وهو الذي شاء أن ينظر إلى الأمام دون أن يلتفت بعد الآن إلى الوراء، فترك ماضيه في الظلّ. مرة واحدة أراد شاول بولس أن يعطي بعض المعلومات عن ذاته، لكنّها لا تروي عطش مَن يريد التعرّف إلى تاريخ هذا الرسول (فل ٣: ٤ب-٦). تؤلّف هذه المعطيات، بالحقيقة، مجرّد "شهادة حسن سلوك" ليهوديّ ملتزم: مختون في اليوم الثامن بحسب أصول الشريعة اليهوديّة؛ من سلالة رفيعة المستوى بما أنّه من قبيلة بنيامين، "عبرانيّ ابن عبرانيّ"، وليس من الطارئين على الشعب المختار. هو ليس مجرّد "يهوديّ" بل "عبرانيّ"، على علاقة وثيقة بأورشليم وبثقافتها ولغتها العبريّة، مع أنّه من الشتات.

كنّا نتمنّى أن نجد في كتاباته وصفًا لما كانت عليه صورته، لكنّه يلتزم الصمت المطبق على هذا الصعيد. نقرأ في مقطع من **كتاب أعمال بولس المنحول** (المكتوب في آسيا الصغرى، والذي يعود إلى سنة ١٥٠) عن بعض ملامحه: "رجل قصير القامة، لا شعر في رأسه، ساقان مقوّسان، شديد البأس، حاجبان مضمومان، أنف معقوف بعض الشيء، مملوء لطافة. بدا تارة بشكل إنسان وطورًا كان وجهه وجه ملاك".

من طرسوس؟ هذا ما لا يقوله بولس في رسائله. يحمل الهويّة الرومانيّة؟ لا يذكر هذا الأمر أبدًا، بل على العكس يقول بأنّه "جُلِد" (٢ كو ١١: ٢٥)، وهو أمر من غير المعقول أن يحدث لمواطن رومانيّ.

متزوّج؟ لا ندري. لكنّه لم يكن متزوّجًا أثناء رسالته، وهو ما يدلّ عليه

اعتراضه على انتقادات الكورنثيّين: "أمَا لنا حقّ أن نستصحب امرأة مؤمنة كسائر الرسل وإخوة الربّ وصخر؟". لكنّ هذا لا يؤكّد أنّه لم يتزوّج أبدًا، فذلك أمر لم يكن مألوفًا عند يهوديّ ملتزم.

متعلّم؟ هذا ما يؤكّده لوقا في كتاب أعمال الرسل، ويُبرزه أسلوب رسائل القدّيس. فهذه الرسائل تعكس صورة رسول يمتلك فنّ الكتابة، والخطابة، والفلسفة، والأدب اليونانيّ، كما يمتلك معرفة الكتب المقدّسة ومنهجيّة الرابيّنيّين اليهود، والفريّسيّين منهم خاصّة. من الواضح أنّه تمرّس طويلاً في منهجيّة هؤلاء، التي كانت تقوم على البرهان والمجادلة المتعلّقة بموضوع معيّن من مواضيع الشريعة.

مضطّهِد الكنيسة؟ هذا ما يذكره بولس جهرًا وبوضوح في رسالته إلى أهل غلاطية (غل ١: ١٣-١٤). مضطّهِد جامح لا يُغفر عمله. كان الأفضل... في الاضطّهاد! بحسب قوله. أيّ اضطّهاد هذا؟ ذلك ما لا يصرّح عنه.

يعطي لوقا في كتاب أعمال الرسل صورة عن شاول-بولس الهمجيّ الدمويّ (أع ٨: ٣)، وهو ما لا يمكن أن تكون السلطة الرومانيّة قد سمحت به، من جهة، وما لا يمكن لفرّيسي متعلّق بطقوس الطهارة أن يتورّط به، من جهة ثانية. ثمّ إنّ الكنيسة لم تكن في ذلك الوقت قد انفصلت عن اليهوديّة، حتّى أنّها لم تكن قد وَعَت الجديد الذي تحياه؛ فالرسل كانوا لا يزالون يرتادون الهيكل كيهود أتقياء، ويدافعون عن الخط اليهوديّ: "ما جئت لأنقض الشريعة بل لأكمّل" (مت ٥: ١٧-١٨). فلربّما كان اليهود - المسيحيّون يشكّلون بالأحرى تيّارًا يهوديًّا مميّزًا، على شاكلة التيّارات التي كانت عديدة في ذلك الوقت من معمدانيّين، وقمرانيّين... ولم يكن وجود جماعات خاصّة في اليهوديّة يشكّل معضلة، طالما أنّها لا تهدّد الإيمان. فإن كان اضطّهاد ما قد وُجد فهو لم يَطل، على الأرجح، سوى جناح صغير من المسيحيّة يتمثّل بفريق يقوده إسطفانوس الذي تخطّى حدود المقبول عندما مسّ الهيكل والشريعة (أع ٦: ١٣-١٤). في كلّ الأحوال، كان هذا الأخير هلّينيًّا، لا يتكلّم الآراميّة ولا العبريّة.

وما كان دور بولس في هذا الاضطّهاد؟ من الصعب أن يكون المسؤول عنه في أورشليم. ربّما كان من الوشاة، أو من شهود الاستجوابات... في كلّ الأحوال، لم تدم حياته كمضطّهِد طويلاً؛ فطريق دمشق لم تكن بعيدة.

خبرات تصوّف؟ حوالى السنة ٣٤، بحسب التاريخ الذي يمكننا أن نحدّده استناداً إلى الرسالة إلى الغلاطيّين، اهتدى بولس فجأة إلى المسيحيّة، على إثر خبرة تصوّفيّة غير عاديّة.

إنّه الحدث المفصليّ في حياته، وفي مستقبل المسيحيّة. لولا حدث دمشق، لما كان لبولس صفة الرسول. طالما استعاد بولس هذا الحدث، وطالما استعان به ليبرّر سلطته، وليتساوى مع "الآخرين": بطرس ويعقوب ويوحنّا، الذين عرفوا المسيح في حياته على الأرض.

كلّ الصور التقليديّة لهذا الحدث نعرفها من كتاب أعمال الرسل (أع ٩؛ ٢٢؛ ٢٦). أراد لوقا من كتابته الخبر ثلاث مرات أن يصف خبرة توبة شخص كان قد قدّمه كخاطئ كبير سينال الخلاص والعماد، بواسطة التلاميذ. إنّها ليست دعوة بل توبة.

أمّا بولس فقد فهم هذه الخبرة بشكل آخر: إنّ لقاءه بالربّ هو دعوة قبل كلّ شيء، إنّها دعوة من الله الذي جعله "رسول يسوع المسيح". منذ ذلك الحين صار شاول "رسول يسوع المسيح، لأنّ الربّ ظهر له، وسيكون دومًا، وطيلة حياته "رسول المسيح يسوع" لأنّ يسوع المسيح صار جوهر حياته، وجوهر رسالته.

يترجم بولس هذه الدعوة في رسائله تحت شكلَين: إنّها أوّلاً حدث مؤسِّس يعطي شرعيّة لرسالته، بمعنى أنها جعلته وسيطًا بين الله والبشر، وهي ثانيًا مَثَلٌ عن رحمة الله.

لم يفهم بولس ما حدث له على طريق دمشق إلاّ من خلال "رحمة الله". هذه الرحمة وحدها هي ما أعطت لرسالة بولس شرعيّتها. هذا ما يؤكّده

في رسالته إلى أهل غلاطية، مستعينًا بأسلوب أشعيا النبي: "حَسُنَ لدى... من بطن أمي..." (غل ١: ١٥-١٦)

بكلام آخرفهم بولس أنّ "كلّ شيء نعمة". خبرة دمشق هي ثمرة إرادة الله وحدها، إنّها عطيّة مجّانيّة من الله. بذلك صار بولس مثالاً حيًّا لرحمة الله، الذي، بنعمته، جعل منه رسولاً لإعلان بشرى جوهريّة مفادها أنّ "يسوع هو ابن الله".

خبرة دمشق بحسب بولس، هي خبرة تجلٍّ إلهيّ حميم. لكنّ الإطار يتغيّر في الرسالة الأولى إلى الكورنثيّين، فتتحوّل لهجة الرسول الى الحِدّية أمام انتقادات تضع مرتبة بولس بين الرسل موضع الشك (١ كو ١٥:٩-١٠)

هنا يتحوّل الماضي من موضوع شهادة عن الرحمة الإلهيّة، إلى برهان يؤكّد رسوليّته بالرغم من ضعفه الشخصيّ. بتأكيده مآثره في الاضطهاد، ومكانته الوضيعة، أراد بولس أن يبرز قيمة رسالته وكأنّه يقول: "لا يجب النظر إلى بولس، بل إلى القدرة الإلهيّة"؛ فليس " للإناء الخزفي" أن يطلب كرامة، لأنّ محتواه الإلهيّ وحده يجب أن يظهر. هذا ما أعلنه بولس فعليًّا "وكأنّ الله يعظ على ألسنتنا" (٢ كو ٥: ٢٠). هنا يأخذ التجلّي الداخليّ الحميم بُعْدًا آخر هو تنصيب الرسول ناطقًا بالكلمة الإلهيّة.

ما الذي حدث فعلاً على طريق دمشق إذًا؟ لا قيمة للجواب من وجهة نظر بولس؛ فلن نطالها إلاّ من خلال ما يقوله هو: كانت له نعمة خبرة اللقاء بالربّ، اقتنع من خلالها بأنّ يسوع الذي يضطّهده حيّ ممجّد؛ هو ابن الله، وهو الذي أقامه رسولاً.

يسوع حيّ، وبالتالي فإنّ العبور إلى الإيمان يتمّ بالقيامة. من هنا أخذت القيامة المكان المحوريّ في الإيمان المسيحيّ. والقيامة ليست مجرّد بشرى عن يسوع، بل هي بشرى تخصّ البشريّة بكاملها، لأنّه بقيامة المسيح بدأت مسيرة القيامة العامّة: بالمسيح يحيا الجميع؛ ودون هذا الإيمان، المسيحيّة هباء لا معنى لها.

المسيح هو ابن الله. في ذلك تأكيد يكمّل ما سبق، ويشكّل الجديد الذي أتى به بولس. فالمسيح ليس مجرّد مخلّص محارب، أو مجرّد ابن إنسان على صورة ما قدّم دانيال النبيّ، بل هو ابن الله منذ الأزل وإلى الأبد. هذا الكشف جعل من بولس رسولاً. فعندما رأى بولس ابن الله صار من عداد الرسل الذين أقامهم يسوع نفسه. ليس حدث طريق دمشق نقطة انطلاق جديدة. إنّه بالأحرى تغيير في الأهداف البولسيّة، وتصويب لقناعتَين: في شخص يسوع، المسيح المصلوب وجدت اليهوديّة، التي اعتنقها طيلة حياته، تمامها. هذا من جهة؛ ومن جهة ثانية، صار تلاميذ يسوع، الذين كان يضطّهدهم، إخوته.

هكذا فهم بولس أنّ عليه تغيير حياته. لم يعد حائكًا يفكّر كرسول، بل رسول يمكنه أن يكون حائكًا ليكفي حاجاته عند الحاجة. ولم يعد عليه بالتالي، سوى بدء المسيرة واثقًا من أنّه لا يأخذ الأوامر الرسوليّة إلاّ من الله بالذات.

٤ – خطواته الرسوليّة الأولى

فيما يصمت كتاب أعمال الرسل عن بداية حياة بولس الرسوليّة طيلة إثنتي عشرة سنة، يلمّح بولس إلى فترة الظلّ هذه في رسالته إلى غلاطية: "لَمَّا حَسُنَ لدى اللهِ الَّذي أَفرَدَني، مُذ كُنتُ في بَطْنِ أُمِّي، ودَعاني بنِعمَتِه، أَن يَكشِفَ لِيَ ابنَه لأُبَشِّرَ به بَينَ الوَثَنِيِّين، لم أَستَشِرِ اللَّحْمَ والدَّم، ولا صَعِدتُ إِلى أُورَشليم قاصِدًا مَن هم رُسُلٌ قَبْلي، بل ذَهَبتُ مِن ساعَتي إِلى دِيارِ العَرَب، ثُمَّ عُدتُ إِلى دِمَشْق" (غل ١: ١٥-١٧)

بعد نعمة الكشف التي وهبه إيّاها الربّ، يؤكّد بولس بأنّه لم يستشر "اللحم والدم"، ولم ينزل عند رغبات الجسد؛ فهل يعني بذلك أنّه لم يخف من المغامرة بل انطلق في الرسالة؟ أم يؤكّد عدم عودته إلى إنسان مهما كان عظيمًا، فَلِمَ يستشر المسيحيّين الآخرين؟ المؤكّد أنّه لم يعد إلى معقل المسيحيّة في أورشليم، بل توجّه إلى "بلاد العرب"، واثقًا من أنّ دعوته هي من الله مباشرة.

كانت بلاد العرب في ذلك الوقت مملكةَ الأنباط (عربيّة بترا) في الأردن

الحاليّة. لكنّ هذه البلاد كانت معادية لليهود بعد أن طلّق هيرودس أغريبّا ابنة أريتاس الرابع ملك الأنباط، ليتزوّج من هيروديا امرأة أخيه فيلبّس. فمع أنّ أريتاس لم يعلن الحرب خوفًا من تدخّل الرومان لجعل مملكته ولاية رومانيّة، كان من غير الممكن ليهوديّ كشاول بولس أن يمكث عندهم طويلاً. بداية بولس كانت بلا شكّ في دمشق. هناك حصل على معلوماته المسيحيّة الأولى، وعلى تنشئته الرسوليّة الأولى. لكنّ الأمر لم يطل قبل أن يستلم أريتاس ملك الأنباط مسؤوليّة الحكم في دمشق، حيث كانت الجالية اليهوديّة كبيرة مزدهرة. فهل واجه شاول أعداءً كان قد التقاهم في بلاد العرب؟ لا ندري. لكنّ الرسالة الثانية إلى كورنتس تؤكّد أنّه هرب سريعًا من دمشق: "كانَ عامِلُ المَلِكِ الحارِثِ في دِمَشْق يَأمُرُ بحِراسةِ المَدينةِ لِلقَبْضِ عليَّ، ولكِنّي دُلِّيتُ في زِنْبيلٍ مِن كَوَّةٍ على السُّور فنَجَوتُ مِن يَدَيه" (٢ كو ١١: ٣٢-٣٣).

وضعتة صعوبات رسالتة في حالات لا يُحسد عليها، لكنّه لم يحاول يومًا إخفاءها.

٥- التنشئة في أورشليم قرب بطرس

في متابعتنا لقراءة الرسالة إلى غلاطية المصدر الرئيسي للمعلومات حول هذه الحقبة الخفيّة من حياة بولس، نقرأ:

"وبَعدَ ثَلاثِ سَنَوات صَعِدتُ إلى أُورَشَليمَ لِلتَّعرُّفِ إلى صَخْر، فأَقَمتُ عِندَه خَمْسةَ عَشَرَ يَومًا، و لم أَرَ غَيرَه مِنَ الرُّسُلِ سِوى يَعقوبَ أَخي الرَّبّ. وما أَكتُبُه إلَيكم فاللهُ شاهِدٌ على أَنّي لا أَكذِبُ فيه. ثُمَّ أَتَيتُ بِلادَ سورِيَةَ وقيليقِيَة" (غل ١: ١٨-٢١).

ولكن، بعد ثلاث سنوات على ماذا؟ هل على دعوته أم على هربه من دمشق؟ من المستحيل التحديد. الشيء الوحيد الذي يمكن تأكيده هو أنّ بولس "صعد" إلى أورشليم حوالى السنوات ٣٧-٤٠ ليرى بطرس. أعطت هذه الزيارة بولس ضمانات ثلاث: أوّلاً ضمانة بطرس، فهو الأوّل بين الرسل، والشاهد على حياة يسوع وعلى قيامته، لقاؤه إذًا هو ضمانة لإكمال تنشئة المهتدي حديثًا. بواسطة بطرس، تعرّف بولس على تفاصيل من حياة الربّ، حفظ أقواله، وتعمّق على نوره في المواضيع اللاهوتيّة المطروحة في جماعة أورشليم. وفي الوقت عينه، ساهم هذا اللقاء في أن يتعلّم من لم يكن مقبولاً كرسول "مهنة الرسول".

وأعطته هذه الزيارة ثانيًا ضمانة يعقوب "أخ الربّ". فإن كان بطرس يتمتّع بتأثير معيّن على جماعة اورشليم، فهو لم يكن رئيسها. كان يعقوب رئيس العبرانيّين الأوّل، وكانت سلطته المعنويّة الأكيدة. لكن يعقوب كان يمثّل في الكنيسة الرسوليّة تيّارًا ملتزمًا باليهوديّة، ينادي بضرورة الحفاظ على الشريعة. فكان لقاء بولس به ضمانة إضافيّة له.

وأعطته ثالثًا، ضمانة زيارة مهد المسيحيّة وكأنّها أوراق اعتماده الرسميّة قبل رحلته إلى سوريّا وكيليكية.

أسّس بولس أثناء رحلاته العديد من الجماعات، نعرف ذلك من كتاب أعمال الرسل الذي يشدّد على صورة بولس الواعظ الشغوف والخطّيب المتفوّه ذي الأعمال الفاعلة والمدهشة. أمّا بولس فلا يتكلّم في رسائله عن أعماله الخارقة إلا بخفر (٢ كو ١٢: ١٢؛ رو ١٥: ١٨)، فلا يصفها ولا يعتبرها أساسيّة في مسيرة الإيمان. لكنّه بالمقابل، أضاف إلى مسؤوليّاته التأسيسيّة، رسالة كتابة الرسائل، فحوّل عادة المراسلات بين الأهل والأصحاب، إلى كتابة رسائل تهتمّ بأمور الجماعات عن بعد. معه صارت الرسائل وسيلة لإكمال عمل التبشير.

صعوبة العمل على تحضير الصحائف للكتابة، لم تكن عائقًا، فقد كان بولس من الذين يعرفون كيف يعملون ضمن فريق إن في البشارة أو في الكتابة (رو ١٦: ٢٢).

كان كلّ شيء يسير على ما يرام رغم الصعوبات، لكن برزت مشكلة كبيرة ومزدوجة: أوّلاً عدم الصبر على الأزمات، كما نقرأ في الرسالة الأولى إلى تسالونيكي. نجد في الحقيقة بين

سطور هذه الرسالة آثار اضطّهاد لم يحفظه التاريخ: "بَعَثْنا بِطيموتاوُسَ أَخينا ومُعاونِ اللهِ في إِعْلانِ بِشارةِ المسيح لِيُثَبِّتكم ويُؤَيِّدكم في إِيمانِكم لِئَلاَّ يَتزَعزَعَ أَحَدٌ في هذِهِ الشَّدائِد" (١ تس ٣: ٢-٨)، وثانيًا عدم الصبر على احتمال الوقت بانتظار الخلاص. تفاجأ بولس بقناعات تؤكّد عودة المسيح قريبًا جدًّا، فكان أن كتب يجيبهم ويصحّح المسار (١ تس ٤: ١٥-١٧).

عرف بولس أنّ الكرازة لم تكن كافية، وأنّ الناس بحاجة إلى مواكبة، وإلى من يوضح لهم السبيل المسيحيّ الحقّ، فكتب: "أَنتُم، أَيُّها الإِخوَة، فلَستُم في الظُّلُماتِ حتَّى يُفاجِئَكم ذلِكَ اليَومُ مُفاجَأَةَ السَّارِق، لأَنَّكم جَميعًا أَبناءُ النُّورِ وأَبناءُ النَّهار. لَسْنا نَحنُ مِنَ اللَّيلِ ولا مِنَ الظُّلُمات. فلا نَنامَنَّ كما يَفعَلُ سائِرُ النَّاس، بل علَينا أَن نَسهَرَ ونَحنُ صاحون. فالَّذينَ يَنامونَ إِنَّما هم في اللَّيلِ يَنامون، والَّذينَ يَسكَرونَ إِنَّما هم في اللَّيلِ يَسكَرون. أَمَّا نَحنُ أَبناءَ النَّهار فلْنَكُنْ صاحين، لابِسينَ دِرْعَ الإِيمانِ والمَحبَّة وخُوذَةَ رَجاءِ الخَلاص" (١ تس ٥: ٤-٨).

٦ - بولس رسول الأمم

كان اليهود ينتظرون اليوم الأخير لقبول دخول الوثنيين في شعب الله، أما بولس فقد قرّر إيصال البشرى الى العالم اليوناني-الروماني. ربما كان توقّفه في غلاطية بسبب المرض، واستقبال أهلها الحار له، في حين كان العالم المتمدّن ينعتهم بالبرابرة، ثم اهتداؤهم إلى البشارى السارّة، قد أدّت ببولس اليهودي إلى طرح أسئلة عديدة حول العديد من قناعاته القديمة: لم يكن الغلاطيّون يعرفون الشريعة لكنّهم اعتنقوا الإيمان، فهل ذلك يعني أن الشريعة غير ضروريّة؟ كيف الوصول إلى الله إذًا دون مساعدة الشريعة وأعمالها؟

وما العمل بالوثنيين؟ فالمسيح هو تمام انتظارات اليهود، لكن الأمم في أنطاكيا وتسالونيكي وكورنتس... آمنوا به، فكيف التعامل مع عاداتهم وتقاليدهم...؟

كان لا بدّ من أخذ قرار جامع. فكان مجمع أورشليم كما ينقل بولس أخباره الأساسيّة في رسالته إلى غلاطية ٢: ١-١٠. يبدو أن اللقاء كان عاصفًا في البداية: "ثُمَّ إِنِّي بَعدَ أَربَعَ عَشْرَةَ سَنة صَعِدتُ ثانِيةً إِلى أُورَشَليمَ مع بَرنابا واستَصحَبتُ طيطُسَ أَيضًا... وإِلاَّ لَكانَ ذَلك بِسَبَبِ الإِخوَةِ الكَذَّابينَ المُتَطَفِّلينَ الَّذينَ دَسُّوا أَنفُسَهم بَيننا لِيتجَسَّسوا حُرِّيَّتَنا الَّتي نَحنُ علَيها في المسيحِ يسوع فيَستَعبِدونا، ولَم نُذعِنْ لَهم خاضِعينَ ولَو حِينًا لِتَبْقى لَكم حَقيقةُ البِشارة" (غل ٢: ١، ٤-٥).

فقد هاجم هؤلاء الإخوة الكذابون، الملتزمون بقناعاتهم اليهوديّة القديمة، ما ينادي به بولس من "حريّة بيسوع المسيح" و "حقيقة الإنجيل". لكن نتيجة اللقاء جاءت متماشية مع طروحات بولس، فشكّل "اتّفاق أورشليم" توافق على استراتيجيّة تنبشيريّة، تقضي باقتسام حقل التبشير بين بطرس وبولس، وبطلب القيام بحملة جمع للتبرّعات (غل ٢: ٥-١٠). أقرّ المسؤولون إذًا بأولويّة الإيمان على الشريعة. لكن الأمور لم تكن بهذه السهولة. هذا ما بم يلبث بولس أن لمسه: "لَمَّا قَدِمَ صَخْرٌ إِلى أَنْطاكِية، قاوَمتُه وَجْهًا لِوَجْهٍ لأَنَّه كانَ يَستَوجِبُ اللَّوم: ذلِكَ أَنَّه، قَبْلَ أَن يَقدَمَ قَومٌ مِن عِندِ يَعْقوب، كان يُؤاكِلُ الوَثَنِيِّين. فلَمَّا قَدِموا أَخَذَ يتَوارى ويتَنحَّى خوفًا مِن أَهْلِ الخِتان، فجاراه سائِرُ اليَهودِ في رِيائِه، حتَّى إِنَّ بَرنابا انقادَ هو أَيضًا إِلى رِيائِهِم" (غل ١١: ٢-١٣).

في الحقيقية، لم يستسلم المتهوّدون بسهولة بعد نتائج المجمع، فأرسلوا موفودين يدافعون عن وجهة نظرهم. تأثّر بهم العديدون ومنهم بطرس، الذي وجد نفسه مضطرًّا إلى لعودة لممارساته القديمة. وجد بولس نفسه مستهدفًا فترك أنطاكيا، وشكّل معه فريقًا رسوليًا مؤلّفًا من: أبلّس الآتي من الاسكندريّة، والذي عمل بجهد في كورنتس (١ كو ١)؛ برسكيلا وأكيلا اللذين أسّسا جماعات بيتيّة في كورنتس (١ كو ١٦:١٩) حتّى روما (رو ١٦: ٥)؛ إبافراس الكولوسي (كو ٤: ١٢)؛ إبافروديت الفيليبي (فل ٢:٢٥)؛

أونيسميس عبد فيلمون الكولوسي الذي اهتدى إلى المسيحيّة (فلم)؛ وتيموتاوس الذي رافق بولس طيلة حياته، وقد عهد إليه بالمهمّات الدقيقة (معالجة مشاكل الكنائس المقدونيّة (١ تس ٣: ٦) قبل أن يعود للانضمام إلى بولس في كورنتس (٢ كو ١: ١٩)، ليكون معاونه الأول (رو ١٦: ٢١)، ويقود مهمّة صعبة في كورنتس باءت بالفشل (١ كو ٤: ١٧؛ ١٦: ٩-١١). تبع بولس إلى مقدونية (رو ١٦: ٢١)؛ وتيطس الانطاكي الذي طالما توكّل بمهمّات دبلوماسيّة، فرافق بولس إلى مجمع أورشليم (غل ٢: ١)، واهتمّ بمعالجة الأزمة الكورنثيّة بعد فشل تيموتاوس (٢ كو ٧: ٦-١٦)، وجمع التبرّعات (٢ كو ٨: ١٦-٢٤).

بالرغم من نجاحاته الأكيدة، ومن استناده إلى جماعات مسيحيّة ثابتة، بقي بولس في موقف الضعيف أمام السلطة الكنسيّة، وأمام المتهوّدين الذين ما انفكّوا يهاجمونه. طبعت هذه المواجهات كل فترة مكوّثه في أفسس كما يظهر من رسالتيه إلى غلاطية وإلى فيليبي.

٧- بولس بحسب الرسالة الى غلاطية

تأسّست كنيسة غلاطية على إثر اضطراره إلى التوقّف عندهم لمرض ألمّ به "كُنتُ لَكم مِحنَةً بِجِسْمي، فم تَزدَروني ولَم تَشمَئِزُّوا مِنِّي، بل قَبِلتُموني قَبولَكم لِمَلاكِ الله، قَبولَكم لِلمَسيحِ يسوع. فأَينَ ذاكُمُ الاغتِباط؟ إِنِّي أَشهَدُ أَنَّكم، لو أَمكَنَ الأَمْر، لَكُنتُم تَقتَلِعونَ عُيونَكم وتُعطوني إِيَّاها" (غل ٤: ١٤-١٥)، فكانت كنيسة واعدة انطلقت سريعًا وازدهرت. لكن الأمر لم يطل قبل وصول المتهوّدين من انطاكيا. بدأ هؤلاء بالتصويب على بشارة بولس لـ"تصحيحها" بحسب الشريعة. استندوا في مواجهتهم، من جهة، على أن بولس لم يعرف يسوع التاريخي، فهو بالتالي ليس رسولاً حقيقيًا؛ ومن جهة ثانية على أنه لا يدعو إلى الثقة كونه اضطهد الكنيسة في السابق؛ وأخيرًا على كون كرازته بعدم ضرورة الشريعة والختان ليست موضوع إجماع في الكنيسة.

على هذه الانتقادات الثلاثة، أتى جواب بولس مثلّثًا:

أنا رسول (غل ١-٢) وقد أقامني الله نفسه رسولاً ليسوع المسيح (غل ١: ١١-١٢)؛ الشريعة غير ضروريّة (غل ٣: ١-٢)، وهذا ليس جديدًا في كل الأحوال، فابراهيم أيضًا آمن و لم تكن الشريعة قد وُجدت بعد (غل ٣: ٦-٧). ولكن كيف تحوّلت شريعة الله إلى عائق؟ فذلك لأن الناس فهموا أنها غاية في حين أنها ليست سوى مرحلة ضروريّة في مسيرة نضوج البشريّة، لعبت دور المربّي. واليوم انتهى دورها لأن المسيح أزال الفروقات بين يهودي ووثني... وصار البشر أولادًا لله (غل ٤: ٧-٩). وصارت حياة الإنسان ارتباطًا مباشرًا بيسوع (غل ٢: ٢٠). بعد الآن المهم الوحيد هو الايمان؛ ولمن يريد أن يعرف جوهر المسيحية بالتحديد، يعرضها بولس في غل ٥-٦.

لكن هذا الشرس في الدفاع عن رتبته كرسول، والمستميت في البرهان عن صوابيّة خطّه اللاهوتي، هو أيضًا الحنون الرقيق المهتمّ بأمور جماعته كأب قلق على مستقبل من ولدهم للحياة: "١٢إِنَّ أُولئِكَ الَّذينَ يُريدون تَبْييضَ وُجوهِهِم في الأُمورِ البَشَرِيَّة هُمُ الَّذينَ يُلزِمونَكُمُ الخِتان، وما ذاكَ إِلاَّ لِيَأمَنوا الاِضْطِهادَ في سَبيلِ صَليبِ المسيح... أَمَّا أَنا فمَعاذَ اللهِ أَن أَفتَخِرَ إِلاَّ بِصَليبِ رَبِّنا يسوعَ المسيح! وفيه أَصبَحَ العالَمُ مَصْلوبًا عِنْدي، وأَصبَحتُ أَنا مَصْلوبًا عِندَ العالَم. فما الخِتانُ بِشَيءٍ ولا القَلَفُ بِشَيء، بلِ الشَّيءُ هو الخَلْقُ الجَديد... فلا يُنغِّصَنَّ أَحَدٌ عَيْشي بَعدَ اليَوم، فإِنِّي أَحمِلُ في جَسَدي سِماتِ يسوع" (غل ٦: ١٢-١٧).

٨ - بولس الرسالة الى فيليبي

واجه بولس في فيليبي، الصعاب الكبيرة (٢ كو ١١: ٢٣-٢٥). لكنّه احتفظ طيلة حياته بعاطفة خاصة لهذه المدينة التي لم تكفّ يومًا عن مساعدته (فل ١: ٨)، وعن معاونته (فل ١: ٥).

في رسالته إلى أهل هذه المدينة، وقد كتبها على الأرجح في أفسس، حيث

يبدو أنه سُجن لفترة، يعلن بولس قلقه من صدور الحكم عليه بالموت، لكن لحسن حظّه ساهم سجنه في نشر البشارة (فل ١: ١٣-١٤). في كل الأحوال الموت ربح، لأنه وسيلة للقاء بيسوع الرب، لكن حاجة الجماعة تجعله في تنازع بين رغبته بالموت وضرورة الحياة (فل ١: ٢١-٢٧). لا يجد بولس ما يلوم عليه أهل فيليبي سوى وجود الانقسامات (فل ٢: ١-٢)، والكبرياء. على ذلك يأتي جوابه نشيدًا رائعًا للاهوت الصليب والمصلوب الممجّد (فل ٢: ٦-١١).

لكنه في هذه الرسالة أيضًا ينبّه إلى خطر المتهوّدين "إحذَروا الكِلاب، إحذَروا العَمَلَةَ الأَشرار، إحذَروا ذَوي الجَبّ، فإِنَّما نَحنُ ذَوو الخِتانِ الَّذينَ يُؤَدُّونَ العِبادةَ بِرُوحِ الله ويَفتَخِرونَ بِالمسيحِ يسوع، ولا يَعتَمِدونَ على الأُمورِ البَشرِيَّة" (فل ٣: ٢-٣)، قبل أن يشكر بعاطفة جيّاشة (فل ٤: ١١-٢٠).

طيلة حياته عمل بولس بيديه ليكفي حاجاته، لكنّه قبل مساعدة هذه الكنيسة برهانًا على عاطفته تجاهها (فل ٤: ١٧-١٨).

في المرحلة الأخيرة من سجنة المفترض في أفسس برزت مشكلة أونيسمس العبد الهارب من سيده فيلمون، يعلن له فيها أن عبده على هذه الأرض هو أخ حبيب بالمسيح للأبدية (فلم ١٥-١٦). ثم أن ليولس مكانة خاصة عنده، بها يتجرّأ أن يطلب (فلم ١٧-١٩).

٩ - بولس وأزمات كورنتس

كان يمكن لبولس أن يظن بأنه ارتاح من المشاكل، لكن المفاجآت أتته من كورنتس لؤلؤة الكنائس التي أسسها أثناء رحلته الرسولية الثانية. كانت مهمته فيها سهلة وناجحة جدًا (أع ١٨: ١-١٧). تألّف الجماعة المسيحية فيها من أغنياء على مثال سوستينس ("رئيس المجمع" بحسب كتاب الأعمال)، وإراستس خازن روما (رو ١٦: ٢٣)؛ ومن عبيد على مثال ترسيس (رو ١٦: ٢١) وفورتناتس وإخائيُس، بالإجمال لم يكن فيهم "في نَظَرِ البَشَرِ كَثيرٌ مِنَ الحُكَماء، ولا كَثيرٌ مِنَ المُقتَدِرين، ولا كَثيرٌ مِن ذَوي الحَسَبِ والنَّسَب" (١ كو ١: ٢٦).

٩/١- الأزمة الأولى (١ كورنتس)

عندما ترك بولس كورنتس سنة ٥١، للمشاركة في مجمع اورشليم، والاستقرار في أفسس، ترك وراءه جماعة فتية لكنها مزدهرة، بقي على علاقة دائمة معها. يبدو، بحسب رسائله، أنه أوكل أبلّس لينوب عنه فيها، وكان هذا الأخير متكلّمًا موهوبًا، من الاسكندرية، ينتمي الى التيار المعمداني الأفسسي، فنجح بامتياز. كان أبلّس متعلّمًا أكثر من بولس، وكان فنّ الخطابة عنده مميّزًا فجذب محبّي الفلسفة والأدب، وكان أن خلق حوله، دون إرادته، تيّارًا هدّد بانشقاق الجماعة الى "من هم لأبلّس"، وقد قابلهم، كردّة فعل، "من هم لبولس" و"من هم لبطرس" و"من هم للمسيح"... (١ كو ٢: ١٤-٣: ١). إلى جانب هذا الجرح المؤلم، أُضيف انقسام اجتماعي فرّق المؤمنين، أثناء صلواتهم والطقوس، بحسب طبقاتهم (١ كو ١: ٢٠-٢٢). ولكي يكتمل مشهد المشاكل، فسّر الكورنثيون البشرى الانجيلية بحسب قوانينهم الخاصة، ففهموا الحرية التي كرز بها بولس كتفلّت وحثّ على الفردانية؛ وفهموا الدعوة الى عالم جديد، كدعوة الى تمجيد الظواهر الصوفية والمواهبية...

في رسالته، يوبّخهم بولس بشكل خاص على ثلاثة أمور يجب أن يخجلوا منها: الزنى(٥: ٣-٥٩) والتقاضي لدى المحاكم الوثنية (٦: ١-١١)، والمناداة بأن "كل شيء يحلّ لنا" (٦: ١٢)، قبل أن يجيب على بعض أسئلتهم حول الزواج (٧: ٩)، والحرية (١٠: ٢٣)، والانقسامات الاجتماعية (١١: ١٨)، واضعًا المحبة جوابًا يكلّل كل شيء (١٣: ١-٨).

٩/٢- أزمات أخرى (٢ كورنتس)

لم تساهم الرسالة القاسية في تهدئة الخواطر، بل أدّت، على العكس، الى إصغاء الناس الى متهوّد، لا نعرف اسمه، وَفَد الى الجماعة وأثارها ضد تعاليم

المؤسِّس. أرسل هذا الأخير تيموتاوس، ففشل (١ كو ٤: ١٤-٢١؛ ٧: ١٢)، ثم أرسل تيطس مع رسالة توصية فكان أكثر دبلوماسية من تيموتاوس ونجح في استعاتهم الى بولس (غل ٢: ١-٣).

في هذه الرسالة، حاول بولس إظهار المسافة الشاسعة التي تفصل الكورنثيين "الروحيين" عن "المتهوّدين"، في محاولة لكسر العهد بين التيارين (٢ كو ٣: ١٣-١٤)، وإظهار النزاع كمواجهة ضدّ شخصه بالذات، قبل أن يقوم بدفاع عن الذات مبنيّ على لاهوت الصليب. فهو كشخص ليس سوى مجرّد إناء ترابي خزفي دون كرامة، لكن تعاليمه وتوبيخاته وأعماله، هي من وحي المسيح، وكأن المسيح يحيا فيه هو الوسيط المسكين (٤: ٧-١٣)، جاعلاً منه "سفير المسيح" (٥: ٢٠). "آمنت ولذلك تكلّمت". إنها الجملة التي يمكن أن تلخّص كل فكر القديس بولس. فالايمان برأيه، هو السبب المباشر لكل كلمة، وهو الذي يدفع الى التبشير والصلاة والحمد. وفي كل الأحوال تبقى مكانة الكورنثيين كبيرة في قلبه (٦: ١٢-١٣).

بالرغم من هذه الرسالة، لم تهدأ الخواطر، فالمتهوّدون ما زالوا يجهدون... والكورنثيون يسمعون، فكانت رسالة أخرى (الثانية الى الكورنثيين، والرابعة ربما)، عبّر فيها بولس، لا بدبلوماسية ولا بكلمات مدروسة موزونة، بل بحزن وبإحباط، أمام المستعدّين للايمان بمسيح آخر، وإنجيل آخر، وروح آخر. إنهم أبناء حواء الذين انجرّوا مع آخرِ من كلّمهم (١١: ٢-٤).

أسّس بولس الكنائس، وتعب وأحبّ (فلم)، فتركوه وتبعوا آخرين. لكنه قادر على الدفاع عن نفسه (٢ كو ١٠-١٢)، يبرز سلطته بالرغم من وداعته وطيبة قلبه ومظهره المتواضع (٢ كو ١٠: ١٠-١١). وإن كان الكورنثيون ممن يمجّدون الايحاءات والخبرات الصوفية، فهو أيضًا نال منها ما يجعله قادرًا على الافتخار، لكنه ليس ممن يمجّدون ذواتهم (٢ كو ١١: ٢٢-٢: ١٠)، وقد جعل من الصليب افتخاره الأوحد. على هذه الخلفية، فهم بولس صعوباته الجسدية والنفسية، تلك "الشوكة في الجسد" (١٢: ٧).

١٠- بولس الرسالة الى الرومانيّين

بعد مكدونية، عاد بولس الى كورنتس حيث أمضى شتاء ٥٥-٥٦. لكن الوضع لم يكن مريحًا. فهل يستسلم؟ بالطبع لا! لقد اعتاد دومًا الهرب الى الأمام، فوضع استراتيجية لآفاق بشارة جديدة في روما واسبانيا.

انطلاقًا من روما، كمرحلة أولى، كان بولس قادرًا على الإشعاع حول البحر المتوسط (رو ١٥: ٢٣-٢٤). لكن عاصمة الامبراطورية، بجماعاتها المتعددة والمختلفة، لم تكن مدينة سهلة المنال.

كان بدّ له أولاً من تحضير الرحلة، فأرسل برسكيلا وأكيلا اللذين أتياه بالأخبار الموثوقة (رو ١٦: ٣)؛

وكان من الضروري ثانيًا أن يتوحّد الناس حوله وحول انجيله، في وقت كانت الجماعة الرومانية مختلفة الآراء اللاهوتية، فأرسل لهم تعليمًا مسيحيًا أساسيًّا ومبسّطًا، هو في الحقيقة ملخّص عن لاهوت بولس مع نضوج متجدّد. ففي حين كان ينتظر، في رسالته الى تسالونيكي، مجرّد عودة ممجّدة للمسيح، يؤكّد في رسائله الكبرى أن المسيح حاضر منذ الآن في عالمنا (رو ٥: ٦)، وأن الخلاص يتمّ الآن في من يعيش بحسب الروح القدس، بالايمان. شكّل موت المسيح وقيامته محورًا ايمانيًا أكيدًا: إنه الفصح الحق (رو ٣: ٢٤) الذي يُبرز قوة الحياة على الموت (رو ٧)، فصار الخلاص بالمسيح خلاصًا جماعيًا شاملاً للجسد الذي رأسه المسيح (١ كو ١٢: ١٢-١٣؛ رو ١٢: ٤-٨)...، وبالتالي "من يفصلنا عن محبة المسيح؟" (رو ٨: ٣٥).

وأخيرًا، كان من الضروريّ أن يكون مدعومًا، فكان له ما أراد، على ما نقرأ في الفصل ١٦ من الرسالة من تعداد للأشخاص الفاعلين، الذين شكّلوا ضمانته عند الرومانيّين.

١١ – ماذا بعد؟

من الممكن أن يكون بولس الرسول قد مثل سنة ٦٢ أو ٦٣ أمام الامبراطور نيرون أو أمام ممثّليه، لأن نيرون غالبًا ما كان يغيب عن روما، وأن يكون قد حصل على البراءة. يُظنّ بأن قام بعد ذلك برحلة رسوليّة الى اسبانيا، كما كان يرغب، وكان قد وضع لذاته خطّة وهدفًا: "أَمَّا الآنَ ولَم يَبْقَ لِي مَجالٌ عَمَلٍ في هذِهِ الأَقطار، وأَنا مُنذُ عِدَّةِ سِنِينَ مُشتاقٌ إِلى القُدومِ إِلَيكم، فإذا ما انطَلَقتُ إِلى إِسبانِيةَ فإِنِّي أَرْجو أَن أَراكُم عِندَ مُروري بِكُم وأَتلَقَّى عَونَكم على السَّفَرِ إِلَيها، بعدَ أَن أَشْفِيَ غَليلي ولَو قَليلاً بلقائِكم. أَمَّا الآن فإِنِّي ذاهِبٌ إِلى أُورَشَليمَ لِخِدمَةِ القِدِّيسين... فإِذا قَضَيتُ هذا الأَمْرَ ... مَرَرتُ بِكُم وأَنا ذاهِبٌ إِلى إِسبانِية" (رو ١٥: ٢٣-٢٨).

هذا ما يؤكّده الأسقف كليمان الروماني في رسالته إلى الكورنثيين في نهاية القرن الأول، بقوله أن بولس بشّر بالإنجيل حتى نهاية الأرض، وهو ما تؤكّده بعض الكتب المنحولة.

حتى آخر أيامه عاش بولس مجاهدًا للوصول الى الرب والاتحاد به نهائيًا فهو من أكّد: "بِإِنِّي لا أَعْدو على غَيرِ هُدًى ولا أُلاكِمُ كَمَن يَلطِمُ الرِّيح، بل أَقمَعُ جَسَدي وأُعامِلُه بِشِدَّة، مَخافَةَ أَن أَكونَ مَرفوضًا بَعدَ ما بَشَّرتُ الآخَرين... يَهُمُّني أَمرٌ واحِد وهو أَن أَنْسى ما ورائي وأَتَمطَّى إِلى الأَمام فأَسْعى إِلى الغاية، لِلحُصولِ على الجائِزَةِ الَّتي يَدْعونا اللهُ إِلَيها مِن عَلُ لِنَنالَها في المسيحِ يسوع... وقَد أُعِدَّ لي إِكْليلُ البِرِّ الَّذي يَجْزيني بِه الرَّبُّ الدَّيَّانُ العادِلُ في ذلِكَ اليَوم، لا وَحْدي، بل جَميعَ الَّذينَ اشْتاقوا ظُهورَه" (١ كو ٩: ٢٦-٢٧؛ فل ٣: ١٣-١٤؛ ٢ تم ٤: ٨).

بعد هذه الرحلة ربما يكون بولس قد عاد إلى روما في نهاية تموز سنة ٦٤، حيث شهد حريق هذه المدينة. هذا هو بولس الخارق. بعد أن أسس الكنائس في آسيا واليونان، يرى أنه عاطل عن العمل ويريد الذهاب الى إسبانيا. هذا ما قام به، بحسب التقليد الشفهي والمكتوب. وما لا يخبرنا اياه الكتاب المقدس في سفر أعمال الرسل أو الرسائل اليولسية، يخبرنا به التقليد، ولا زالت إسبانيا حتى اليوم، تعتبر القديس بولس رسولها، الى جانب الرسول يعقوب. بعدما تسبّب حريق روما بحملة اضطهاد ضد المسيحيّين الذين اتُّهموا بالمؤامرة ضد المدينة، ذهب بولس، برفقة تيموتاوس، إلى أفسس في بداية سنة ٦٥ وتركه هناك وذهب إلى مكدونية : "طَلَبتُ مِنكَ، وأَنا ذاهِبٌ إِلى مكِدونِيَّةَ، أَنْ تَبقى في أَفسُسَ لِتوصِيَ بَعضَ النَّاس أَنْ لا يُعَلِّموا تَعاليمَ تُخالِفُ تَعاليمَنا" (١ تم ١: ٣). من مقدونية توجّه بولس إلى كريت في رسالة تبشيريّة مع تيطس، ثمّ مضى للشتاء ٦٥-٦٦ في نيكوبوليس، "بِتَركُتُكَ في كريتَ حتّى تُكمِلَ تَدبيرَ الأُمور" ... (تي ١: ٥ و٣: ١٢).

١٢ – استشهاد بولس

كان بولس يعلم بأنه سيموت شهيدًا (٢ تم ٤: ٦). بعد إتمام رحلاته الرسوليّة اقتيد بولس، بحسب نص لوقا، ليمثل أمام الامبراطور كاليغولا. لكن أُطلق سراحه بعد سنتين، فعاد ليقوم برحلات تبشيريّة جديدة في الشرق واليونان واسبانيا" ربما كان توقيفه الثاني عند كاربس في ترواس، فذهابه دون ردائه ودون كتبه يبدو ذهابًا سريعًا دون تحضير: "أَحْضِرْ عِندَ مَجيئِكَ عَباءَتي الَّتي تَرَكتُها في تَرواس عِندَ كارْبُسَ، وأَحضِرِ الكُتُبَ أَيضًا، وخُصوصًا مَصاحِفَ الجِلْد" (٢ تم ٤: ١٣). سُجن في روما مرّة جديدة، تحت حكم الامبراطور طيباريوس، ومَثَل مرة أولى أمام المحكمة التي طلبت استكمال التحقيق. كانت هذه المحاكمة صعبة على الرسول: "ما وقَفَ أَحدٌ مَعي عِندَما دافَعْتُ عَنْ نَفسي لأَوَّلِ مَرَّة، بَلْ تَرَكوني كُلُّهُم. صفَحَ اللهُ عَنهُم! لكِنَّ الرَّبَّ وقَفَ مَعي وقوّاني فتَمكَّنْتُ مِنْ إِعلانِ الدَّعوَةِ لِتَسمَعَ جميعُ الأُمَمِ، فنَجَوتُ مِنْ فَمِ الأَسَدِ" (٢ تم ٤: ١٦-١٧). لم يكن إلى جانبه سوى لوقا. لكنه كان على تواصل مع كنيسة روما المحليّة، فكتب إلى تيموتاوس: "تَعالَ إِلَيَّ سريعًا، لأَنَّ دِيماسَ تَرَكني حُبًّا بِهذِهِ الدُّنيا وسافَرَ إِلى تَسالونيكي، وسافَرَ

كِريسِكيسُ إلى غلاطيَّةَ وتيطُسُ إلى دِلْماطيَّةَ، وبَقِيَ لوقا وحدَهُ مَعي. خُذْ مَرقُسَ وَجِئْ به لأنَّهُ يُفيدُني كثيرًا في خِدمَةِ الرَّبِّ. أمَّا تيخيكُسُ فأرسَلتُهُ إلى أفسُسَ" (٢ تم ٤: ٩-١٢).

في سجنه، كما في رحلاته الرسولية؛ في أتعابه كما في أفراحه؛ في نجاحه كما في اختباره الفشل... عاش بولس الاتحاد بالله في الصلاة. صلاته العميقة الواثقة وحدها جعلت منه القوي الذي لا يُغلَب ولا يتراجع (أف ٣: ١٤-٢٠). مَثَل مرة ثانية أمام المحكمة سنة ٦٧، وحُكم عليه بالعقوبة القصوى.

يخبرنا كتاب "أعمال بولس المنحول" بأن بولس استُشهد بعد إدانته بالسحر والشعوذة، وحُكِم عليه بقطع الرأس، كما يليق بمواطن روماني. ربما كان ذلك سنة ٦٧. في استشهاده، وصل بولس الى ما طمح اليه وما آمن به طيلة حياته، هو الذي أعلن عاليًا: "لِذلكَ فنَحنُ لا تَفتُرُ هِمَّتُنا: فإذا كانَ الإنسانُ الظَّاهِرُ فينا يَخرَب، فالإنسانُ الباطِنُ يَتَجدَّدُ يَومًا بَعدَ يَوم... فإنَّنا لا نَهدِفُ إلى ما يُرى، بل إلى ما لا يُرى. فالَّذي يُرى إنَّما هو إلى حِين، وأمَّا ما لا يُرى فهو لِلأبَد ... ونَحنُ نَعلَمُ أنَّه إذا هُدِمَ بَيتُنا الأَرْضِيّ، وما هو إلاَّ خَيمَة، فلَنا في السَّمَواتِ مَسكِنٌ مِن صُنعِ الله، بَيتٌ أَبَدِيٌّ لم تَصنَعْه الأَيْدي... ولِذلكَ نَئِنُّ مُثْقَلينَ ما دُمْنا في هذِه الخَيمَة، لأَنَّنا لا نُريدُ أَن نَخلَعَ ما نَلبَس، بل نُريدُ أَن نَلبَسَ ذاك فَوقَ هذا، حَتَّى تَبتَلِعَ الحَياةُ ما هو زائِل. والَّذي أَعَدَّنا لِهذا المَصير هو اللهُ الَّذي أَعطانا عُربونَ الرُّوح" (٢ كور ٤: ١٦، ١٨؛ ٥: ١، ٤-٥).

١٣- صورتان للقديس بولس!

إنه بولس الرجل الشغوف الجذّاب الذي استطاع هداية الآسيويين ثم المقدونيين والغلاطيين والكورنثيين الى المسيح. وهو بولس رئيس الكنيسة السجين، الذي يعلم بأنه خسر المعركة ضدّ المتهوّدين، بالرغم من قناعته بما قام به تجاه الوثنيين، فجعل من همّ مصالحة المسيحيين مع الله ومع بعضهم البعض همّه الأول.

صورتان للقديس بولس! تعكسان مفهومين لانتصار الانجيل: مفهوم أول يعكسه كتاب أعمال الرسل، يرى في الانجيل قدرة الله التي تتجلّى بالعجائب واللآيات والاهتداءات...، ومفهوم آخر عكسه بولس في رسائله يعتبر أن الانجيل هو الكرامة التي تظهر في الضعف، والرجاء الثابت في قلب الموت.

الرابطة
مجلة تصدر عن إكليريكية سيدة النجاة البطريركية ـ الشرفة
العدد ١٤ ـ حزيران ٢٠٠٩

القديس
بولس
في
الطقس
السُرياني
إعداد
إخوة يسوع الفادي
قره قوش 2009

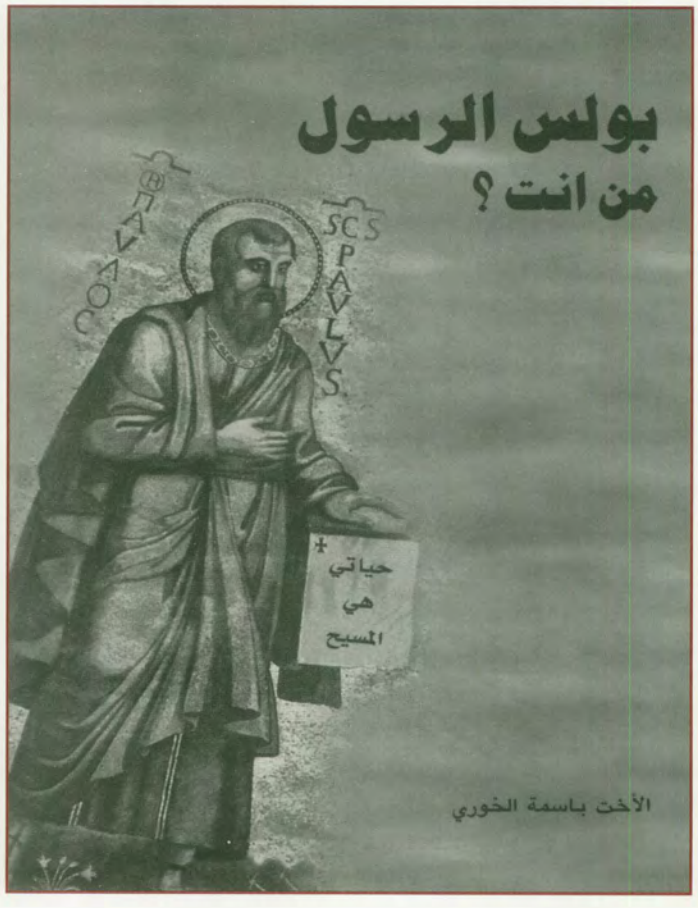
بولس الرسول
من انت ؟
SCS PAVLVS
حياتي
هي
المسيح
الأخت باسمة الخوري

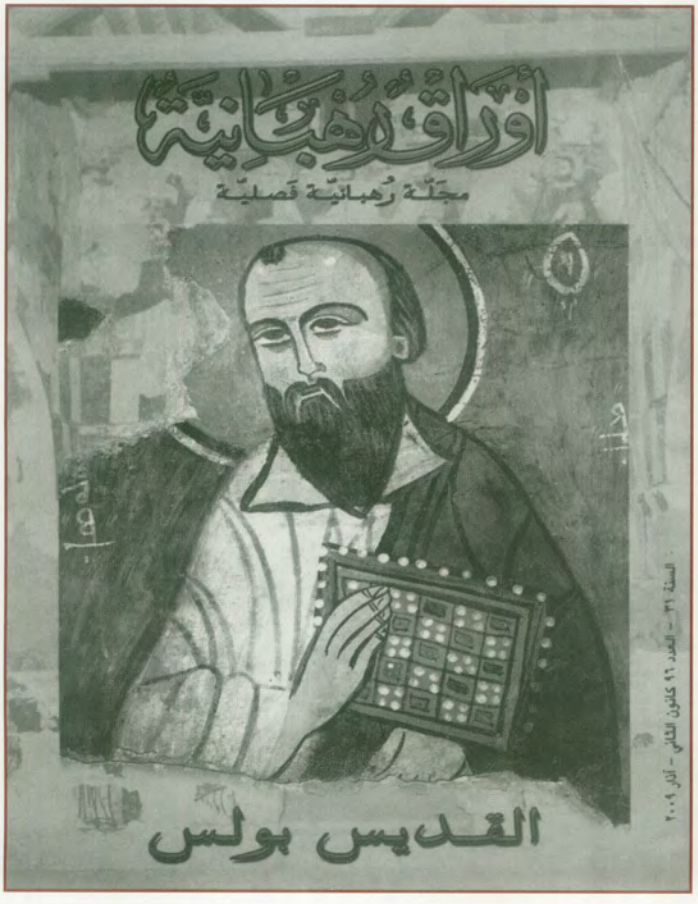
أوراق رهبانية
مجلّة رهبانيّة فصليّة
القديس بولس

بولس الشغوف بشعبه والمتجذّر في تنشئته

الأخت روز أبي عاد
أستاذة مادّة الكتاب المقدّس
جامعة الروح القدس – الكسليك

مقدمـــة

كـان بـولس منـذ بـدايـة رسـالـتـه موضوع رفض ثنائيّ: فمن جهة، إنّه رسـول الأمم الـذي وُلـد يـهـوديًّا وظلّ محافظًا على هويّته طيلة حياته، لا بل لم ينفكّ يذكّر اليهود بهويّتهم وبانتمائهم الى شعب العهد، ومن جهة ثانية فبولس اليهوديّ الذي كان يُعلن للأمم الوثنيّة أنّه بيسوع المتحدّر من أصل يهوديّ وبه وحده يمكنهم أن يجدوا الخلاص. وفي إطـار هـذه الثـنـائـيّة، كـان بـولس يـهـوديًّا متحمّسًا، شغوفًا بحبّه لشعبه لدرجة أنّه تمنّى لو كان هو نفسه محرومًا ومنفصلاً عن المسيح في سبيل إخوته بني قومه باللحم والدم، أمّا معاونوه وتـلامـيـذه، مستـمـعـوه وقـرّاؤه فـكـان يجدهم من غير اليهود.

مَن يقرأ سفر أعمال الرسل ورسائل بولس لا يمكنه إلا أن يستشف بوضوح تـامّ مـدى تـعلّق بولس بشعبه، ومدى انـطـبـاعـه بـتـنـشـئـتـه الـراسـخـة، ولـكـنّ السؤال البديهيّ الذي نطرحه: كيف أفـاد بـولس مـن غـنـى شـخـصـيّـتـه الـتـي كـانـت تـضـمّ عـوالـم ثـلاثـة، الـيـهـوديّة واليونانيّة والرومانيّة مستثمرًا إيّاها في إطار تبشيره بيسوع المسيح الذي، مذ التقاه على طريق دمشق حتّى سبى منه حياته بأسرها بما فيها قلبه وتفكيره؟

١ – بولس الشغوف بشعبه

كـان إيمان بـولس بإيمان إسـرائـيـل، الشعب الـذي ينتمي إليه بولس بكلّ فخر واعتزاز؛ والله الذي ظهر للآباء والـذي أعـطـى شـعـبـه الـتـوراة بـواسـطـة موسى، والذي دلّه على الطريق القويم بفم الأنبياء، لا يمكنه الآن أن يرفضه، بل أن يفتديه (رو ١١: ١).

في رسـالـتـه إلى أهـل فـيـلـبّـي يعلن بـولس عـن هـويّـتـه الـيـهـوديّة باعتزاز، ويذكر أنّه مختون في اليوم الثامن، وأنّه مـن بـنـي إسـرائـيـل مـن سـبـط بنيامين، عبرانيّ من العبرانيّين، أمّا في الشريعة فهو فريّسيّ (رج فل ٣: ٥)[1]. إذًا، هو لا يُخفي أنّه، في الحميّة، كان مضطّهِدًا الـكـنـيسـة، وأنّه، في البرّ الـذي يُـنـال بالشريعة، لم يكن عليه أيّ لوم (رج فل ٣: ٦)، لا بـل أنّـه حـافـظ بـدقّـة عـلـى التعليمات الرابّينيّة[2]. لكن، وفي مكان آخر، يبدو واضحًا لنا أنّ مشاعر بولس تتعارض في ما يتعلّق بموضوع شعبه؛ فـمـن نـاحـيـة لا مجال للشكّ بـالـحـكـم الصارم الـذي يـوجّـهـه إلى اليهود "هـمُ الَّـذيـنَ قَـتَـلـوا الـرَّبَّ يسـوعَ والأَنبِـياءَ واضـطَّـهَـدونا، وهـمُ الَّـذينَ لا يُرْضونَ اللهَ ويُعادونَ جَميعَ النَّاس فيَمنَعونَنا أَن نُكَلِّمَ الوَثنِيّينَ لِيَنالوا الخَلاص، فيَبلُغونَ بِخَطاياهم إلى أَقْصى حَدٍّ دائِمًا أَبَدًا، ولكِنَّ الغَضَبَ نَزَلَ عليهِم آخِرَ الأَمْر" (١ تس ٢: ١٥-١٦)، وممّا يؤجّج نار هذا

(١) في بعض الأحيان الحاسمة من حياته، شدّد بولس على مواطنيّته الرومانيّة، كما جرى له خلال سجنه في فيلبّي (رج أع ١٦: ٢١، ٣٧)، وتباهى بها أمام القائد الرومانيّ الذي دفع غاليًا ليحصل عليها (أع ٢٢: ٢٥-٢٨)، وأفاد منها في دفاعه عن نفسه أمام الحاكم فيلكس في قيصريّة (رج أع ٢٣: ٢٧) وأيضًا أمام الحاكم أغريبّا (رج أع ٢٦: ٣٢).

(٢) من الواضح، أنّه يجدر ببولس أن يُظهر هذه الأمور لأنّ أهل فيلبّي لا يعرفون هذا الجانب من شخصيّته.

التعارض تجاه اليهود هو أنّ بولس كان يلقى التفهّم من غير اليهود، أمّا من قِبل بني ملّته فلم يحظَ إلاّ بالمتاعب الكبيرة والمعاملات السيّئة. من الطبيعيّ إذًا أن يلجأ بولس إلى استعمال عنف الألفاظ؛ فغضبه على اليهود ناتج عن المضايَقات والاضطّهادات التي ألحقها به هؤلاء، لنسمعه يسردها في ٢ كور ١١: ٢٤-٢٦: "جَلَدَني اليَهودُ خَمسَ مَرَّاتٍ أَربَعينَ جَلْدَةً إلاّ واحِدة ، ضُرِبتُ بِالعِصِيِّ ثَلاثَ مَرَّات، رُجِمتُ مَرَّةً واحِدَة (...) أَخطارٌ مِنَ الأَنهار (...) أَخطارٌ مِن بَني قَومي (...)". والواقع، فاليهود هم الذين أوجدوا المصاعب في وجه بولس ووشَوا به أمام السلطات إذ وجدوا فيه خطرًا مداهمًا. إزاء إستياء بولس المتفاقم من تصرّف بني قومه، ها هو يطالعنا في رو ٩-١١ بإعلان حبّه العظيم لشعبه والذي يُستخلَص في ١١: ١: "فأَقولُ إِذًا: أَتُرى نَبَذَ اللهُ شَعبَه؟ حاشَ لَه!". تعكس صرخة بولس التعجبيّة، "حاشَ لَه!"، الذعرَ الذي ينتاب الإنسان عندما يتلفّظ بشيء لا ينويه على الإطلاق، ولذا يبادر فورًا الى استبعاد ما لم يتفادَ قوله. يشدّد بولس هنا على حقّ اليهود الأكيد في أن يعتبروا أنفسهم أبناء الله؛ فإسرائيل هو "أصل الزيتونة"، والوثنيّون ليسوا سوى بعض فروع لزيتونة برّيّة وقد قضّبت وطعّمت مكانها (رج رو ١١: ١٧-٢٠).

ممّا سبق، يمكننا أن نكوّن فكرة عن المحنة المؤلمة التي تمزّق بولس بين حبّه لشعبه ومعاناته الحادّة منه.

في رو ٩-١١، يلجأ بولس الى الحجج الأكثر إقناعًا حول موضوع "سرّ اسرائيل"، فيُدرك إدراكًا لا يحتمل أيّ التباس حتميّة اختيار الله لهذا الشعب، وبالتالي، لا رجوع عن مقولة أنّ الشعب اليهودي يبقى شعب الوعد. على أنّ بولس، رغم تبنّيه لسرّ الله، نراه مغمورًا في ألم عميق. وفي رو ٩: ٣، يذهب بعيدًا في حبّه لشعبه ولا ينثني يعلن عن بغيته في أن يكون هو نفسه محرومًا ومنفصلاً عن المسيح في سبيل إخوته بني قومه باللحم والدم. لا شكّ أنّ استعداده لأن يتنازل عن خلاص المسيح له يكلّف بولس أثمن ما عنده، فهو بعدوله عن خلاص المسيح يجسّد بالواقع ما تقتضيه المحبّة التي "تعذر كلّ شيء، وتصدّق كلّ شيء، وترجو كلّ شيء، وتتحمّل كلّ شيء" (١ كور ١٣: ٦). فهو يتماثل والشعب اليهوديّ دون أيّ تحفّظ، فيما لو أنّ حالته هذه يمكنها أن تساعد إخوته اليهود ليجدوا الطريق المؤدّي الى المسيح. فمنذ مدخل الفصل التاسع، يحذّر بولس المسيحيين الرومانيين المتحدّرين من أصل وثنيّ الذين كانوا يريدون اعتبار الشعب اليهوديّ وكأنّه منبوذ من الله ويتمسّك باختيار الله لإسرائيل. وبموقفه هذا، يبقى ملتزمًا بمنهج اللاهوتيّ اليهوديّ على أكمل وجه. بالنسبة إليه، فإنّ موضوع تبنّي الله يعود فقط إلى إسرائيل، ومعه أقام عهده، وإيّاه أعطى الشريعة والعبادة والوعود النهيويّة. نشير إلى أنّ بولس يذكر الشريعة وكأنّها إحدى هبات الله لإسرائيل، لكنّه يميّز بين الانتماء البشريّ المحض لإسرائيل والانتماء الروحيّ إليه. ممّا لا شكّ فيه، أنّه، وبالرغم من أنّ بولس سيُدعى رسول الأمم، فهو لم يكفّ يومًا عن مبادرة التبشير في المجامع اليهوديّة وإعلان الإنجيل أوّلاً إلى اليهود، ومن ثمّ كان ينتقل إلى الوثنيّين.

ممّا تقدّم، لا يمكننا إلاّ أن نستجلي حبّ بولس لشعبه الذي ما يزال يسري في عروقه، وبنوع خاصّ الى مدينة أورشليم التي رغم غيابه عنها، ظلّ مرتبطًا بجماعتها. فها هو ينقل الهبات المرسَلة إليها من قِبَل مؤمنيّ الشتات (رج رو ١٥: ٢٦)[٣].

٢ - بولس المتجذّر في تنشئته

علينا أن نقبل أنّ يهوديّة بولس كانت يهوديّة هلّينيّة، يهوديّة الشتات، غير أنّه علينا ألاّ ننسى أنّ تأكيداته الإيمانيّة، حسبما نجدها في رسائله ، تصدر عن يهوديّ ذي تنشئة فريّسيّة، وقد اقتبس تفكيره من ينابيع التعليم

(٣) لا شكّ أنّ هذا الولاء للكنيسة الأمّ كان يدعم انتسابه أمام سائر الرسل.

العبريّ. فهل نبالغ إذا ربطنا حدث تفويض بولس وتوكيله من قبل الكهنة والسنهدرين بغية مطاردة أتباع يسوع وتوقيفهم، بولائه المخلص للسلطات[٤]؟ سيظلّ بولس يمدح الإخلاص للسلطات: "لِيَخضَعْ كُلُّ امرِئٍ لِلسُّلُطاتِ الَّتي بأَيدِيها الأَمْر، فلا سُلْطَةَ إِلاَّ مِن عِندِ اللّه، والسُّلُطاتُ القائمة هو الَّذي أَقامَها . فمَن عارَضَ السُّلْطَة قاوَمَ النِّظامَ الَّذي أَرادَهُ الله، والمُقاوِمونَ يَجلُبونَ الحُكْمَ على أَنفُسِهم" (رو ١٣: ١-٢)؛ أليس من المدهش أن نسمع رأيًا كهذا ممّن هو أكبر ثائر في عصره؟

في غل ١: ١٢-١٦، يضع بولس نفسه بموازاة إرميا، إذ إنّ النبي بدوره قد أُفرد من حشا أمّه ودُعي لأن يكون نبيّ الأمم (إر ١: ٥)؛ زد على ذلك ما كتبه في الرسالة الى أهل فيلبّي في جوّ من الانتظار الإسكاتولوجي الذي يدعوه "يوم المسيح". إنّه يوم الدينونة الذي يَرِدُ ذكره في كتاب النبي يوئيل.

وفي كتاب أعمال الرسل حيث تروى قصة لقاء بولس بالمسيح في ثلاثة أماكن[٥]، نتوقّف على ما جاء في ٢٦: ١٤، يذكر هنا بولس صراحة أنّ المسيح القائم يتوجّه إليه "بالعبرية". هذا التفصيل عليه أن يُلفت انتباهنا؛ فنداء يسوع الذي يبدأ بسؤاله الملحّ "شاول شاول، لماذا تضطّهدني؟" يوجّهه على أبواب مدينة دمشق إلى بولس اليهوديّ المولود في طرسوس أي في الشتات الهلّينيّ، ولكنّه محرَّر باللغة العبريّة المحكيّة في أورشليم. فمنذ لقائه بالمسيح سيفهم بولس أنّ عليه أن يوصل البشرى السّارة أوّلاً إلى شعبه قبل أن ينطلق الى الوثنيين.

في حين أنّ يسوع، خلال فترة تجسّده على أرض فلسطين كان النموذج الرمزيّ لليهوديّة الفلسطينيّة، إذ كان يتكلّم الآراميّة، وكان يغرف ثقافته الدينيّة من الكتاب المقدّس العبريّ، و لم يتحفّظ خلال سنيّ تبشيره من أن يوصي تلاميذه ألاّ يسلكوا طريق الأمم، وأن يتجنّبوا مدن السامريّين (رج مت ١٠: ٥-٦)، لا بل ذهب إلى أبعد من ذلك حين أكّد "أنّ الخلاص يأتي من اليهود" (يو ٤: ٢٢)، كما اعتبر، في مكان آخر أنّه جاء إلى "الخراف الضّالة من بيت إسرائيل"، وأخيرًا، إنّ علّة صلب "يسوع الناصري ملك اليهود" هي التي جعلت صلبه حتميًّا، بالمقابل،كانت صورة بولس مغايرة تمامًا، إذ أكّد بنفسه أنّه صار لليهود كاليهوديّ... وصار للذين ليس لهم شريعة كالذي ليس له شريعة، فجعل من نفسه عبدًا لجميع الناس كي يربح أكثرهم (رج ١كور ٩: ١٩-٢٣). إنّه الموقف المميَّز ليهودي يعيش في الشتات، والمطلوب منه أن يكون صلة الوصل بين ثلاثة عوالم: العالم اليهوديّ، والعالم الهلّينيّ، والعالم الرومانيّ.

من بين النقاط الرئيسيّة التي يتمحور حولها لاهوت بولس نجد موضوع مجابهته للشريعة، بحيث يبدو ورعه الدينيّ مرتبطًا بلاهوته، لا بل لا نغالي إذا قلنا إنّ سيرته الحياتيّة قد غدت محدّدة بدوافعه اللاهوتيّة. عندما كان بولس يتكلّم عن مفهوم "التوراة" أي الشريعة العبريّة، كان يستعمل كلمة "ناموس" التي كان يقتبسها من الترجمة السبعينيّة اليونانيّة للكتاب المقدّس، وهذه كانت حال سائر يهود الشتات الذين كانوا يتآلفون بالحريّ مع النصّ اليونانيّ أكثر منه مع النص العبرانيّ. مع مرور الزمن، توسّعت كلمة "توراة" بالمعنى حتى إنّها أصبحت تعني أحيانًا كتب الشريعة الخمسة، وأحيانًا طال المعنى سائر أسفار العهد القديم. أضف إلى ذلك أنّه، في الأوساط الفرّيسية التي انتمى إليها بولس، إكتسبت كلمة توراة معنيَين: التوراة المكتوبة والتوراة الشفهيّة، وهذه الأخيرة كانت تحوي التقاليد الشفهيّة التي كانت تتكوّن حول النصّ المكتوب. إنّ الفرّيسيين، إذ ألحقوا الوصايا الموجودة في الكتاب المقدّس بالوصايا العمليّة، أدخلوا الشريعة في مجموعة مركّبة من الوصايا

(٤) رج أع ٩: ٢؛ ٢٢: ٥؛ ٢٦: ١٠.

(٥) رج أع ٩: ١-١٩؛ ٢٢: ٥-١٦؛ ٢٦: ١٠-١٨.

التي أوصى بها الله والأحكام والفرائض التي تعود الى الختانة وتتضمّن كلّ ما يختصّ بالمآكل وفرائض الطهارة وأحكام تقديس السبت والأعياد. وعليه، عندما يتكلّم بولس عن المعاناة التي تسبّبها الشريعة، فهو يقصد الوصايا الـ ٦١٣ التي أقامها حكماء شعبه، فأوجدوا بذلك عالَمًا تحكمه الشريعة والتقليد، وبالتالي، فإنّ حياة اليهوديّ بأسرها أصبحت تدور ضمن دائرة هذه الأحكام فتبدو هذه الأخيرة المعيار الوحيد المطلوب من اليهوديّ أن يطبّق حياته عليه. من هنا يمكننا أن نتخيّل النظام الحديديّ الذي نتج عن هذه الحالة. وكثُرت الأسئلة: هل يمكن لأيّ كان أن يُقيم الصلاة ثلاث مرّات يوميًّا مع ما تستلزمه من تأمّل وخشوع؟ هل يمكن لأيّ كان أن يضع طيلة أيّام الأسبوع العصائب على الذراع اليسرى وعلى الجبين ليظلّ يشعر أنّ كلمة الله تدير أعماله ونواياه؟ هل يمكن لأيّ كان أن يحافظ على كلّ التنظيمات الشديدة التي تختصّ بيوم السبت؟ لقد اختبر بولس نير الشريعة التي كانت تُظهِر للإنسان عدم كفاءته لممارستها إذ كانت تعجز الطبيعة الإنسانيّة عن تطبيقها لدرجة أنّ بولس لم يعد يسأل: مَن يخلّصنا من الخطيئة؟ بل مَن يخلّصنا من الشريعة؟ وها هو يجيب: "المسيح افتدانا من لعنة الشريعة" (غل ٣: ١٣). في تفكير بولس، لم يكن ممكنًا فصل الشريعة عن العهد: فالله قام بعهد مع إسرائيل وختمه بالشريعة. والوثنيون، كونهم خارج العهد، ليس لهم أيّ التزام بالشريعة. أمّا الآن، وإذ ينعم العالم بأسره بالحرّيّة، وإذ صالح العالم بتضحيته بابنه، فلم يعد جائزًا إخضاع الوثنيّين تحت نير الشريعة لجذبهم نحو حرّيّة المسيح. وبالحقيقة، فهو يعتقد أنّ الشريعة قد فات أوانها وهو شخصيًّا قد مات عنها[٦]، وعليه، فمن العبث إلزام جميع الناس بها في حين أنّهم لم يولدوا تحت ظلّها.

بالرغم ممّا تقدّم، يمكننا أن نتبيّن موقفَين لبولس إزاء الشريعة: فمن ناحية، ها هو يورد أنّ الإيمان عُدَّ لإبراهيم برًّا قبل الختان، كما أنّ الوعد الذي وُعد به إبراهيم لا يعود إلى الشريعة، بل إلى برّ الإيمان (رو ٤: ١٠ ي)، ولكن من ناحية أخرى ها هو بولس بذاته يختن طيموتاوس، إبن أمٍّ يهوديّة وأب يونانيّ، ذلك أنّه حسب المفهوم الفرّيسيّ على طيموتاوس أن يحترم الشرائع التقويّة اليهوديّة. فالسؤال الذي نطرحه على بولس: "إذا كانت الشريعة مؤدِّبًا لنا إلى مجيء المسيح لننال البرّ بالإيمان، ولمّا جاء الإيمان لم نبقَ في حراسة المؤدِّب..." (غل ٣: ٢٤-٢٥)، فكيف به يعود إلى المحافظة على ما تقتضيه الشريعة من رُتَبٍ طقسيّة وكأنّه اليهوديّ الورع إن بختانته لطيموتاوس وإن باطّهاره قبل دخول الهيكل وفقًا لما تقتضيه أحكام الشريعة (أع ٢١: ٢٦)؟

من ناحية أخرى، عندما يتخطّى بولس الديانة اليهوديّة واضعًا الإيمان مكان الشريعة (رج رو ١: ١٦-١٧)، معتبرًا أنّ الإيمان وحده يُعتبَر وكلّ ما سواه يندثر، "فالإنسان يُبرَّر بالإيمان بمعزل عن أعمال الشريعة" (رو ٣: ٢٨)، فهو يستشهد بنصٍّ من العهد القديم ليس إلاّ. إذًا، نجد سياق التفكير ذاته لدى بولس ولدى العهد القديم؛ فعبارة "البارّ بإيمانه يحيا" المقتبسة من النبيّ حبقوق (٢: ٤) تمثّل خلاصة الرسالة إلى الرومانيّين.

في الفصل السادس من الرسالة الأولى إلى أهل كورنتس، يجيب بولس، حسب الطريقة اليهوديّة، على الأسئلة التي وُجّهت إليه في موضوع الخصومات التي تنشأ بين المسيحيّين. إنّه يلومهم بحميّة كيف أنّهم يتقاضَون لدى الوثنيّين في حين أنّه يوجد بينهم مَن بوسعه ان يقضي بين إخوته. يوافق موقف بولس في هذا المضمار التصرّف المتّبع من قبل يهود الشتات طيلة قرون، بحيث كان اللجوء الى محكمة غير يهوديّة أمرًا منبوذًا قطعًا، لا بل كان من الممكن أن يؤدّي إلى حرم المدّعي، إذ كان على الفَريقَين المتنازعَين أن يتقاضيَا أمام المحكمة الرابّينيّة. بالطريقة عينها، كان بولس يتمنّى أن تُحلّ الأمور بين مسيحيّي كورنتس.

(٦) رج رو ٧: ٦؛ غل ٢: ١٩.

في هذا الإطار عينه، يمكننا أن نكوّن صورة واضحة عن بولس الذي ما زال يتوجّه يوم السبت إلى المجمع كما كان قد دأب عليه منذ صغره[٧].

وأخيرًا، بانتمائه الى التيّار الفرّيسيّ كان بولس يتبنّى العقيدة الفرّيسيّة المتعلّقة بقيامة الأموات[٨]، وهذا ما شكّل التمهيد الطبيعيّ لقناعته أنّ المسيح الذي ظهر له على طريق دمشق هو بكر القائمين من بين الأموات. لم يجد بولس أيّة مشكلة بالنسبة إلى موضوع قيامة الأموات، لا بل يمكننا القول بكلّ بساطة إنّ هذا الموضوع يسري في عروقه منذ زمن طويل، فهو يشكّل إحدى النقاط الرئيسيّة التي تُميّز التيّار الفرّيسيّ عن التيّار الصدّوقيّ. فلقد أثار بولس ذاته موضوع القيامة أكثر من مرّة، وذلك في إطار مواجهته للذين يقولون إنّه لا قيامة للأموات[٩]. جديد بولس هو إفادته أنّ قيامة يسوع المسيح قد حصلت، وقد صار بذلك بكر القائمين (رج ١ كور ١٥: ٢٣)[١٠].

أمثلة عديدة تُثبت لنا أنّ تنشئة بولس، اليهوديّة بشكل عامّ والفرّيسيّة بشكل خاصّ، ظلّت تلازمه طيلة حياته، دون أن يجد أيّ عائق في العودة إليها لدعم رأيه.

خاتمة

غالبًا ما نظر اليهود إلى بولس وكأنّه اليهوديّ الجاحد إيمانه والذي اختار أن يسلك طريقه نحو الوثنيّين، ولكن ألا يمكننا أن نتصوّر أنّ حبّه الشديد لشعبه هو الذي أملى عليه أن يسلك طريق الأمم[١١]، بالنسبة إليه، فقط "قسم من إسرائيل" قسّى قلبه إزاء الخلاص الممنوح من المسيح، فقساوة القلب التي أصابت قسمًا من إسرائيل محدودة بالزمن إذ ستبقى قائمة "إلى أن يدخل الوثنيّون بكاملهم" إلى المؤمنين بالمسيح، عندها سيخلص إسرائيل بأسره وإذّاك ستأتي قيامته التي يسمّيها بولس "حياة تنبعث من الأموات" (رو ١١: ٥). من هنا نفهم هذا الهلع الشديد الذي يدفعه لأن يوصل البشرى الإنجيليّة إلى الوثنيّين، إذ كلّما ردّ الوثنيّين إلى المسيحيّة، كلّما قرّب ساعة افتداء إسرائيل.

أخيرًا لا بدّ من التنويه أنّه، إذا كنّا قد أظهرنا بولس في بُعده اليهوديّ في ما يخصّ شغفه بشعبه وتجذّره بتنشئته، تبقى موضوعات جمّة قد تطرّق إليها رسول الأمم ولا تجد أيّ قاسم مشترك مع التعليم اليهوديّ أو الفرّيسيّ، مثالاً على ذلك المسيح الذي أخلى ذاته كما جاء في فل ٢: ٥–١١، ثمّ بخصوص موضوع الصليب، أشنع أداة حكم الإعدام في أيّامه، وهو يجسّد ميتة اللعنة والخزي، فمجرّد فرضيّة الصليب تلحق العثار باليهود وخيبة الأمل، ها هو بولس، بعد لقائه بالربّ يسوع، وبعد إدراكه مدى أهمّيّة الصليب المؤدّي إلى القيامة والخلاص، لا ينفكّ يجاهر أنّه مذّاك "لم يشأ أن يعرف شيئًا غير يسوع المسيح، بل يسوع المسيح، المصلوب" (١ كو ٢: ٢). فإذا كان الله قد ظهر في يسوع المسيح، كما يؤكّد ذلك بولس، ينتج عن ذلك أنّ الله ذاته قد تواضع في شخص المسيح، وهذا الموضوع يبدو أيضًا مغايرًا للتفكير اليهوديّ الذي لا يمكنه أن يقتبل فكرة إخلاء الله لذاته ليظهر في إنسان.

(٧) رج أع ١٣: ٥، ١٤؛ ١٤: ١؛ ١٦: ١٣؛ ١٧: ١–٢، ١٠، ١٧؛ ١٨: ٤، ١٩؛ ١٩: ٨.

(٨) على عكس الفرّيسيّين، كان الصدّوقيّون يُنكرون قيامة الأموات، ذلك أنّ هذه العقيدة الحديثة نسبيًّا في اليهوديّة، لا تجد أيّ دعم مباشر في كتب التوراة، وبالتحديد في كتب الشريعة الخمسة.

(٩) رج أع ٢٣: ٦–٩؛ ٢٤: ٢١؛ ٢٦: ٨؛ رو ٤: ١٧؛ ١١: ١٥؛ ١ كو ١٥: ١٢، ٣٢، ٤٢، ٥٢، ٥٣؛ ٢ كو ١: ٩؛ ١: ١٠؛ ٥: ١٤؛ فل ٣: ١١؛ ١تس ٤: ١٦؛ ٢ تم ٢: ١١.

(١٠) لا بدّ من الإشارة إلى أنّ موضوع قيامة يسوع من بين الأموات سيكون محور تبشير بولس ونقطة الارتكاز في عظاته، إذ "لولا قيامة المسيح لأصبح التبشير باطلاً" (١ كو ١٥: ١٤). إنّ وفرة ورود موضوع قيامة المسيح في أعمال الرسل وفي رسائل بولس لأسطع دليل عن أنّه الموضوع الرئيسيّ في تبشير بولس (رج أع ١٧: ٣، ٣١، ٣٢؛ ٢٥: ١٩؛ ٢٦: ٢٣؛ رو ١: ٤؛ ٤: ٢٤؛ ٥: ١٠؛ ٦: ٤، ٥، ٨، ٩، ١٠، ١١؛ ٧: ٤؛ ٨: ١١، ٣٤؛ ١٠: ٧، ٩؛ ١٤: ٩؛ ١ كو ١٥: ١٣، ١٦، ٢٠، ٢١؛ ٢ كو ٥: ١٥؛ غل ١: ١؛ أف ١: ٢٠؛ ٢: ٥؛ فل ٣: ١٠؛ كول ١: ١٨؛ ٢: ١٢، ١٣؛ ١ تس ١: ١٠؛ ٤: ١٤؛ ٥: ١٠؛ ٢ تم ١: ١٠؛ ٢: ٨).

(١١) لنسمعه يقول: "فإنّي لا أُريدُ، أيّها الإخوَة، أن تَجهَلوا هذا السِّرّ، لِئلاّ تَعُدُّوا أنفُسَكم مِنَ العُقَلاء: إنّ قَساوةَ القَلْبِ الّتي أَصابَت قِسمًا مِن إسرائيلَ ستَبْقى إلى أن يَدخُلَ الوَثَنِيُّونَ بكاملِهم، وهكذا يَنالُ الخَلاصَ إسرائيلُ بأَجمَعِه، فقَد وَرَدَ في الكِتاب: "مِن صِهْيونَ يَأتي المُنقِذُ ويَصرِفُ كُلَّ كُفرٍ عن يَعْقوب. ويَكونُ هذا عَهْدي لَهُم حينَ أُزيلُ خَطاياهم" (رو ١١: ٢٥–٢٧). يكتب بولس هذه السطور وهو في حالة انتظار إسكاتولوجيّ مستمرّة على الحاضر.

المراجـــع

BEN-CHORIN S., *Paul, un regard juif sur l'Apôtre des Gentils,* Paris 1999.
BUBER, M., *Deux types de foi, foi juive et foi chrétienne,* Paris 1991.
DAVIES W.D., *Paul and Rabbinic Judaism. Some Rabbinic Elements in Pauline Theology,* London 1955.
ELLIS, E.E., *Paul's Use of the Old Testament,* Oregon 1981.
PRAT F., *The Theology of St Paul*, I, London 1945.
ROSENZWEIG B., "The Hermeneutical Principles and their Application", *Tr* 13 (1972) 49-76.
THACKERAY H.St.J., *The Relation of St Paul to Contemporary Jewish Thought*, London 1900.

اكتشاف أقدم صورة للقديس بولس الرسول في روما

اكتشفت مؤخراً أقدم صورة للقدّيس بولس، تعود إلى القرن الرابع، في سراديب القدّيسة تقلا في روما، على مقربة من بازيليك القدّيس بولس خارج الأسوار. هذا الاكتشاف الذي توصّل إليه المرمِّمون في اللجنة الحبريّة للآثار تحدّثت عنه جريدة الأوسّيرفاتوري رومانو، صحيفة الكرسيّ الرسوليّ، التي أوضحت أنّ الطبقات الترابيّة التي كانت تغطّي زخرفة قبّة الغرفة، تمّ نزعها باللاّيْزِر ليظهر بذلك وجه القدّيس بولس.

من خلال تصويره كمفكّر صاحب نظرة يقظة وإنّما بعيدة، ووجنَتَين هزيلتَين، وجَبين مجرّد، ولحية طويلة مسنَّنة، فإنّ هذه الصورة تدلّنا على الصورة المسيحيّة التقليديّة القديمة لرسول الأمم من دون أن تترك أيّ شكّ حول مطابقتها، حسبما أشارت صحيفة الأوسّيرفاتوري رومانو.

إنّ اكتشاف وجه بولس على إحدى القلادات التي تزيّن زوايا القبّة شجّعت علماء الآثار على متابعة عمليّة تنظيف الدروع الثلاثة الأخرى، فبرز وجهان لرسولَين آخرَين، أحدهما شابّ والآخر مجعّد (ربّما يوحنّا ويعقوب)، ومن ثَمّ الوجه الثالث لرجل أشيب هو بطرس على الأرجح.

تتابع الصحيفة: "للمرّة الأولى في الفنّ المسيحيّ القديم، يحتلّ هامتَا الرسل مكانة مهمّة. هما يبرزان في المقدّمة ولا يظهران كمرافقَي الموتى، خلافاً لأعداد النواويس من القرن الرابع، ولا بين أعضاء المجمع الليتورجيّ الذي يترأّسه المسيح، بل يلامح ثلاث شخصيّات تشرف على الخلق أجمع".

وفي مقالة نشرتها الأوسّيرفاتوري رومانو مؤخّرًا، كتب فابريتزيو بيسكونتي، أمين سر اللجنة الحبريّة للآثار المقدّسة: "بما أنّ الصورة تمثّل صورة للعبادة اختارها الموتى لحماية غرفتهم الضريحيّة، فمن الممكن اعتبار لوحة بولس بمثابة أقدم أيقونة للرسول حتّى الآن، ليتمّ الانتقال من مجرّد الاستحضار إلى العبادة".

خلفيّة مار بولس الثقافيّة وتأثيرها على أسلوبه الرسائليّ

الأخت دولّي شعيا ر.ل.م.
خريّجة المعهد البيبلي الحبريّ – روما

مقدّمة

نشأ القدّيس بولس في الشتات اليهوديّ، في طرسوس كيليكيا. تكلّم الآراميّة، وكان يُتقن العبريّة، لغة الكتبِ المقدّسة[١]. معرفته للغة اليونانيّة واضحة من خلال رسائله إذ كانت مبادئُها تُكتسب في البيت وتُكمل دراستها في المدرسة[٢]. إضافةً إلى ذلك، أيُّ دراسةٍ معمّقة للمراجع الكتابيّة في رسائلة توضح بأنّه كان يستشهد في معظم الأوقات بالترجمة السبعينيّة[٣]، أي بالعهد القديم اليونانيّ.

تُظهر رسائل مار بولس أيضاً أنّه كان مُلِمّاً بالقراءة والكتابة باللغة اليونانيّة، بما فيه فنّ البلاغة وما يتضمّنه من خطابٍ وجدالٍ وإقناع. براعته الأدبيّة والفلسفيّة[٤] ساعدته جدًّا في مناقشة يهود الشتتات والمسيحيّين المتحدّرين من أصل يونانيّ بسهولة. أكمل بولس، بالتأكيد، دراسته العبريّة في وقتٍ أصبحت فيه أورشليم مدينةً عالميّة تستقطب أنظار يهود الشتات باعتبارها موقعَ حجٍّ ومركزًا للعلم.

امتاز عصر القدّيس بولس بالثقافة الشفويّة التي أعطت أهميّةً بالغة للبراعة في إلقاء الخطاب أو الحديث[٥]، وكذلك للقدرة على الإقناع التي كانت تُطلب من أيّ شخصٍ كان في ذلك الوقت. فنّ الإقناع هذا تعلّمه بولس جيّدًا، لكنّه امتاز عن أبناء عصره بأنّه كتب بأسلوبٍ خاصّ يتميّز بالاستعاراتِ والتشابيه ويُبنى في أغلبيّته على التناقض. من الممكن أن يكون مار بولس، كما قالوا عنه، "ضعيفًا في حضوره الجسديّ وكلامه حقير"، لكنّ رسائله كانت "ثقيلة وقويّة" (٢ كو ١٠: ١٠). تُعتبر رسائله بالإجمال ذات طابعٍ خطابيّ بلاغيّ ضمنَ إطارٍ رسائليّ وذات مقوّماتٍ رسائليّة أكثر من خطابيّة. بكلامٍ آخر، إذا كانت رسائل مار بولس تتمتّع بطابعٍ خطابيّ شفهيّ فذلكَ لأنّها كانت موجّهة لتُتلى بصوتٍ عالٍ على الجماعة وليس لتُقرأ فرديًّا. أمّا إطارها الرسائليّ فكان ضروريًّا لأنّ الرسالة كانت تنوب عن حضور بولس الشخصيّ في الجماعة، خاصّةً عندما لم يستطع الوصول إليها لسببٍ ما أو عندما كان يعوقه الأسر.

لكن إلى أيّ مدى كان لتنشئة مار بولس الثقافيّة تأثيرها على تأليف رسائله؟ هل تأثّر في كتابتها بتصاميم الرسائل اليهوديّة أو تلك اليونانيّة–الرومانيّة، وتبنّى الأساليب الكتابيّة نفسها، أم كانت رسائله تتميّز بطابعٍ

(١) رج أع ٢٢: ٣.

(٢) Cf. H.-I. MARROU, *Histoire de l'éducation dans l'antiquité*. Tome 2: *Le monde romain* (Histoire H57; Paris 1948) 11-27.

(٣) يستشهد مار بولس في معظم الأوقات بالترجمة السبعينيّة. ولكن أحياناً أخرى كان يستند على ذاكرته في الاستشهاد الكتابيّ.
Cf. E. E. ELLIS, *Paul's Use of the Old Testament* (Grand Rapid, MI 1957) 10-16.

(٤) Cf. G. BARBAGLIO, *Paolo di Tarso e le origini cristiane* (Assisi 1985), 53.

(٥) في عصر مار بولس الثقافيّ كانت تجرى المباريات بين الواعظين للمبارزة في فنّ الخطابة، لكنّ أسلوب بولس أبعد بكثير من الدخول في منافسةٍ كهذه.
Cf. S. K. STOWERS, "Social Status, Public Speaking, and Private Teaching: The Circumstances of Paul's Preaching Activity", *NT* 26/1 (1984) 60 -76.

آخر يُعبّرُ عن أسلوبٍ خاصّ؟

١. الخلفيّتان اليهوديّة واليونانيّة – الرومانيّة لرسائل مار بولس

تتكوّن معرفتنا بحياة مار بولس إنطلاقًا من مصدرين رئيسيَّين: رسائله وكتاب أعمال الرسل. لكنَّ هذَين المصدرَين ليسَا من النوع نفسه؛ فالأوّل يتكوّن من مجموعة رسائل، والثاني من سردٍ قصصيّ. لكن ما نعرفه عن مار بولس وخلفيّته الثقافيّة من خلال رسائله لهو ضئيلٌ جدًّا بخلاف ما يتوقّع القارئ. في الواقع، إنَّ العديد من المعلومات، المفترض ضمنًا أن يعوّل عليها بالأكثر، تتوقّف على كتاب أعمال الرسل. على سبيل المثال، ما يتعلّق بخلفيّته الثقافيّة والعلميّة يوجد في أع ٢٢: ٣ وليس في الرسائل.

بالرغم من ولادة مار بولس في طرسوس كيليكيا، المدينة المعروفة بمركزها التعليميّ، خصوصًا في مجالاتِ الفلسفة والبلاغة، وذات المنهجِ الثقافيّ الهلّيني[٦٣]، من غير المؤكّد إن كان مار بولس قد تخطّى الدرجات الابتدائيَّة الأولى والثانية في البلاغة، ووصل إلى حدٍّ بعيد من العلم والثقافة حسب درجات النظام التعليميّ آنذاك[٧]، وذلك لسببين: على الرغم من لجوء مار بولس إلى بعض العبارات التي تعكس معرفةً جيّدة للكتّاب الكلاسّيكيّين[٨]، أو استخدامه لفنّ الخطابة ومصطلحاته، تفتقر رسائله إلى دليلٍ واضح يؤكّد مستوى المعرفةِ الكلاسّيكيّة. كما ويقول بعض الباحثين في علم البلاغة إنَّ استعمال مار بولس لهذه التعابير ليدلُّ على بعض الاقتباسات من الكتب الكلاسّيكيّة التي يمكن أن تُعزى إلى معرفةٍ بلاغيّة أساسيّة، لكنَّ استخدامه لعلمِ البيان تقليديّ وليس بفنّيّ[٩]. من جهةٍ أخرى، ما يقوله هو عن نفسه في أع ٢٢: ٣ في ما يخصّ تنشئته اليهوديّة، "أنا رجلٌ يهوديّ وُلدتُ في طرسوس كيليكيا، ولكن رَبيتُ في هذه المدينة مؤدَّبًا عند رجلَيّ غمالائيل على تحقيق الناموس الأبويّ"، يمكنه أن يُشيرُ إلى تعليمٍ ابتدائيّ ولكنّه يبقى غامضًا نحويًّا، ولا يُشير إلى أبعد من ذلك. وكأنّه يبدو بأنّ الفرصة لم تسنح لبولس كي يحصل على مستوىً عالٍ من الدراسة البلاغيّة المفروضة[١٠]. مع ذلك، فإنّ عدد السِمات البلاغيّة الموجودة في رسائله لتشهدُ على ذكائه وتدريبه غير الرسميّ على الخطابة. لذا من المُرجَّح أنَّ مار بولس قد حصل على المستوى الابتدائي في البلاغة، ولكن ما تبقّى من إبداعٍ في كتابة الرسائل يُظهر أنّه اقتبسه من العالم اليونانيّ–الرومانيّ الذي خلّفَ أثرًا كبيرًا في البيئة التي كان يعيش فيها. لذا من المعقول أنَّ مار بولس حصَّل ثقافته من خلال قراءة

(٦) هنا يجب التمييز بين الحضارتين اليونانيّة والهلّينيّة. الحضارة اليونانيّة هي الأساس، ويطلق لقب "يونانيّ" على الشعب الذي عاش في اليونان وتكلّم اللغة اليونانيّة. أمّا الحضارة الهلّينيّة فقد نشأت بُعيد التوسّع السياسيّ للأمبراطوريّة الرومانيّة، حيث تفاعلت تلك الأخيرة مع الحضارات الشرقيّة. لذلك، لقب "هلّينيّ" يطلق على كلّ يهوديّ عاش في أورشليم، ولكنّ أصله مرتبط بيهود الشتات، ويستعمل اللغة اليونانيّة في العبادة، أو على كلّ شعبٍ تبنّى اللغة اليونانيّة كلغة حضارته.

(٧) كان النظام التعليميّ في العالم القديم يُقسم إلى ثلاث درجات: في الدرجة الأولى (عمر سبع سنوات) يتدرّج التلميذ في القراءة من الأسهل إلى الأصعب حتّى يصبح باستطاعته قراءة النصوص الشعريّة القصيرة؛ في الدرجة الثانية (بين عمر عشرة وإحدى عشرة سنة) يتعلّم التلميذ حسن الكلام، ويتدرّب على مبادئ القواعد والأدب، ويبدأ بتفسير المقاطع الشعريّة المعقّدة خاصّة نصوص هوميروس؛ في الدرجة الثالثة (عمر خمس عشرة سنة) يتدرّب التلميذ على يد فيلسوف أو خطيب، ويتضمّن البرنامج إتقان فنّ الخطابة والبلاغة بما فيه التأليف والمناقشة.
Cf. R. F. HOCK, "Paul and Greco-Roman Education", in J. P. SAMPLEY (ed.), *Paul in the Greco-Roman World*. A Handbook (Harrisburg – London – New York 2003) 198-205.

(٨) المقصود بالكتّاب الكلاسّيكيّين كلّ ما يتعلّق بالأدب اليونانيّ والرومانيّ.

(٩) Cf. S. E. PORTER, "Paul as Epistolographer and Rhetorician", in S. E. PORTER (ed.), *The Rhetorical Interpretation of Scripture*. Essays from the 1996 Malibu Conference (JSNTS 180; Sheffield 1999) 299.

(١٠) لم يكن التعليم العالي في متناول جميع الطبقات في المجتمع، فكما تُظهر كتيّبات علم البيان والبلاغة لم يكن في قدرة الجميع الذهاب إلى مدرسة البلاغة بسبب ضيق الوقت أو للقصر الماديّ. Cf. W. A. MEEKS, *The First Urban Christians*. The Social World of the Apostle Paul (New Haven 1983).

الكتابات المشهورة في عصره التي مَكَّنَتْهُ من تَعَلُّم مبادئ النحو والبلاغة وفنّ الخطابة [١١]. إضافةً إلى ذلك، مَن استطاع الكتابة باللغة اليونانيّة، بالفعاليّة التي كتب فيها القدّيس بولس، لا بدّ أنّه قرأ عددًا لا بأس به من الأعمال الكتابيّة في اليونانيّة، وتشرَّب بالتالي قواعد التطبيق من غيره، حتّى ولو كان يجهل القواعد النظريّة في الخطابة. لذا، إن كان من الممكن الإثبات بأنّ القدّيس بولس لم يكن على مستوًى عالٍ من المعرفة البلاغيّة، فإنّه لا يمكن الإنكار بأنّه عرفها بشكلها المطبَّق عمليًّا كذلك كلّ من درس العهد القديم بالعناية التي درسها مار بولس، لا بدّ له، دون شكّ، أن يلاحظَ الصفات البلاغيّة البادية للعيان، والتي تكشفُ عن الأفكار المدروسة بعناية كي تعبّر بشكلٍ أفضل عن الهدف المرجوّ من الكتابة، وتتمكّن من إيصاله إلى القارئ والسّامع [١٢].

مما لا شكّ فيه أنّ تنشئة مار بولس تأثّرت بحضارتين إحداهما يهوديّة والأخرى يونانيّة–رومانيّة. إكتسب من الأولى معرفة الكتاب المقدّس والتقاليد، ومن الثانية طريقة التعبير عن النفس عن طريق استعمال العناصر اللغويّة الفعّالة. من الواضح أنّ في رسائله نقاط التقاءٍ مهمّة ومفيدة مع الحضارة اليونانيّة؛ فهو يستشهد بالشعراء، يقتبس عناصرًا من الفلسفة؛ يعرف المبادئ ويُبدع في صياغة المفاهيم الفلسفيّة والشعبيّة على حدّ سواء. ومن المؤكد أيضًا أنّ للبيئة اليونانية تأثيرًا مباشرًا عليه، وعلى ثقافته، وعلى عقله كسِمَةٍ يتعذَّرُ محوُها ويصعب إنكارها. لذا يمكننا القول بأنّ رسائل مار بولس ولدت هي أيضًا نتيجةً لالتقاءِ حضارتين؛ فالثروة الكتابيّة التي اكتسبها كيهوديّ قد نُقلت إلى القارئ من خلال اختلاطها بالبيئة اليونانيّة، فاستُعملت الترجمة السبعينيّة، إضافةً إلى الثقافة الهلّينيّة التي جلبت إلى عالم الشتات رؤيةً جديدة للعالم، ولقراءة تاريخ الإنسان والتعبير عن مشاكله [١٣].

٢. الأسلوبان الخطابيّ والكتابيّ في رسائل مار بولس

تأثّرت كتابات العهد الجديد، بشكلٍ عامّ، ورسائل مار بولس، بشكلٍ خاصّ، بالتقليد الشفهيّ الذي كان منتشرًا في ذلك العصر، والذي يعتمد كثيرًا على الذاكرة؛ فمعظم الناس كانوا يعتمدون على ذاكرتهم للاستشهاد بالتعابير المقروءة والمسموعة [١٤]. كذلك تفاعلُ جمهور المستعمين كان يساعد الكاتب على تحديد موضوع النصّ وتركيبه. إذًا كان على الكاتب أن يأخذ بعين الاعتبار المستمع كي يستطيع أن يقنعَه، ويجعل النصّ المكتوب فعّالاً في ذاكرته وحياته. لذا كان هناك ارتباط بين الكلمة التي يلفظها الخطيب والطريقة التي يعبّر بها كي يلعب على شعور المستمع ويقنعه، خاصّةً وأنّ الرسائل كانت تُتلى على الجماعة بصوتٍ عالٍ والقراءة الصامتة كانت نادرة جدًّا [١٥].

لا يمكن الفصل في رسائل مار بولس بين الأسلوب الخطابيّ والكتابيّ، لأنّ قواعد الأسلوبَين تهدف إلى إلقاء الخطاب شفهيًّا، وبالتالي إلى خلق اتّصالٍ ناجح من خلال التعابير الحسّيّة والصوتيّة التي ترافق الإلقاء. لذلك، كان على حامل الرسالة لا أن ينقل النصّ المكتوب فحسب، بل أن ينقل

(١١) مهارة بولس الخطابيّة وتدريبه المحتمل عليها مُتّفقٌ عليهما. هذا لا يعني بالضرورة أنّ كان يحضر دروساً في البلاغة على يد معلّمٍ خاص، لكن من المحمل أنّ جميع المتعلّمين قد اكتسبوا شيئًا من البلاغة بحيث أنّ الثقافة اليونانيّة–الرومانيّة كانت بحدّ ذاتها ذات طابعٍ بلاغيّ.
Cf. B. MARTIN, *The Corinthian Body* (New Haven 1995) 50.

(١٢) Cf. C. J. CLASSEN, "St Paul's Epistles and Ancient Graeco-Roman Rhetoric", in S. E. PORTER – T. H. OLBRICHT (eds.), *Rhetoric and the New Testament*. Essays from the 1992 Heidelberg Conference (JSNTS 90; Sheffield 1993) 269.

(١٣) Cf. U. VANNI, "Due città nella formazione di Paolo: Tarso e Gerusalemme", in L. PADOVESE (ed.), *I simposio di Tarso su S. Paolo apostolo* (TCst; Roma 1993) 17-29.

(١٤) Cf. C. W. DAVIS, *Oral Biblical Criticism* (JSNTS 172; Sheffield 1999) 11.

(١٥) المرجع نفسه، ص ٢٥.

التعابير الشفهيّة أيضًا لأنّها أساسيّة لنقل فكر ورسالة الكاتب. من هنا نستنتج أنّ طريقة تحضير الرسالة وعرضها كان لهما وقعٌ خاصّ[١٦].

بما أنّ رسائل مار بولس كانت موجّهة إلى جماعاتٍ معروفة في أوضاعها ومشاكلها الملموسة، كان هناك دائمًا علاقة حميمة بينه وبين الجماعة، إن كان إيجابيّة أم سلبيّة، لأنّ كل رسالة تفترض علاقة بين مُرسلها والمُرسَلة إليه[١٧].

في زياراته للجماعات التي يريد أن يبشّرها، كان يفضّل مار بولس المدن التي لم يبشّر فيها أحد كي لا يجني من تعب ما زرعه الآخرون (رج ٢ كو ١٠: ١٣-١٥؛ رو ١٥: ٢٣-٢٤). عندما كانت تسنح له الفرصة كان يقوم شخصيًّا بزيارة الجماعة أو كان يرسل أحد معاونيه إن لم يكن يريد هو أن يذهب لسببٍ ما (رج ٢ كو ٨: ١٦؛ ١٢: ١٨). لكن عندما كان يتعذّر عليه إرسال أحد معاونيه، كان يُرسل رسالةً إلى الجماعة محاولاً أن يكون واضحًا في جوابه على مشاكلها، مشجّعًا، ومساعدًا، وحاثًّا، ومصحّحًا (رج ١ تس ٣: ١٠). لكن ما هو أكثر أهميّة هو الابتكار الذي أحدثه مار بولس في عمليّة التبشير. يمكننا القول بأنّه كان الرائد في استخدام الرسالة كوسيلةٍ للتعبير والاتّصال بينه وبين الجماعات وبين جماعةٍ وأخرى (رج كول ٤: ١٦). لم يتقيّد مار بولس بوسائل الاتصّال التقليديّة كالوعظ والتعليم الشفهيّ، بل كان مبتكرًا في مجال التبشير، واضعًا الرسالة موضع الاستعمال في نشاطاته الراعويّة كوسيلةٍ جديدة لإيصال الإنجيل[١٨].

بناءً على ما سبق يبرز سؤالٌ رئيسيّ إذا كان بولس، ككاتبٍ للرسائل، يُعتبر في الوقت عينه خطيبًا؛ أو بطريقةٍ أخرى: هل كتب بولس رسائلَ فقط، أم كان يريد، في الحقيقة، أن يكتب خِطبًا تعليميّة؟

رغم أنّ العديد من المحلّلين في فنّ الخطابة البولسيّة اعتبروا رسائله كخطبٍ تعليميّة[١٩]، أو بالأحرى كخطبٍ متنكّرة بحلّة رسائليّة، فإنّ هذا النهج غير مرضٍ، لأنّ المقاييس التي أخذت بعين الاعتبار، وإن كانت جيدّة من الناحية العلميّة، لم تكن كافية، لأنّها إمّا قلّلت من أهمّيّة المعالم الرسائليّة الواضحة عند مار بولس، وإمّا أهملتها كليًّا[٢٠]. إنّ افتتاحيّة كلّ رسالة بولسيّة وخاتمتها تعكسان بشكلٍ جليّ المعالم الرسائليّة، بالرغم من لجوئه إلى معالم خطابيّة في جسم النصّ. لكن تبقى المعالم الخطابيّة صعبة التحديد لأنّها غير واضحة، ولا يستعملها مار بولس بالطريقة نفسها التي يفتتح بها أو يختم الرسالة، وذلك يعود إلى أنّ الرسول لم يتّبع بشكلٍ حرفيّ تصاميم رسائل العالم القديم أو تلك التي كانت تُكتب في عصره، بل كان يستخدم تلك الأساليب ويضعها بأسلوبه الخاصّ به.

على أساس الاستطلاع للخطوط العريضة البلاغيّة في رسائل مار بولس يمكن القول بأنّها تكشف عن عدم وجود فئاتٍ ثابتة، أيّ أنّ بولس لا يطبّق نفس المخطّط في جميع رسائله أو مناقشاته لأنّه كان يجاوب على مشاكل كنسيّة محلّيّة، ومشكلة كلّ كنيسة وتساؤلاتها كانت توجّه طريقة الكتابة. غير أنّ هذا النهج البولسيّ لا يُعتبر نوعًا من الارتباك أو عدم التنظيم، لأنّه، كما أوضحنا أعلاه، لم يُطبّق بولس قواعد البلاغة اليونانيّة بحذافيرها، ولم يكن في مخطّطه كتابة مقالاتٍ أدبيّة أو عقائديّة، فهدفه كان بسيطًا جدًّا وهو الإجابة على مشاكل الكنائس التي أسّسها بشكلٍ واضحٍ ومقنع. لذا كلامه القاسي أحيانًا والتغيير المفاجئ في لهجته ينتج عن غيرته القوّية التي تهدف إلى جلب سامعيه إلى اتّباع المسيح بشكلٍ حازم ودون تأرجح، لأنّه اختبر كيف يقرأ كلّ

(١٦) Cf. P. J. J. BOTHA, "The Verbal Art of the Pauline Letters, Rhetoric, Performance, and Presence", in *S.E.* 417-420.
(١٧) Cf. J. ABELLA, *Paolo*. Annuncio di vita per culture diverse (Parola missione 4; Bologna 1999) 43.
(١٨) Cf. A. CARRILLO, "Pablo, el fariseo conquistado por Cristo", *PNM* 8/14 (2008) 16-17.
(١٩) Cf. G. KENNEDY, *New Testament Interpretation through Rhetorical Criticism* (Chapel Hill, NC 1984) 86-87.
(٢٠) Cf. S. E. PORTER, "Paul as Epistolographer and Rhetorician", 228.

شيء انطلاقًا من مركزٍ واحد وهو يسوع المسيح. لذلك، نتستنتج أنّ السِمات البولسيّة الخطابيّة يصعب تحديدها لأنّ بولس لا يستخدم نفس الفئات الكتابيّة المستعملة في الدليل الخطابيّ المعتمد آنذاك. فبعض المفاهيم البولسيّة تتخطّى التأثير اليونانيّ أو اليهوديّ، وتنبع من اختباره الرسوليّ، ولا سيّما من النفحة الكريستولوجيّة التي نجدها في كلّ زاويةٍ من رسائله [٢١].

علاوةً على ذلك، يخلط بولس أحيانًا بين المبادئ اليونانيّة والرومانيّة والصيغ الكتابيّة اليهوديّة، وكذلك أيضًا بين نماذج كتابة الخطب والترتيب المنطقيّ الرسائليّ الذي يعتمد على النقاش والجدال. لذلك يصعب في رسائله التمييز بين الفئات النقاشيّة المستعملة، كما ويصعب تحديد الفئة التي تسود على الأخرى. بالتالي، في معظم الأحيان، لا يمكننا تمييز الفئة البلاغيّة التي يمكن تعميمها على الرسالة الواحدة[٢٢]، لأنّ الكتابة البولسيّة لا تتبع نموذجًا بقدر ما تتبع تفكيرًا معيّنًا تريد أن تبلوره. في هذه الحالة، وحده سياق النصّ يمكن أن يساعد القارئ على تحديد النموذج الذي تنتمي إليه الرسالة. لذلك، يمكننا القول بأنّ بولس لم يكن بليغًا على شاكلة الفلاسفة وعلماء عصره، بل كان بالأحرى كاتب رسائل. بناءً على قراءة رسائله، لا نرى فيها قبسًا من الخطابات القديمة، لأنّ كل ما كتبه وكلّ كلمةٍ استخدمها وُضعت في هدف موضوع الكتابة. لم يفكّر بولس يومًا أنّ كتاباته ستُجمع وتُسلَّم إلى الأجيال المقبلة، لأنّه كان يكتب فقط بدافع الإجابة على المشاكل الآنيّة والمؤقّتة. فعندما كان حاضرًا في الجسد لم يكن بحاجة إلى اللجوء المتكرّر إلى الرسائل من أجل حلّ المسائل. غيابه فقط جعل استخدام الرسائل ضروريًّا بكلمةٍ واحدة، عرف مار بولس كيف يستفيد من مواهبه ومن كلّ ما يمكن أن يساعده على نشر إنجيل يسوع المسيح إن كان شفهيًّا أو كتابيًّا، وذلك لأنّ مصدر المعرفة الحقيقيّة يقودها الله[٢٣].

خاتمة

إنطلاقًا من النظرة السريعة التي ألقيناها على عالم مار بولس الثقافيّ، مع الأخذ بعين الاعتبار أسلوبه الرسائليّ الخاصّ، يمكننا، دون شكّ، أن نميّز زاويتين في تنشئته: الأولى يونانيّة–رومانيّة في طرسوس، والثانية يهوديّة في أورشليم. لكنّنا، في الوقت نفسه، لا يمكننا أن نهمل الزاوية الثالثة والأساسيّة في تنشئته والتي تفوق الزاويتين الثقافيّتين، ألا وهي اختباره الشخصيّ نتيجة لقائه بالمسيح القائم من بين الأموات على طريق دمشق[٢٤]. فمنه قد تعلّم ما لم تعلّمه إيّاه البلاغة ومبادئها.

كل ما ورثه مار بولس من الخلفيّة اليهوديّة[٢٥]، ومن اتصالاته مع الحضارة الهلّينيّة، وكلّ ما استمدّه في وقتٍ لاحق من الرسل ومن خبرته الرسوليّة الشخصيّة لم يجد معناه إلاّ في التحوّل الذي أجراه لقاؤه بالمسيح على طريق دمشق[٢٦]، الذي حوّل حياته رأسًا على عقب وجعله يخرج من ذاته ومن طرق تفكيره ليضع كلّ شيء في خدمة المسيح وبحسب مخطّطه. هذا لا يعني أنّ بولس نسي ماضيه بسرعة و لم يعد "الفريسيّ" المتمسّك بالتوراة، إنّما لقاؤه بالمسيح جعله يقرأ الشريعة من منظارٍ جديد يتخطّى التوراة ويبنى على علاقته

(٢١) Cf. J.-N. ALETTI, "Théologie paulinienne", dans J.-Y. LACOSTE (éd.), *Dictionnaire critique de théologie* (Paris 1998) 866.

(٢٢) هذا لا يعني أنّ النموذج نفسه يمكنه أن يُطبّق دائمًا على الرسالة بكاملها؛ فأحيانًا في كلّ قسمٍ من الرسالة هناك نموذج مختلف، ولكنّه لا يتعارض مع الموضوع العامّ الذي يناقشه بولس في الرسالة.

(٢٣) Cf. J. H. NEYREY, "The Social Location of Paul: Education as the Key", in D. B. GOWLER – L. G. BLOOMQUIST – D. F. WATSON (eds.), *Fabrics of Discourse*. Essays in Honor of Vernon K. Robbins (Harrisburg, PA 2003) 144.

(٢٤) Cf. U. VANNI, "Due città nella formazione di Paolo: Tarso e Gerusalemme", p. 22-23.

(٢٥) تأثّر بولس بالتفكير اليهوديّ، خاصّةً بنموذج العظات الذي كان يُستعمل في المجمع اليهوديّ. تُلقي العظة اليهوديّة الضوء على الوسط الفكريّ الذي نشأ فيه العهد الجديد، وتلفت الانتباه إلى الجذور اليهوديّة لخلفيّة العهد الجديد. Cf. W. R. STEGNER, "The Ancient Jewish Synagogue Homily", in D. E. AUNE (ed.), *Greco-Roman Literature and the New Testament* (SBLSBS 21; Atlanta, GA 1988), 66, 69.

(٢٦) Cf. J. A. FITZMYER, *Pauline Theology*. A Brief Sketch (Englewood Cliffs, NJ 1967) 14-15.

بالمسيح، لأنَّ "غاية الناموس هي المسيح" (رو ١٠: ٤). إذًا، كان بولس دائمًا "فريسيًّا"، وماضيه اليهوديّ يبقى إلى الأبد متّسمًا بالروحانيّة النموذجيّة التي تُبنى على التفاني وعدم الانقسام، ولكن بدلاً من أن تكون مخصّصةً للشريعة، أصبحت مكرّسةً لإنجيل المسيح[٢٧]. لذا رسالة مار بولس لم تعد مقتصرة على شعبٍ واحد بل انطلقت لتضمّ جميع الشعوب. فإن كان هناك من أهمّيّة كبيرة لخلفيّته الثقافيّة، فإنها ساعدته كثيرًا على التمكّن من التواصل مع العالم كلّه، ليس من الناحية اللغويّة فقط، بل من ناحية التعبير البلاغيّ، بحيث أنّ أيّ قارئٍ من خارج الإطار اليهوديّ واليونانيّ كان قادرًا على فهم الرسالة. على هذا الأساس، تخطّت رسائل مار بولس الاستراتيجيّة الجغرافيّة التبشيريّة التي تخصّ كنيسةً واحدة محلّيّة لتطال جمهورًا عالميًّا يتوق إلى لقائه الشخصيّ بالمسيح[٢٨].

(٢٧) Cf. R. PENNA, "Un Fariseo del Secolo I: Paolo di Tarso", *RSB* 2 (1999) 86-87.

(٢٨) Cf. J.-N. ALETTI, "La rhétorique paulinienne: construction et communication d'une pensée", dans A. DETWILLER – J.-D. KAESTLI – D. MARGUERAT (éds.), *Paul une théologie en construction* (Genève 2004) 55-58.

المراجع

ABELLA, J., *Paolo*. Annuncio di vita per culture diverse (Parola missione 4; Bologna 1999).

ALETTI, J.-N., "La rhétorique paulinienne: construction et communication d'une pensée", dans A. DETWILLER – J.-D. KAESTLI – D. MARGUERAT (éds.), *Paul une théologie en construction* (Genève 2004) 47-66.

_____, "Théologie paulinienne", dans J.-Y. LACOSTE (éd.), *Dictionnaire critique de théologie* (Paris 1998) 866-872.

BARBAGLIO, G., *Paolo di Tarso e le origini cristiane* (Assisi 1985).

BOTHA, P., "The Verbal Art of the Pauline Letters: Rhetoric, Performance, and Presence", in S.E. PORTER – T. H. OLBRICHT (eds.), *Rhetoric and the New Testament*. Essays from the 1992 Heidelberg Conference (JSNTS 90; Sheffield 1993) 409-428.

CARRILLO, A., "Pablo, el fariseo conquistado por Cristo", *PNM* 8/14 (2008) 9-19.

CLASSEN, C. J., "St. Paul's Epistles and Ancient Greek and Roman Rhetoric", in S. E. PORTER– T. H. OLBRICHT (eds.), *Rhetoric and the New Testament*. Essays from the 1992 Heidelberg Conference (JSNTS 90; Sheffield 1993) 265-291.

DAVIS, C. W., *Oral Biblical Criticism* (JSNTS 172; Sheffield 1999).

ELLIS, E. E., *Paul's Use of the Old Testament* (Grand Rapids, MI 1957).

FITZMYER, *Pauline Theology*. A Brief Sketch (Englewood Cliffs, NJ 1967) 14-15.

HOCK, R. F., "Paul and Greco-Roman Education", in J. P. SAMPLEY, *Paul in the Greco-Roman World*. A Handbook (Harrisburg – London – New York 2003).

KENNEDY, G., *New Testament Interpretation through Rhetorical Criticism* (Chapel Hill, NC 1984).

MARTIN, D. B., *The Corinthian Body* (New Haven 1995).

MEEKS, W. A., *The First Urban Christians*. The Social World of the Apostle Paul (New Haven 1983).

MARROU, H., *Histoire de l'éducation dans l'antiquité*, II (Paris 1948).

NEYREY, J. H., "The Social Location of Paul: Education as the Key", in D. B. GOWLER – L. G. BLOOMQUIST – D. F. WATSON (eds.), *Fabrics of Discourse*. Essays in Honor of Vernon K. Robbins (Harrisburg, PA 2003) 126-164.

PENNA, R., "Un Fariseo del secolo I: Paolo di Tarso", *RSB* 2 (1999) 65-87.

PORTER, S. E., "Paul as Epistolographer and Rhetorician", in S. E. PORTER (ed.), *The Rhetorical Interpretation of Scripture*. Essays from the 1996 Malibu Conference (JSNTS 180; Sheffield 1999) 222-248.

STEGNER, W. R., "The Ancient Jewish Synagogue Homily", in D. E. AUNE (ed.), *Greco-Roman Literature and the New Testament*. Selected Forms and Genre (SBLSBS 21; Atlanta, GA 1988).

STOWERS, S. K., "Social Status, Public Speaking, and Private Teaching: The Circumstances of Paul's Preaching Activity", *NT* 26/1 (1984) 59-82.

VANNI, U., "Due città nella formazione di Paolo: Tarso e Gerusalemme", in L. PADOVESE (ed.), *I simposio di Tarso su S. Paolo apostolo* (TCst; Roma 1993) 17-29.

مجمع أورشليم ودور بولس فيه[1]

(أع ١٥: ١-٣٥)

الخوري أنطوان مخايل
جامعة الروح القدس، الكسليك

يشكّل الفصل الخامس عشر من كتاب أعمال الرسل نقطة تحوّل محوريّة في مجمل مسيرة الكتاب، إذ إنه ينقل خبر اعتراف كنيسة أورشليم رسميًّا بتبشير الوثنيّين، وهو تبشير كان قد بدأه بطرس وبرنابا وبولس، ممّا سهّل عمليّة تحرّر الكنيسة الناشئة من ارتباطها الشديد باليهوديّة. حتّى هذا الفصل، كان لوقا قد رتّب كتابه حول أورشليم، الكنيسة الأمّ، ومنها كان ينطلق نشاط الرسل التبشيريّ في المناطق المجاورة، بما في ذلك رحلة بولس التبشيريّة الأولى، التي يمكن اعتبارها تهيئة للمجمع وللتحرّر من هيمنة المتهوّدين. بدءًا من الفصل ١٥، "سينفرط عقد الاثني عشر"، وسينتهي تبشير بطرس، وسيسيطر نشاط بولس الرسوليّ على بقية الكتاب.

في هذا الفصل يضعنا الإنجيليّ لوقا في جوّ التجاذب الخطير الذي انعقد بين قطبَي المسيحيّة الأولى: أورشليم عاصمة اليهوديّة حيث ابتدأ كلّ شيء، وأنطاكية، المدينة الهلّينيّة التي أضحت نقطة انطلاق الرسالة لدى الوثنيّين، ويطرح مشكلة معقّدة: العلاقة بين اليهود والوثنيّين، المؤمنين كليهما بيسوع. علينا أن نميّز هنا بين تطوّر الأحداث التاريخيّ، وصياغة لوقا اللاهوتيّة. من وجهة نظر تاريخيّة، يرى بعض الشرّاح أنّه يصعب تأكيد رواية لوقا إذ لا نجد ذكرًا آخر لها في سائر كتب العهد الجديد سوى ما يلمّح إليه بولس في غل ٢: ١-١٠، عن صعوده وبرنابا إلى أورشليم، واتفاق بينه وبين "أعمدة الكنيسة" حول عمله التبشيريّ بين الأمم، الذين يجب ألاّ يُفرض عليهم شيء. فهل هذا الصعود هو نفسه الصعود الوارد ذكره في أع ١٥؟ كما أنّ بولس ينقل، في غل ٢: ١١-٢١، مشادّة قويّة بينه وبين "كيفا" (بطرس)، الموجود في أنطاكية، حول مؤاكلة الوثنيّين- المسيحيّين، وفيها لام بولس بطرس على انسحابه عن مائدة الوثنيّين-المسيحيّين، بضغط من المتهوّدين، من بعد ما كان قد جلس إليهما. فتصرُّف بطرس هذا حمل الوثنيّين-المسيحيّين على أن يتهوّدوا؛ فهل وقع هذا الحادث قبل قرار مجمع أورشليم، والذي أرسل إلى كنيسة أنطاكية (أع ١٥: ٣٠) أم بعده؟ أسئلة من الصعب الجواب عليها.

على أيّ حال، يبدو محتملاً أن يكون لوقا قد جمع، في روايته هذه، عناصر متأتّية من مصادر متنوّعة (أورشليميّة وأنطاكيّة) متعلّقة بجدالين مختلفين وقعَا حقيقة في الجماعة الأولى: واحد حول الختان، وآخر حول مؤاكلة الوثنيّين-المسيحيّين؛ وقام بعمليّة تفسير للمعطيات والمعلومات، ووضع كلّ ذلك في ما يعرف بعلم الكتاب

(١) يتحفّظ بعض العلماء على اعتبار مجمع أورشليم مجمعًا على مثال المجامع الكنسيّة الرسميّة التي عُقدت في تاريخ الكنيسة، بحيث لم تتمّ الدعوة لعقده، ولم تُنشر أعماله على مستوى الكنيسة الجامعة، ويفضّلون استعمال كلمة "اجتماع أورشليم". لكنّ عبارة "مجمع أورشليم" هي التي شاعت نظرًا لسهولة استعمالها.

المقدّس "رواية خلاصة" (récit de synthèse)، تهدف هذه الرواية إلى إبراز البعد اللاهوتيّ لصراع كان بإمكانه، لو لم يحلّ، القضاء على رسالة الكنيسة في العالم الوثنيّ. للرواية تركيبة مثلّثة بسيطة وكأنّها رحلة من أنطاكية إلى أورشليم فإلى أنطاكية مجدّدًا.

١. خلاف في أنطاكية
(أع ١٥: ١-٣)

"ونزل أناس من اليهوديّة وأخذوا يلقّنون الإخوة فيقولون: إذا لم تختتنوا على سنّة موسى[٢]، لا تستطيعون أن تنالوا الخلاص" (أع ١٥: ١). تتطابق المسألة المثارة هنا مع موقف المتهوّدين الذين حاربهم بولس في رسالته إلى أهل غلاطية (غل ٥: ٦-١٢). لكنّها أضحت مسألة مقلقة لكلّ المسيحيّين من أصل وثنيّ، وحتّى للفئة من اليهود المعروفين بـ"خائفيّ الله" الذين لم يختتنوا.

نحن إذًا في أنطاكية، حوالى سنة ٤٩، أي في الفترة الممتدّة بين رحلتَي بولس التبشيريّتَين الأولى والثانية. يسمّي بولس هؤلاء المتهوّدين "بالدخلاء" و"الإخوة الكذّابين المتطفّلين الذين دسّوا أنفسهم بيننا ليتجسّسوا حرّيّتنا التي نحن عليها في المسيح يسوع فيستعبدونا" (غل ٢: ٤). من المرجّح أن يكون هؤلاء من الفرّيسيّين القدماء، أو أشخاصًا مدعومين من الحزب الفرّيسيّ (راجع أع ١٥: ٥)، ارتدّوا حديثًا إلى المسيحيّة، ولكنّهم بقوا متمسّكين بتقاليدهم اليهوديّة، وغير قادرين على استيعاب متطلّبات إيمانهم الجديد. باختصار، أراد هؤلاء أن يلزموا الوثنيّين الراغبين في أن يصيروا مسيحيّين بأن يخضعوا للشريعة الموسويّة، فيُختَنوا بحسبها، ويمارسوا شرائعها. واجه بولس وبرنابا، اللذان كانا يقولان بانفتاح كلّي للكنيسة على محيطها، هؤلاء المتهوّدين، ودعيَا إلى قبول الجميع للعماد من دون شروط.

لدينا إذًا تيّاران متعارضان يحتمي كلّ واحد منهما وراء شخصيّات من الصفّ الأول. ففي حين اختبأ المتهوّدون وراء يعقوب ومؤمنيّ أورشليم الأمينين للممارسات اليهوديّة القديمة (اليهود–المسيحيّين)، اعتمد الوثنيّون–المسيحيّون على بطرس وبولس وبرنابا. كما بدا هذا الجدال أكثر حدّة في أنطاكية منه في أورشليم، بسبب بُعْد المسافات، ممّا جعل من التواصل مع مسؤوليّ الكنيسة الأوائل لطلب مشورتهم أمرًا صعبًا. فتمّ التوافق على إرسال بعثة، برئاسة بولس وبرنابا، إلى أورشليم[٣] "حيث الرسل والشيوخ للنظر في هذا الخلاف" (أع ١٥: ٢)[٤].

في الطريق إلى أورشليم، اجتازت البعثة فينيقية والسامرة اللتين انتشرت فيهما البشارة، حيث روى بولس وبرنابا خبر اهتداء الوثنيّين، مما أفرح "الإخوة فرحًا عظيمًا" (أع ١٥: ٣). ليست هذه الإشارة الأخيرة (وفيها صدى للو ٢: ١٠) إشارة عرضيّة، فهي تمكّننا من استباق ما سيجري. فانتصار طرح المتهوّدين سيكون بمثابة إطفاء لهذا الفرح العظيم الذي يرافق البشرى بخلاص يقدّم لجميع الناس من دون شروط.

٢. مجمع أورشليم
(أع ١٥: ٤-٢٩)

استقبلت كنيسة أورشليم البعثة الإنطاكيّة بالترحاب، وأخبر بولس برنابا "بكلّ ما أجرى الله معهم" (أع ١٥: ٤). على هذا الاختبار، اعترض أناس من الفرّيسيّين المرتدّين والذين كانوا يردّدون خطاب متهوّديّ أورشليم نفسه: "يجب ختن الوثنيّين وتوصيتهم بالحفاظ على شريعة

(٢) يربط التقليد اليهوديّ فريضة الختان بإبراهيم وليس بموسى (أنظر تك ١٧: ٩-١٤؛ روم ٤: ٩-١٢). من المحتمل أن يكون ربطها هنا بموسى يهدف إلى إعطائها بعدًا شرائعيًّا ملزمًا.

(٣) في غل ٢: ٢، يردّ بولس سبب هذه الزيارة إلى وحي من الله. كما يبدو تتابع الأسماء "بولس–برنابا" صيغة من يد لوقا كما في أع ١٣: ٤٣، ٤٦، ٥٠؛ ١٥: ٢٢.

(٤) في العهد الجديد، لا ترد كلمة "خلاف" (ζητημα) إلاّ في كتاب أعمال الرسل (أنظر أع ١٨: ١٥؛ ٢٣: ٢٩؛ ٢٥: ١٩؛ ٢٦: ٣).

موسى" (أع ١٥: ٤). علينا ألاّ نرى في هذا الموقف مجرّد ضيق نظر، لأنّه يعكس قناعات اليهود-المسيحيّين الذين كانوا يعتبرون الختان الطريق الأفضل لدمج الوثنيّين-المسيحيّين في جماعة شعب الله. إنّها مسألة ذات طابع دينيّ-إجتماعيّ. ففي تلك الفترة، لم يكن المسيحيّون أصبحوا فئة دينيّة متمايزة، فكانوا يخضعون للقوانين التي يخضع لها اليهود، ولهم الامتيازات والحقوق نفسها. تستحقّ المسألة إذًا أن تناقش بدقّة وبمسؤوليّة، في حلقة ضيّقة تقتصر على "الرسل والشيوخ" (أع ١٥: ٦)[٥]. خلافًا للملخّص الذي يعطيه بولس عن المجمع في غل ٢: ٢، ٥-١٠، لا يعطي لوقا بولس وبرنابا سوى دورًا ثانويًّا في أعمال المجمع. في المقابل، سيكون الدور الرئيسيّ فيه لبطرس ويعقوب. هنا تشير عبارة "بعد جدال طويل" (أع ١٥: ٧) إلى دقّة المسألة المثارة وحساسيّتها، وإلى الطابع المجمعيّ للجدال.

١) خطبة بطرس (أع ١٥: ٧-١١)

تبدو خطبة بطرس، وهي الخطبة الأخيرة له في كتاب أعمال الرسل، خطبة متناغمة تمامًا مع خبر اهتدائه الروحي الذي ترويه مطوّلاً الفصول ١٠-١١ من هذا الكتاب، وتعكس تطوّرًا هامًّا في تفكيره. فذكّر الإخوة الأورشليميّين "بأنّ الله اختار... أن يسمع الوثنيّون من فمي كلمة البشارة ويؤمنوا" (أع ١٥: ٧ بإشارة إلى أع ١٠: ١-١١، ١٨)؛ وبأنّه "وهب لهم الروح القدس كما وهبه لنا" (أع ١٥: ٨؛ راجع أع ١٠: ٤٤-٤٧ ؛ ١١: ١٥-١٧)، وفي هذا لم يميّز الله بيننا وبينهم في شيء" (أع ١٥: ٩؛ رج ١٠: ٢٠، ٤٧؛ ١١: ١٥). من المفترض أن يكون كلام بطرس هذا كلامًا ذا سلطان كونه يعكس اختباره الشخصيّ في تبشير الوثنيّين وتعميدهم بوحي من الله. لقد قام بطرس بحلّ هذه المسألة في أع ١١: ١٨، وهي تحتاج إلى قبول رسميّ فقط من قبل الرسل والشيوخ في أورشليم، وهو ما استطاع بطرس الحصول عليه.

يستعمل بطرس، في خطبته حتّى الآية ١١، عبارات بولسيّة بامتياز تذكّرنا بلغة أع ١٣: ٣٨-٣٩، كمثل حديثه عن الخلاص بالإيمان، بنعمة الربّ يسوع وحدها، وعن عدم إمكانيّة الخلاص بالشريعة. هذا ما أعطى كيفا الجرأة ليعلن أنّ قرار إخضاع المهتدين من الوثنيّة لنير شريعة موسى، هو قرار متهوّر وظالم وعديم الجدوى: **متهوّر** لأنّ هذا الادّعاء يوازي "تجربة الله" (أع ١٥: ١٠أ ؛ رج خر ١٧: ٢،٧)؛ **وظالم** لأنّ هذا النير[٦] "لم يَقْوَ آباؤنا ولا نحن قوينا على حمله" (أع ١٥: ١٠ب) ؛ **وعديم الجدوى** لأنّ "نعمة الربّ يسوع" (عبارة بولسيّة كما في أع ١٣: ٣٨-٣٩؛ وغل ٥: ٦؛ ٦: ١٥؛ وروم ٣: ٢٤) تفتح لجميع الناس باب الخلاص (أع ١٥: ١١). في هذا الإطار، يؤكّد ذكر لوقا لسكوت الجماعة (أع ١٥: ١٢) على سلطان كلام بطرس، وقوّة إقناعه.

أمام كلام من هذا النوع، لم يعد بولس يحتاج لأن يبرهن موقفه على المستوى اللاهوتيّ؛ فاكتفى وبرنابا بإخبار "ما أجرى الله عن أيديهما من الآيات والأعاجيب بين الوثنيّين" (الآية ٢١).

٢) خطبة يعقوب (أع ١٥: ١٣-٢٢)

في هذا الجوّ، تندرج خطبة يعقوب[٧]، أخي الربّ، بصفته رئيس كنيسة أورشليم، الذي يعود إليه أمر

(٥) تشير عبارة "الرسل والشيوخ" إلى مسؤوليّ الكنيسة في أورشليم، وهم يتميّزون عن "سائر الكنيسة" (راجع أع ١٥: ٤، ٢٢). إستنادًا إلى غل ١: ١٩ و٢: ٩، كان من بين الرسل، في أورشليم، بطرس ويوحنّا ويعقوب أخو الربّ. لكنّ كتابات العهد الجديد تعطي كلمة "رسول" (αποστολος) معنى أوسع من حلقة الاثني عشر .

(٦) يشير "النير" إلى واجبات اليهود الدينيّة ("نير الشريعة" أو "نير ملكوت السموات")، ويرمز إلى العهد بين الله والشعب، ولا يعني بالضرورة حملاً ثقيلاً. هذا ما يؤكّد عليه استعمال يسوع له في معرض كلامه على تعليمه (مت ١١: ٢٩-٣٠). لقد عنى بطرس بكلامه المغالاة في فرض الشرائع والرسوم وهو ما يخالف معنى الشريعة الأساسيّ.

(٧) يرى بعض الشرّاح أنّ خطبة يعقوب والمقطع التالي من أع ١٥ يتعلّقان بمسألة منفصلة تاريخيًّا عن مجمع أورشليم. لقد وضع لوقا هذه الخطبة كصلة وصل بين حادثين، وفيها يعطي دورًا كبيرًا لكنيسة أورشليم في جهدها للتحرّر من قيود اليهوديّة.

قيادة الاجتماع نحو قرار توافقيّ. فهو يقبل، من جهة، كلام بطرس[٨] على مبادرة الله بين الوثنيّين، لكنّه يتحفّظ، من جهة أخرى، على اعتبار اليهود والوثنيّين شعبًا واحدًا تحت نظام النعمة (وهو طرح سيطوّره بولس في رسائله). فهو لا يقول بأنّ اليهود والوثنيّين أضحوا شعبًا واحدًا، بل "روى سمعان كيف عُني الله أوّل الأمر بأن يتّخذ شعبًا لاسمه من بين الوثنيّين" (أع ١٥: ١٤). بذلك يحافظ يعقوب على التمييز بين اليهود–المسيحيّين، وهذا الشعب الجديد الذي بعثه الله. هذا هو معنى الآية التي يستعيرها الرسول من النبيّ عاموس (بحسب الترجمة السبعينيّة)، لدعم كلامه فيقول: "سأعود بعد ذلك فأقيم خيمة داود المتهدّمة، سأقيم أنقاضها وأنصبها، فيسعى سائر الناس إلى الربّ، وجميع الأمم التي ذُكر عليها اسمي" (عا ٩: ١١–١٢)[٩].

هناك إذًا، من جهة، إسرائيل المجدّد، ومن جهة أخرى سائر الأمم التي ستسعى إلى الربّ. هذا هو الوضع الذي يجب الحفاظ عليه لتستطيع هاتان الجماعتان من أن تعيشا جنبًا إلى جنب من دون خلافات وانقسامات. يمكننا فهم الحلّ الذي اقترحه يعقوب (بقوله "إنّي أرى"[١٠]) على الاجتماع (أع ١٥: ١٩–٢٠) في إطار اليهوديّة: فهو لا يذهب إلى حدّ إعطاء الوثنيّين–المسيحيّين صفة "المهتدين" ممّا كان يوجب ختانهم (وهذا ما كان سيعرقل كثيرًا البشارة لدى الأمم)، بل اكتفى بطلب الامتناع عن أربعة أمور من تلك التي كان سفر اللاويّين (لا ١٧–١٨) يأمر بها الغرباء المقيمين في إسرائيل، فيستطيع اليهود العيش معهم من دون أن يتنجّسوا (سيعالج بولس مطوّلاً هذا الموضوع في رسائله إلى كورنتوس وروما). هذه الأمور هي: أكل لحم الذبائح المقدّمة للأوثان (لا ١٧: ٨–٩)، وأكل الدم (١٧: ١٠–١٢)، وأكل لحم الحيوانات المخنوقة (١٧: ١٥؛ راجع خر ٢٢: ٣١)، والزواج بين أقرباء العصب (لا ١٨: ٦–١٨). على هذه الخلفيّة، يشير يعقوب إلى الزنى أو العلاقة الجنسيّة بين أقرباء من درجات مختلفة، وهو رمى بكلامه دعوة الوثنيّين المسيحيّين إلى التضامن مع اليهود–المسيحيّين في احترامهم لقناعاتهم الدينيّة والاجتماعيّة (راجع بهذا الشأن ١ كو ٨: ١٠؛ ٢ كو ٦: ١٤).

٣) القرار المجمعيّ (أع ١٥: ٢٣–٢٩)

لا تحتاج الآيات ٢٣–٢٩ إلى تفسير لأن الحلّ الذي اقترحه يعقوب قد تمّ قبوله بالاجماع. فأرسل المجمع وفدًا مؤلّفًا من سيلا ويهوذا–برسابا، ليحملا قرار المجتمعين "إلى الإخوة المهتدين في أنطاكية وسورية وقيليقية" (أع ١٥: ٢٣)، ممّا يدلّ على وجود جماعات مسيحيّة في سورية غير أنطاكية من دون أن نعرف كيف ومتى نشأت (انظر غل ١: ٢١)، وهي معنيّة أيضًا بقرار أورشليم. نلاحظ كيف أنّ الرسل وشيوخ أورشليم حرصوا على التبرّوء من الذين أثاروا القلاقل (أع ١٥: ٢٤)، وعلى الإشادة ببولس وبرنابا اللذين "بذلا حياتهما من أجل اسم ربّنا يسوع المسيح" (أع ١٥: ٢٦).

يجعل لوقا من الرسالة التي تحتوي القرار المجمعيّ نموذجًا في الأدب الكنسيّ: تكليف، ودبلوماسيّة، وثقة بامتلاك الحقيقة وبالكلام بوحي من الروح القدس: "فقد حسن لدى الروح القدس ولدينا" (أع ١٥: ٢٨)؛ فالروح هو القائد الحقيقيّ للكنيسة في انتشارها خارج اورشليم، وهو يقود أيضًا مسؤوليها في قراراتهم الهامّة (راجع أع ٥: ٣٢). كما ترك المجمع لحامليّ الرسالة أن يشرحوا ضرورة إلزام الوثنيّين–المسيحيّين ببعض قواعد الطهارة الناموسيّة أو عدمه.

(٨) يسمّي يعقوب، وهو اليهوديّ–المسيحيّ، بطرس بإسمه الآراميّ "سمعان". أمّا في باقي كتاب الأعمال فيسمّى إما "بطرس" أو "سمعان بطرس" (أع ١٠: ٥، ١٨، ٣٢؛ ١٥: ١٧).

(٩) عبارة من العهد القديم (راجع ٢ أخ ٦: ٣٥؛ ٧: ١٤) تشير إلى تكريس لله. كان عاموس يتكلّم على شعوب انتمت إلى الله، فيما طبّق يعقوب هذه العبارة على الوثنيّين الذين دعوا ليشكّلوا شعبًا جديدًا لله.

(١٠) تحدّد كلمات يعقوب، كما كلمات بطرس، بسلطان أسس الحلّ. هنا يمكن ترجمة فعل κρινω بـ"أقرّر" كما في أع ٣: ١٣؛ ١٣: ٤٢؛ ١٦: ٤؛ ٢٠: ١٦؛ ٢١: ٢٥.

تعبّر نهاية هذا الفصل المثير عن الفرح الذي تلقّت به جماعة أنطاكية قرار جماعة أورشليم، إذ وجدت فيه سندًا في مواجهة المتهوّدين، إلى جانب خدمة سيلا ويهوذا-برسابا النبويّة. هكذا تمّ الحفاظ على وحدة الجماعة المسيحيّة الأساسيّة.

بنظرة لاهوتيّة على تاريخ الكنيسة، مكّنت قرارات مجمع أورشليم الحكيمة، التي يضعها لوقا في قمّة كتابه، من الاعتراف النهائيّ برسالة الكنيسة بين الأمم. تختم الآية الأخيرة (أع ١٥: ٣٥) رواية هذه الأزمة الناشبة على وقع إيجابيّ: يمكن لنشر البشارة وتعميقها أن يتواصلاَ، وكلمة الله ستبقى منتصرة على الرغم من الاضطّهادات والصراعات الداخليّة والخارجيّة.

خلاصـــة

شكّل مجمع أورشليم عبورًا من حالة أولى، وهي حالة التمييز بين اليهود والوثنيّين، إلى حالة ثانية، وفيها رفض المجمع تعميم ضرورة الختان، واعترف بشموليّة الخلاص، وخضوع جميع البشر للشريعة. من هذا المنظار، يبدو مجمع أورشليم وقتًا كبيرًا من أوقات تاريخ الخلاص، فيه فعّلت الكنيسة الرسوليّة النتائج الشاملة لقيامة يسوع، والملك الإلهيّ لابن البشر ("المرموز إليه بإقامة خيمة داود المتهدّمة").

سيتردّد صدى قرار مجمع أورشليم طويلاً في الكنيسة الأولى؛ فبالإضافة إلى استعانة بولس به في تبشيره وإنشائه الجماعات الجديدة في أرض وثنيّة (راجع مثلاً أع ٢١: ٢٥)، نجد كتّابًا كنسيّين كبارًا مثل إكليمنضوس الإسكندريّ، وأوريجانوس، وإيريناوس، وترتليانوس، وقبريانوس يشيرون إليه؛ كما تذكره بعض الكتابات الكنسيّة القديمة مثل تعليم الرسل، ورسائل إكليمنضوس المنحولة، وغيرها الكثير. مع مرور الوقت، ستصبح الجماعات الوثنيّة-المسيحيّة الأكثرية، فيما سيتراجع عدد الجماعات اليهوديّة-المسيحيّة؛ وفي القرن الرابع سيتمّ تهميش هذه الجماعات، واعتبارها هرطوقيّة، ممّا سيقود في النهاية إلى اختفائها عن مسرح الأحداث الكنسيّة. لكن ما هي الرسالة الحاليّة التي يقدّمها مجمع أورشليم؟

من المؤكّد أن جوهر رسالة هذا المجمع يكمن في كيفيّة بناء الجماعة في الوحدة. لقد لعب قرار المجمع دورًا حاسمًا في انتشار الكنيسة، بحيث شكّل شرطًا للوحدة بين الفئات المتنازعة، وقاعدة لغيرتها الرسوليّة وتقدّمها. يعني هذا أنّه لن تكون هناك كنيسة رسوليّة ما لم يتمّ احترام الأشخاص، واحترام حساسيّاتهم الدينيّة واختلافاتهم. عندئذ بإمكان الكنيسة أن تتمدّد، تحت قيادة الروح، لتصل إلى أقاصي الأرض. كما يمكن لروحيّة هذا المجمع أن تقود الكنيسة في حوارها مع الديانة اليهوديّة.

بعض مراجع هذه الدراسة:

BOSSUYT Ph. et Radermakers Jean, *Témoins de la Parole de la Grâce. Actes des Apôtres*, vol. 2, Bruxelles 1995.

DILLON R. et Fitzmeyer J., «*Gli atti degli apostoli*», dans *Grande Commentario Biblico*, Queriniana, Brescia 1973, pp. 1075-1078.

L'EPLANTTENIER Ch., *Les Actes des Apôtres*, Labor et Fides, Genève 1987.

LEMONNYER A., "*Concile de Jérusalem*", dans *DBS*, t. II-1, col. 113-120.

MARTIN F., *Actes des Apôtres. Lecture sémiotique*, Profac-Cadir, Lyon 2002.

اللّـه
كمـا أخـبرنـا عنـه يسـوع

ميشـال عويـط

ألان مـارشـادور

كلمـات مـن
الكتـاب المقـدّس

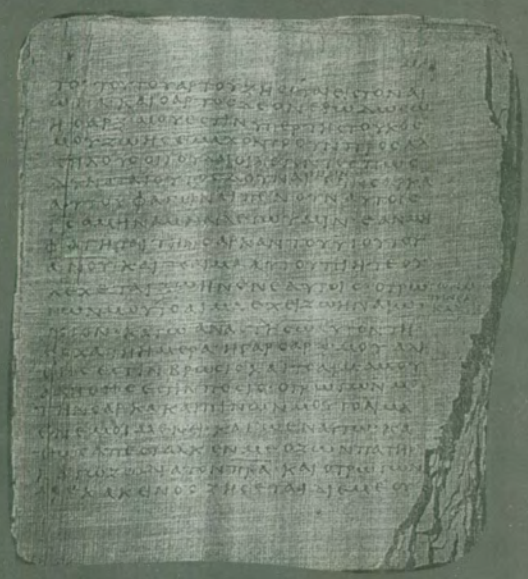

نقلـه إلى العربيـة
المطـران فـرنسيس البيسـري

مجلة الأكليريكية

مجلة سنوية تصدر عن الإكليريكية البطريركية المارونية - غزير

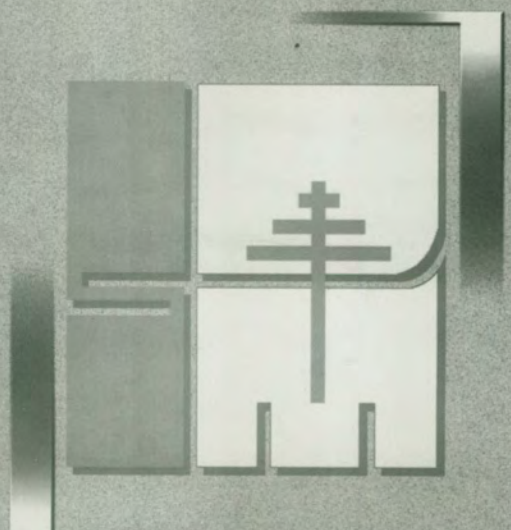

العدد الثامن تشرين الثاني ٢٠٠٨

إسطفانُس يفتدي بولس

الأخت كليمنص حلو
جامعة الروح القدس، الكسليك

مقدمة

«لو لم يُصَلِّ إسطفانُس، لَمَا ربح بولس». هذا القول الشهير لأغسطينُس يلفت نظرنا حول العلاقة الأساسيَّة بين رجم إسطفانُس (أع ٧: ٥٤-٦٠) وانفتاح عينَي بولس (٧: ٥٥). فَمَن هو إسطفانُس؟ وما كانت ردَّة فعل بولس الشاهد على قتل إسطفانُس؟ وما هي نقاط التشابه بين إسطفانُس وبولس؟

أوَّلاً، مَن هو إسطفانُس (أع ٦-٧)؟

في الفصلَين ٤ و٥ من أعمال الرسل تبلغ الأزمة حدَّها بين جماعة المؤمنين ومجمع أورشليم (السنهادرين). نجاحٌ من جهة، ومقاومة «إطاعة اللّه» (٥: ٢٩) وردَّة فعلٍ شرسةٍ من جهةٍ أُخرى. وقد تفاقمت الأزمة مع خطاب إسطفانُس وموته.

أ. إسطفانُس هو أحد الشمامسة السبعة الذين اختارتهم الجماعة «لخدمة الموائد» (٦: ٣) نظرًا لاحتجاج الهلّينيِّين، وهم يهودٌ مُهتَدون ذوو ثقافةٍ يونانيَّة، لإهمال أراملهم في «الخدمة اليوميَّة» (٦: ١). وقد انضمَّ هؤلاء الشمامسة إلى الرسل الاثني عشر.

«وكان إسطفانُس ممتلئًا من النعمة والقدرة، فأخذ يصنع العجائب والآيات العظيمة بين الشعب» (٦: ٨). ولمَّا عجز يهود الشتات عن مجادلته نظرًا لِمَا «أعطاه الروح من حكمة»، لجأوا إلى الوشاية بواسطة شهود زورٍ بحجَّة أنَّه تطاول على أُسُس اليهوديَّة: الهيكل والشريعة.

في المحاكمة التي جرُّوه إليها أجاب إسطفانُس بخطابٍ هو الأطول في أعمال الرسل، مختصرًا تاريخ إسرائيل بأربع لوحات:

١. دعوة إبراهيم وهجرته إلى بلاد كنعان (٧: ٢-٨).
٢. بيع يوسف إلى المصريِّين من قبل إخوته، وارتقاؤه في قصر فرعون (٧: ٩-١٦).
٣. نجاة موسى في مصر ولقاؤه باللّه وقيادته لليهود أثناء الخروج من مصر (٧: ١٧-٣٨).
٤. الشعب العبرانيّ يعبد الأصنام ويسجد لعجلٍ من ذهبٍ في البريَّة، وسليمان يبني هيكل أورشليم (٧: ٣٩-٥٠).

ب. ما هو الجديد في هذا الخطاب؟

أربع نقاطٍ محرجةٍ لليهود تظهر في هذا الخطاب:

١. الخلاص ليس مرتبطًا بالأرض بل هو يتمّ دائمًا من خارج أرض كنعان؛ فإبراهيم لم يمتلك أرضًا فيها، ويوسف خلَّص عائلته من الجوع في مصر، وموسى هرب لاجئًا إلى أرض مديان؛ فلا علاقة بين أرض الميعاد والخلاص.
٢. المرسَلون من اللّه، قد اضطهدهم الشعب منذ البداية: يوسف باعه إخوته، وموسى نبذه بنو قومه في مصر، والأبناء

كما الآباء «صُمّ الآذان!» لا يزالون يقاومون الروح القدس: «فأسلموا البارَّ وقتلوه» (أع ١٥-٢٥).

٣. الشريعة التي تسلَّمها اليهودُ من الملائكة لم يعملوا بها (أع ٥٣).

٤. اللّه العليّ لا يمكن حصره في «بيوتٍ صنعتها الأيدي» (أع ٧: ٤٨)، كما قال إشعيا النبيّ (٦٦: ١-٢).

ج. غيظ أعضاء المجلس من إسطفانُس والحُكم عليه بالرجم

إنَّ استشهاد إسطفانُس، كما رواه لوقا، يُشبه آلام المسيح وموته على الصليب (لو ٢٢-٢٣). «أخرجوه من المدينة ليرجموه». بعدها قال: «أرى السماء مفتوحةً وابن الإنسان واقفًا عن يمين اللّه». أثناء الرجم أسلم روحَهُ ليسوع وطلب الغفران لصالبيه (٧: ٥٤-٦٠).

ثانيًا، ما كانت ردَّة فعل بولس الشاهد على رجم إسطفانُس؟

أ. إنتظر بولسُ المسيحَ مثل اليهود، وبحسب مفهوم التوراة الذي نقضه إسطفانُس. كان فرِّيسيًّا صادقًا وواثقًا، حياته الشريعة. إحتقر يسوعَ الذي قال عن نفسه إنَّه المسيح، كما احتقره الفرِّيسيُّون. هذا «المصلوب» أشبه بالمجرم: «ملعونٌ مَن عُلِّق على خشبة». فشلوا حين ظنُّوا أنَّه سيُحَرِّرهم من الرومان المحتلِّين. إنَّ بولس مواطن العالم وذا الثقافة العالية: اليهوديَّة والرومانيَّة واليونانيَّة الشعبيَّة، هزئ بتلاميذ يسوع البسطاء واعتبرهم أُمِّيِّين وجَهَلة.

ب. حضر بولسُ رَجْمَ إسطفانُس وحمل «شاول الفتى» ثيابَ الشهود التي خلعوها «ووضعوها أمانةً عند قدميه» (٧: ٥٨). و«كان شاول موافقًا على قتل إسطفانُس» (٨: ١). هذا التأكيد يظهر الثورة في قلب بولس على هؤلاء الهامشيِّين الهلِّينيِّين من الشتات، لأنَّهم تصرَّفوا مثل يسوع، حسبما ورد في خطاب إسطفانُس. كان الهلِّينيُّون المُهتدون إلى «الطريقة»، أي المسيحيَّة، يهربون إلى سوريا، وراء جبل حرمون، اتِّقاءً من اضطهاد اليهود.

ولكنَّ **انفعالَين مضادَّين** اعتملاَ في قلب بولس: الانفعال الأوَّل العفويّ هو مجابهة التحدِّي الصارخ لِمَا يُبشِّر به إسطفانُس؛ لقد أنبأ إسطفانُسُ بقرب نهاية المعتقدات اليهوديَّة المغلقة، فامتلأ قلب بولس غيظًا ضدَّ «الطريقة» التي اعتبرها خطرةً على معتقداتٍ ظنَّها مُلْكًا له واضطهد المسيحيِّين باسمها. أمَّا الانفعال الثاني فهو الهزَّة العميقة التي أَصابت بولس في الأعماق عندما اكتشف شاهدًا يُفضِّل الموت على النكوص بإيمانه. وقد انطبعت في داخله صورتان لإسطفانُس تَقُضَّان مضجعه. لقد رأى بولسُ إسطفانُسَ في المحاكمة «وكان وجهه وجه ملاك» (٦: ١٥)، وعلى الأخصّ عندما سجد إسطفانُس وهم يرجمونه وصاح بأعلى صوته: «يا ربّ، لا تحسب عليهم هذه الخطيئة. فقال هذا ومات» (٧: ٦٠)؛ فكأنَّ بولس يحضر موت المسيح بالذات، وكان قد فاته الاشتراك فيه.

ج. موافقة بولس على قتل إسطفانُس تبعها اضطهادٌ شديدٌ لكنيسة أورشليم وسعيٌ لخرابها: تشتيت وملاحقة وسجن. ولكنّ ما خشيه بولس حصل؛ فالمضطَّهَدون المشتَّتون أصبحوا مبشِّرين بكلام اللّه حتَّى بين الوثنيِّين (٨: ١-٢٥)، فازداد بولسُ غيظًا، «وكان ينفث صدره تهديدًا وتقتيلاً لتلاميذ الربّ». وطلب رسائل من رئيس الكهنة إلى مجامع دمشق ليلاحق «تُبَّاع الطريقة» الذين أخذوا يبشِّرون الجاليات اليهوديَّة في دمشق، بهدف أن «يعتقل الرجال والنساء...

ويقودهم إلى أورشليم» (٩: ١-٢).

د. **إنتظر الربُّ بولسَ عند مفترق الطريق.** أَوقفه في طريقه دمشق حوالى سنة ٣٦ م. غمره بنورٍ واستجوبه صوت: «شاول، شاول، لماذا تضطهدُني» باضطهادِك للكنيسة؟ فالمسيح إذًا هو حيٌّ وجماعة التلاميذ هم أعضاء جسده. النور في عينيه والصوت في أعماقه أيقظا فيه الصدمة الخفيَّة التي هزَّته عند مشاركته برجم إسطفانُس. هذا الاختبار أوقعه أرضًا وأعماه حتَّى إنَّ رفاقه اضطرُّوا لاقتياده بيده.

إن وقوع بولس أرضًا هو وقوعٌ عن معتقداته ومكتسباته السابقة الإنسانيَّة والثقافيَّة والدينيَّة، التي فاخر بها واعتبرها ربحًا وغنيمة. فرؤية الربّ القائم من الموت بهرت بنورها عينَيه فعميَ، ولكنَّها فتحت بصيرتَهُ على أعماق الظلمة التي تُحيق به إزاء معرفة سرّ المسيح وأغوارها. تغيَّر فجأةً بالنسبة إليه سُلَّم القِيَم فإذا المواقف التي أَعلنها إسطفانُس في خطابه تخصُّهُ هو بالذات. إنَّه يصف حدث دمشق من ناحية التحوُّل الذي أصابه. فهو يعدّ تجلي الربّ له «اختيارًا» و«دعوة» نبويَّة، «من أجل إعلان ابن اللَّه في ذاته بين الأُمم» (غل ١: ٥١-٦١). ويَعدُّهُ «ظهورًا» (١ كو ١٥: ٨-٩) وتعرُّفًا إلى المسيح الذي من أجله «خسر كلَّ شيءٍ وحَسِبَهُ كالنفاية» (فل ٣: ٤-٩). مع المسيح وُلد بولس بل خُلق من جديدٍ كشخص (٢ كو ٤: ٦).

لقد صلَّى إسطفانُس ساجدًا صارخًا طالبًا الغفران لراجميه، فشمل تضرُّعُهُ بولسَ الذي شارك في رجمه. إنَّ استغاثة إسطفانُس المغموسة بدمه «أصبحت زرع قدِّيسين»، فاستمطرت نعمة الفداء على بولس. فحقٌّ له أن يُردِّد: «بنعمة اللَّه أنا ما أنا عليه الآن، ونعمته عليّ ما كانت باطلة» (١ كو ١٥: ١٠). ويعزو بولس هذه النعمة لصلاة الاستشفاع: لقد «باركنا اللَّهُ استجابةً لصلوات كثيرٍ من الناس» (٢ كو ١: ١١). وإسطفانُس الشاهد والشهيد هو أوَّل مَن افتدى بولس، فتمّ تحوُّله من «حياتي هي الشريعة» إلى «حياتي هي المسيح»، نتيجةً لتجاذبه بين قُطْبَين: استشهاد إسطفانُس وتجلّي الربّ له «في الطريق».

ثالثًا، ما هي نقاط المقارنة بين إسطفانُس وبولس؟

أ. إسطفانُس وبولس هما من الشتات ولكنَّهما ليسا بدايةً في الموقع ذاته؛ فإسطفانُس يهوديٌّ هلِّينيٌّ يتكلَّم اليونانيَّة، وهو ذو ثقافةٍ منفتحةٍ وبالتالي متحرِّرة. ربَّما اهتدى في أورشليم، ولكنَّه مختلفٌ في مسيحيَّته عن كنيسة أورشليم الملتئمة حول بطرس ويعقوب أخي الربّ. هؤلاء يحسبون يسوع مرسَلاً من عند اللَّه بمثابة ماسيًّا المنتظر لخلاص إسرائيل، وهم يحترمون التوراة ويصلُّون في الهيكل ويحفظون التوصية بعدم المشاركة في أطعمة الوثنيِّين. وبولس كان من جملة الغيورين على هذا الخطّ.

أمَّا الهلِّينيُّون، ومنهم إسطفانُس، فيفكِّرون غير ذلك. المسيحيَّة بالنسبة إليهم ليست حِكْرًا على اليهود بل هي تشمل غيرهم في التنوُّع والاختلاف. فالمسيح خالف السبت لَمَّا اقتضت ذلك سلامة الآخرين (مر ٣: ٤)، وهو ينتظر الخلاص من استتبَاب ملكوت اللَّه لا من الشريعة. ولَمَّا قلب موائد الصيارفة في الهيكل تكلَّم عن الجماعة المؤمنة كونها الهيكل الجديد (يو ٢: ١٣-٢٠).

ب. هذا الخلاف ولَّد الصراع بين بولس المتزمِّت والهلِّينيِّين الهامشيِّين «الخونة». ولكنّ العجيب هو أنّ الاستنارة كانت تحدث دومًا عن طريق الاضطِّهاد. فبولس انقلب وتحوَّل أثناء ملاحقته الشرسة «للهراطقة» بحيث غلبت الضحيَّةُ الجلاَّدَ، على مثال المصلوب «الذي ستراه كلُّ عينٍ

حتّى عيون الذين طعنوه» (رؤ ١: ٧). إنّ غيرة إسطفانُس «الخادم والشاهد» تلاقت مع غيرة بولس ووجّهتها، وكأنّ كُلاً منهما ردَّد في استشهاده: «إن الحبّ أغلى من الحياة».

ج. إسطفانُس وبولس كلاهما استُشهِد على مثال المسيح: آلامهما آلامه. وأتى الاستشهاد تتويجًا لحياتهما. وهما يلتقيان في خبرتهما الروحيّة؛ فإسطفانُس «رأى السماء مفتوحة» (٥٦:٧)، وبذلك اجتياح ملكوت اللّه للأرض؛ وبولس أسَّس لاهوتَهُ على التبرير بالإيمان قداسةً وتقديسًا. لكنّ المبادرة تأتي من اللّه، ويبقى عليهما الاختيار بقبول النعمة وتحويل الذات إلى المسيح.

إنّ الدافع الكيانيّ لعطاء ذاتهما الكامل ليصبحَا «كُلاً للكلّ» على مثال المسيح، هو فيض الحبّ الفائق الوصف والجذريّ، الذي يتمثَّل روح التطويبات (مت ٥: ٢١-٤٨)، ويتبنَّى شرعة المحبَّة (١ كو ١٣)، مدفوعًا من روح المسيح، فيحترق كلٌّ منهما بهذا الحبّ بل يتحوَّل إليه، ويُصلب فيه.

إسطفانُس وبولس عَلَمان في تاريخ الكنيسة، وقد افتدياها بالدم. بعد استشهاد إسطفانُس لجأ المؤمنون إلى فينيقية وقبرص، فنقلوا الإنجيل إلى تلك الجماعات، وبالأخصّ إلى كنيستنا في أنطاكيا «حيث دُعي التلاميذ مسيحيِّين للمرَّة الأُولى» (أع ١١: ١٩-٢٦). وأنبت قَطْعُ رأس بولس في روما، حسب التقليد، ينابيع حياة. إلى قافلة الشهود والشهداء انضمّ بولس بعد تجلّي الربّ له وتحوَّل من عدوٍّ مضطّهِد إلى رسول. وأصبحت أنطاكيا محطَّةً له في الحلّ والترحال بعد أن استدعاه برنابا من طرسوس، «وكلاهما علَّمَا جمعًا كبيرًا». في أنطاكيا غرف بولس، وهي غرفت منه وانتشرت، فدُعيت عن حقّ «أُمّ الكنائس المسكونيَّة».

خلاصة

بولس المدعوّ أصبح داعيةً ورسولاً للأُمم، بصلاة إسطفانُس، فاستحقّ أن يدخل في موكب «الذين غسلوا ثيابهم وجعلوها بيضاء بدم الحَمَل» (رؤ ٧: ١٤). فكنيسة أنطاكيا كنيسة الرسولَين بطرس وبولس، توحَّدت مع روما باستشهادهما، وتأسَّست أورشليم العروس على أسماء «رسل الحَمَل». فيها «يسكن اللّهُ معنا» (رؤ ١٢)، عمَّانوئيل، «طول الأيَّام وإلى منتهى الدهر» (مت ٢٩: ٢٠).

الأسفار البريّة والبحريّة في زمن القدّيس بولس

الخوري بولس الفغالي
باحث في الكتاب المقدّس

السفر في العالم القديم أمرٌ عرفه الكثيرون منذ عولس[١] الذي انطلق من طروادة بعد سقوطها بيد اليونان، وطالت سفرته وامرأته نبيلوبي تنتظره في جزيرة إتاكة، إلى تيزيه[٢] ذلك الملك الأسطوريّ الذي انطلق من أثينة تاركًا طمأنينة البحر، مارًّا في برزخ كورنتوس، فقيل عنه إنه قام بأعمال تعادل نصف أعمال هرقل، إلى جازون[٣] الذي صعد سفينة ومضى يبحث عن جزيرة (الصدف) الذهبيّة؛ أما بيتياس[٤] فانطلق من مرسيليا في جنوب فرنسا، ومرّ في مضيق جبل طارق، وراح بجانب المحيط الأطلسي وصولاً إلى ايسلندا في شمال أوروبا حيث النهارات تطول في قسم من السنة والليالي تطول في قسم آخر. وكانت لبيتياس مغامرة أخرى وصلت به إلى شواطئ بولندا وبحر البلطيق.

مغامرات تدلّ على الشجاعة والعناد والمخيّلة، وتتحدّى الصعاب ولا تقف في وجهها العوائق. وكانت أسفار للدرس والاستطلاع، ونذكر بعد بيتياس هيرودوت[٥] الذي انطلق لكي يتعرّف على مصر وعلى بلاد فارس. وأخيرًا كانت أسفار نستطيع أن ندعوها "السياحة الحضاريّة والثقافيّة". من أجل هؤلاء والذين جاءوا بعدهم ، ألّف باوسانياس[٦] وصفًا مفصّلاً وشرحًا عن اليونان للأشخاص الميسورين، مثل الامبراطور أدريان[٧]، الذين اهتمّوا بالحضارة اليونانيّة وثقافتها، فمضوا

(١) وصف سفره في Odyssée من لفظ يوناني ὁδος: "الطريق".
Ulysse, roi d'Ithalique. Voir J. – C. BELFIORE, *Dict. de la mythologie grecque et romaine* (cité: *DMGR*), Larousse 2003, p. 638–640. Pour l'Odyssée voir p. 1089–1090.

(٢) Thésée, Héros athénien. Voir *DMGR,* p. 614–618; *Dict. de l'Antiquité* (= *DdA*), J. LECLANT (dir.), Quadrige PUF, Paris, *2005,* p. 2182–2183; M.J. FINLEY, *Le monde d'Ulysse*, Maspéro, 1978; Cl. CALAME, Thésée et l'imaginaire athénien, Lausanne, Payot, 1996.

(٣) Jason, chef de l'épédition des argonautes. Voir *DMGR* p. 357–358; *DdA,* p. 1172–1173; J. NEILS, "Jason", in *Lexion Iconographicum Mythologiae Classicae*, 1990, p. 629–638.

(٤) بحّار انطلق من مرسيليا فوصل إلى إيسلندا. دوّن مذكّراته وبقيت منها مقاطع
J. METTE, *Phyteas. voir Massalia*, Berlin, 1952. Pour les textes de STRABON (63 av. J.C. - 25 ap. J.C.), voir *Géographie*, Les Belles Lettres, 1969 - 1981 F. SALVIAT, "Les voyages de Pythéas", in *Dossiers d'Archéologie,* no 285, 2003, p. 20–27; B. CUNLIFFE, *The Extraordinary Voyage of Pythéas the Greek*, Penguin Books, 2002; H. JOURNES et Y. GEORGELIN, *Pythéas*, La Nerthe, 2000.

(٥) HERODOTE (490–424 av. J.C.) Historien; son œuvre, *Histoires,* éd. et tr. Ph. E. LEGRAND, Paris, Les Belles Lettres, 11 vol. ⁵1970; *DdA*, p.1053–1055; C. DARBO – PESCHANSKY, *Le discours du particulier. Essai sur l'enquête hérodotéenne*, Paris, Seuil, 1987.

(٦) Périégéris, *Périégète* كاتب يوناني دوّن كتابًا هو .PAUSANIAS (20 s. ap. JC). *Le Périégète,* Périégétés περήγητης: qui conduit autour *Pausanias guide to Ancient Greece*. Berkeley, Les Belles Lettres باريس، ٢٠٠٠ ر ج περήγης فيه يصوّر العالم اليونانيّ. تُرجم في منشورات 1985 / tr. angl. O. REVERDIN et B. GRANGE (eds.), *Pausanias historien, entretien sur l'Antiquité classique*, Fondation Hardt, E. XLI, Vandœuvres Genève, 1996; Voir M. JOST, " Quand Pausanias voyageait en Arcadie", *op. cit.*, p. 28-39 *DdA,* p.1670.

(٧) أدريان أمبراطور رومة (١١٧–١٣٨). عُرف بحبّه لليونان، ولهذا قام بأسفار عديدة.

يزورون المواقع الرئيسيّة في هذه البلاد بانتظار أن ينطلقوا إلى آسية الصغرى وإلى مصر(٨).

أمّا أسفار بولس الرسول فجاءت في منظار يختلف كلّ الاختلاف عن هؤلاء المسافرين والمغامرين، ربّما بحثًا عن المعادن من ذهب وفضّة ونحاس وقصدير. فهو يسافر لكي يحمل الإنجيل على مثال البرنامج الذي وضعه الربّ للرسل: من أورشليم واليهوديّة، إلى السامرة وإلى أقاصي الأرض (أع ١: ٨). أسفار بولس كانت في الاتجاهات الرئيسيّة لانتشار المسيحيّة في الأمبراطوريّة الرومانيّة؛ فهذا الرسول جسّد التجسيد الكامل للمسافر في الزمن القديم، لأنه امتلك المعارف النظريّة والعمليّة من أجل نجاح مهمّته: الحقوق، الطبّ، اللغات (لاتينيّة، يونانيّة بالإضافة إلى العبريّة والآراميّة)، العلاقات مع أشخاص عديدين (نقرأ اللائحة في رو ١٦: ١ ي)، مهنة تتيح له أن يؤمّن حياته وحياة الفريق الرسولي (أع ١٨: ٣: صناعة الخيام مع أكيلا وبرسكلّه)، الخبرة لمجابهة الأخطار، الفهم، بُعد النظر... بفضل عمل هذا الرسول، استَطاعت المسيحيّة الأولى أن تنغرس في مختلف المدن اليونانيّة من أنطاكية وصولاً إلى كورنتوس وأثينة وتسالونيكي(٩)...

ونحن في هذا المقال، نتعرّف إلى المدن التي مرّ فيها بولس الرسول، ونرافقه في الصعوبات التي واجهَتْه خلال رسالته، كما يقول في الرسالة الثانية إلى كورنتوس. وفي القسم الثالث والأخير نكتشف ظروف السفر في البحر والبرّ بحيث نعرف ما قام به هذا الرسول في وقت كانت وسائل السفر مختلفة بين الفقراء والأغنياء، بين رجال الدولة والأفراد الذين لا يملكون سوى أرجلهم لكي يسيروا في البرّ، ويُحشَرون حشرًا في السفينة حين يكون السَفر في البحر، على مثال ما حصل لبولس في الرحلة إلى رومة وهو سجين المسيح.

١ – المدن التي بشّرها بولس

بولس (أو شاول) هو ابن طرسوس. واعتاد أن يأتي إلى أورشليم مرارًا. فله أخت في المدينة المقدّسة، وابنُها هو الذي نبّه قائد الحامية إلى المؤامرة التي تُحاك على خاله (أع ٢٣: ١٦ي). ثم هو تعلّم عند قدمَي المعلّم الكبير، غملائيل الأول (أع ٢٢: ٣). المسافة ٦٠٠–٧٠٠ كلم، وفي المشوار الذي تبدلت حياته، مضى إلى أورشليم، ومن أورشليم إلى دمشق (حوالى ٢٠٠ كلم). ومن دمشق إلى بلاد العرب، سواء في حوران (سورية) أو مملكة الأردن الحاليّة. ظنّ البعض أنّ "شاول" كان من الطبقة الأرستقراطيّة، فاعتبروه راكبًا جوادًا حين المضيّ إلى دمشق، بحيث إنّ هذا المنطلق ليقبض على المسيحيّين سقط عن الجواد "جندله" يسوع وكأنّه كان في مبارزة مع الربّ الذي انتصر عليه. نحن أهم رمز إلى ذلك الصراع بين يسوع وشاول: مَن يتغلّب على الآخر؟ لا يستطيع شاول أن يصل إلى يسوع، لهذا يحارب تلاميذه فيمنع أيًا منهم أن يتلفّظ باسم يسوع. لهذا قال له الربّ: "شاول، لماذا تضطّهدني؟" (أع ٩: ٤). ونقرأ في أع ٢٦: ١٤: "يصعب عليك أن ترفس المهماز". الجواد يَرفس ولكنّه لا يستطيع أن يصيب المهماز. من هنا اعتُبِرت هذه الصورة التي تعني استحالة المقاومة، إشارةً إلى الجواد. لا، بولس كان يسير على القدَمين مع الذين معه، شأنه شأن المشاة في الجيوش، وهو حين سقط أرضًا إنّما سقط ساجدًا أمام الربّ الذي أشعّ نوره فأعمى منه العينين.

وعاد بولس من بلاد العرب إلى دمشق حيث "سارع إلى التبشير في المجامع بأنّ يسوع هو ابن الله" (أع ٩: ٢٠). ومن دمشق مضى إلى أورشليم حيث لبث وقتًا قصيرًا قبل أن يُرحَّل إلى طرسوس، عبر مرفأ قيصريّة (آ ٣٠). ومن طرسوس جاء شاول إلى انطاكية بعد أن دعاه برنابا (٣٠٠–٤٠٠ كلم). أقام بولس مع برنابا سنة كاملة في انطاكية (أع ١١: ٢٦) التي كانت من أكبر المدن في الأمبراطوريّة الرومانيّة.

بعد هذه الخبرة في أنطاكية في

(٨) حاول أشخاص عديدون أن يسافروا في خطّ الأقدمين؛ مثلاً فكتور بيرار (١٨٦٤–١٩٣١) قام بسفرة بين سنة ١٩٢٧ وسنة ١٩٢٩، وهكذا استطاع أن يقدّم ترجمة أنيقة للأوديسه. رج: H. DUCHENE, "L'odyssée de Victor Birard en Méditerranée", *Dossiers d'Arch*, *op. cit.*, p. 12-19.

(٩) H. DUCHENE, *Le voyage en Grèce*, Bouquins, Robert Laffont, 2003; id (éd.), *Voyageurs et antiquité classique*, EUD, 2003.

تبشير اليونانيّين، لا اليهود، استعدّ شاول للانطلاق في الرسالة لا من أورشليم، تلك المدينة المنغلقة على نفسها، بل من أنطاكية الحاملة الحضارتَين الآراميّة واليونانيّة.

اعتاد الشرّاح أن يتحدّثوا عن ثلاث رحلات رسوليّة: الأولى، راح فيها شاول (بولس) وبرنابا بعد أن وُضعت عليهما الأيدي كنيسةُ أنطاكية (أع ١٣: ٣). مرًّا في عدد من المدن ثم عادًا في الطريق عينها "يشدّدان عزائم التلاميذ ويشجّعانهم على الثبات في إيمانه" (أع ١٤: ٢٢). في الرحلة الثانية رافق سيلا بولسَ بعد "مجمع أورشليم"، الذي كان حوالي سنة ٤٩. ما اكتفى الرسولان بتركيّا الحاليّة، بَل عبرًا البحر الأسود وصولاً إلى أوروبّا، بعد أن جاء مَن يقول لبولس: "أعبر إلى مكدونية وأغثنا" (أع ١٦: ٩). وبعد الرسالة في كورنتوس عاد بولس إلى أنطاكية (أع ١٨: ١٨ ي)، إلى مركز القيادة العامّة. ثم راح في رحلة ثالثة قادته أيضًا إلى مكدونية واليونان وصولاً إلى الليريكون (رو ١٥: ١٩)، وهي منطقة تمتدّ من البحر الأدرياتيكي إلى نهر الدانوب، أي ما يقابل البلدان السلافيّة، مثل يوغوسلافيا القديمة وتشيكوسلوفاكيا التي انقسمت اليوم دولتين.

انطلقت الرحلة الأولى من انطاكية فوصلت إلى جزيرة قبرص بعد إبحار من سلوكية (أع ١٣: ٤) قرابة ٤٠٠ كلم. وصل الرسولان إلى سلامين وما توقّفا فيها، بل "اجتازا الجزيرة كلّها حتّى مدينة بافوس"، أي من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، وتركا الجزيرة وأبحرا من جديد إلى آسية الصغرى. ما عادا إلى أنطاكية، بل إلى برجة في بمفيلية. هذه المدينة تبعد ١٥ كلم عن أنتاليا (أتاليا)، وقد أسّسها اليونان بعد حرب طروادة. وسارا مسافة ٢٠٠ أو ٣٠٠ كلم، فوصلاً إلى أنطاكية الواقعة اليوم في قلب تركيّا الحاليّة (يلواص). هي في بسيدية مميزًا لها عن أنطاكية الواقعة عند مصبّ نهر العاصي. وحين تُبَشَّر المدينة، تُبَشَّر القرى المحيطة بها. فقال لوقا في سفر الأعمال: "وانتشر كلام الربّ في تلك البلاد (المنطقة) كلّها" (أع ١٣: ٤٩).

كيف نتخيّل هذين الرسولَين مسافرَين؟ أمِثْلَ قوّاد في الجيش الرومانيّ. كلّ واحد له جواده يبدّله في المحطّات الموزّعة على الطرقات الرومانيّة؟ إذا كان كذلك، فكيف ينفضان "غبار أقدامهما" (آ ٥١) حين الانتقال إلى أيقونية التي تبعد عنها قرابة ٢٠٠ كلم؟ أيقونية (أو إيقونيوم) هي اليوم كونيا في تركيّا. كانت في ذلك الوقت بعض غلاطية الرومانيّة.

ولو أنّ الوصول إلى مدينة ما، كان يعطي بعض الراحة لَهَان الأمر؛ فالمسافرون الفقراء يُحشَرون في "خان" مخصّص للقوافل؛ لا ماء لغسل الأرجل، ولا رقاد بسبب الحشرات والروائح من الآتين من هنا وهناك. ولو أنّ الرسولين يُستَقْبَلان الاستقبال اللائق وهما يحملان بشرى الخلاص! هو الاضطّهاد في كلّ مكان والطرد، وكأنّهما مجرمان هاربان من يد العدالة. في أنطاكية بسيدية "اضطّهدوا بولس وبرنابا وطردوهما من ديارهم" (آ ٥٠)، حينئذ ردّدًا كلام الربّ: "إذا اضطّهدوكم في مدينة، فاهربوا إلى غيرها" (مت ١٠: ٢٣). ولكن في المدينة التالية، في أيقونية، أُعِدَّت الإهانة والرجم (أع ١٤: ٥)، فوجب الانتقال إلى لسترة التي لا تبعد كثيرًا عن أيقونية (أقلّ من مئة كلم). في أيقونية أفلت بولس من الرجم، لا في لسترة. قيل: "فرَجموا بولس وجرّوه إلى خارج المدينة وهم يحسبون أنّه مات" (آ ١٩)، بل قام ودخل المدينة، وكانت المحطّة الأخيرة دربة (كلباسان في تركيا) الواقعة بين لسترة وطرسوس. سارا قرابة ٢٠٠ كلم مع المبدأ الرسوليّ: "لا بدّ من أن نجتاز كثيرًا من المصاعب" (آ ٢٢).

هل حسبنا عدد الكيلومترات التي اجتازها الرسولان؟ يجب أن نضربها باثنين بعد أن عادا أدراجهما عبر مقاطعتَين، بسيدية وبمفيلية. وكانت النهاية في مرفأ أتالية، ومن هناك "سافرا في البحر إلى أنطاكيّة" (آ ٢٦).

مصاعب ماديّة، لا بأس. مصاعب من الخارج، لا بأس. ولكن مصاعب من الداخل! هي لا تُحتمل. جاء من يهدم الرسالة من أساسها، ويُعيد الكنيسة إلى مستوى الحركة الفريّسية،

أو في أحسن الأحوال لكي يجعلها امتدادًا للديانة اليهوديّة. فكلّ هؤلاء الوثنيّين الذين اعتمدوا باسم الربّ يسوع، يجب أن يُختَنوا. يكونون "يهودًا" في درجة أولى، ثم يُعَمَّدون. وكأنّ المعمودية لا تكفي، بل هي صارت مساعدة للختان على ما يفعل اليهود مع الوثنيّين الذين يطلبون الانتماء إلى "شعب الله" كما دَعوا نفوسهم.

جاء كلام فئة كبيرة من الكنيسة مثل زلزال على هؤلاء الذين فتح الربّ باب الإيمان لهم (آ ٢٧): "لا خلاص لكم إلاّ إذا اختتنتم على شريعة موسى" (أع ١٥: ١). هنا أُجْبِر بولس وبرنابا على الصعود إلى أورشليم للدفاع عن الرسالة. سَفَرٌ آخرَ كانَا بغنى عنه لو أنّ الجماعة "اليهومسيحيّة" قبلت منذ البداية كلام بطرس في "مجمع أورشليم": "نحن نؤمن أنّنا نخلص بنعمة الربّ يسوع كما هم يخلصون" (آ ١١). أجل، قال بطرس: "فما فرّق (الله) بيننا (نحن اليهود) وبينهم (الأمم الوثنيّة) في شيء، فهو طهّر قلوبهم بالإيمان" (آ ٩). إذاً، لا حاجة إلى الختان، وإن فُرضت بعضُ الشرائع الطعاميّة وغيرها (آ ٢٠) مراعاة لبعض المؤمنين من اليهود في الكنيسة.

تحرّر الفريق الرسوليّ وانطلق بعد أن أوصل الرسائل من أورشليم إلى أنطاكية. مئات الكليومترات، ولكنّها بدت قصيرة بالنسبة إلى الرسالة التي تنتظر؛ فمَن يستطيع أن يُوقف النار والرياح تنفحها؟ ومَن يستطيع أن يوقف بولس والروح يوجّهه من مكان إلى آخرَ؟ فبعد مرور في دربة ولسترة وأيقونية (أع ١٦: ١ي)، مرّوا بنواحي فريجية وغلاطية (آ ١٦). ولماذا لم يمرّا في آسية (الصغرى) بعاصمتها أفسس؟ "لأن الروح القدس معهم" (آ ٦ب). نعم، الروح القدس هو القائد الأعلى في الرسالة. وإذا كان يسوع وعدهم بأن الروح يعلّمهم كيف يتكلّمون (مت ١٠: ١٩-٢٠)، فهذا الروح يعلّمهم الآن كيف يتحرّكون، فيعطيهم دفعًا بعد دفع، فينسون الراحة والطعام والشراب. هو ركضٌ مسرع. قال الرسول: أحاول أن أدرك المسيح الذي أدركني. لا مجال للتوقّف، وأعمال الرسل واضح في هذا المجال؛ حتّى في السجن، بولس يواصل الرسالة، "فيبشّر بملكوت الله معلنًا بكلّ جرأةٍ وحرّيّة تعليمه في الربّ يسوع" (أع ٢٨: ٣١).

مرّة أولى منع الروح القدس الفريق الرسوليّ، ومرّة ثانية حاولوا الاتجاه إلى ميسية التي هي منطقة واقعة على حدود خليج البوسفور، والدخول إلى بثينية القريبة من برغامس. ولكن "ما سمح لهم روح يسوع" (أع ١٦: ٧). أُغلقت كلّ الطرق في وجههم، فما بقي سوى طريق واحد: ترواس. مرفأ يذكّرنا بطروادة، يقع عند مضيق الدردانيل. من هناك يجب أن يُبحروا، ونحن نعرف رمز البحر في الأدب القديم: هو يحمل الشرّ والموت. عوائق ماديّة مَنعت الفريق الرسوليّ من التوجّه إلى حيث "يفكّرون". ولكن ها هو صوت بشريّ، اكتشفوا فيه كما في هذه العوائق توجيه الروح القدس: "فلمّا رأى بولس هذه الرؤية، طلبنا السفر في الحال إلى مكدونية، متيقّنين أنّ الله دعانا إلى التبشير فيها" (آ ١٠).

قرأ المرسلون "كلام الروح" في هذه الوجهة الجديدة؛ فالكتاب المقدّس لا يهمّه السبب المادّيّ. ولكنّنا نستطيع أن نتخيّل نحن الصعوبات التي منعتهم من التبشير في آسية: ربّما كان سيل فائض فما استطاعوا عبوره، أو طريق مقطوعة. ولا ننسَ اللصوص وقطّاع الطرق. ولكن لا خوف على هؤلاء الرسل العائشين بحسب توصية الربّ: "لا تحملوا نقودًا من ذهب ولا من نحاس في جيوبكم، ولا كيسًا للطريق، ولا ثوبًا آخر، ولا حذاء، ولا عصا" (مت ١٠: ٩-١٠).

٢٠٠-٣٠٠ كلم من سفر في البحر للوصول إلى ساموتراكية، تلك الجزيرة في بحر إيجه. ومن ساموتركية حطّوا في أوروبا، وفي أوّل مدينة بلغوها: نيابوليس، المدينة الجديدة (اليوم هي كافالا) ومرفأ فيلبّي. في فيلبّي عَرف بولس السجن: "جلدوا بولس وسيلا وألقوهما في السجن" (أع ١٦: ٢٣). هاجت الجموع. اثنان غريبان يمرّان في المدينة، ليس لهما من يدافع عنهما. وبهذه الطريقة أرضى الحكّامُ الناس. أمّا هكذا فعل بيلاطس بيسوع إرضاء لليهود؟ "ليس تلميذ أفضل من معلّمه،

ولا خادم أعظم من سيّده" (مت ١٠: ٢٤). لهذا قيل عن المرسلين: "كان بولس وسيلا يصلّيان ويسبّحان الله، والسجناء يُصغون إليهما" (أع ١٦: ٢٥). "إذا عيّروكم واضطّهدوكم... إفرحوا وابتهجوا" (مت ٥: ١١، ٢٢).

وكما في آسية (الصغرى)، كذلك في أوروبّا. من فيلبّي إلى تسالونيكي مرورًا بأمفيبوليس وأبولونية (٣٠٠ كلم تقريبًا من السفر على الأقدام). تسالونيكي مدينة أسّسها أحد قوّاد الاسكندر ودعاها باسم امرأته. وأمفيبوليس (اليوم: نيوخوروي في اليونان). وقعت قرب بحيرة بولهي، على الطريق الأغناتيّة، وهي طريق رئيسيّة تصل رومة بالشرق، عليها تمرّ الجيوش والبريد الأمبراطوريّ والوفود المرسلة من رومة إلى البلدان المختلفة، وهذان الرسولان اللذان يقطعان المسافات والمسافات التي لا يمكن أن نتخيّلها.

قامت الفتنة عليهما، فأتيا إلى بيرية (اليوم: فيريا في اليونان) بانتظار الوصول إلى أثينة. ٤٠٠ كلم على الأقلّ، وانتقال من مقاطعة مكدونية إلى مقاطعة أخائية. تقريبًا اليونان كلّها من الشمال إلى الجنوب. ولكن أثينة ليست المحطّة الأخيرة في الرحلة الرسولية الثانية، بل كورنتوس التي تبعد عن أثينة قرابة ١٥٠ كلم.

وكما في الذهاب كذلك يكون في الإياب: سَفَر في البحر إلى سورية، محطّة في أفسس، ثم إبحار إلى قيصريّة "ومنها صعد (الفريق) إلى أورشليم" (أع ١٨: ٢٢).

لم يلبث بولس مدّة طويلة في أورشليم. منذ البداية رُفض، مع أنّ برنابا قدّمه إلى الجماعة، "وروى لهم كيف رأى شاولُ الربّ في الطريق إلى دمشق وكلّمه الربّ، وكيف بشّر بشجاعة باسم يسوع في دمشق" (أع ٩: ٢٧). وفي "مجمع أورشليم" عرف صعوبات نرى صداها في أنطاكية حيث قاوم بولُس بطرسَ "وجهاً لوجه" (غل ٢: ١١). وفي أيّ حال، مجيء بولس إلى أورشليم، في نهاية الرحلة الرسوليّة الثالثة، سيحمل إليه السجن وصولاً إلى الموت.

لن نطيل الكلام هنا، فنكتفي بالقول إنّ بولس، بعد أن سلّم على الكنيسة في أورشليم، نزل إلى غلاطية (أع ١٨: ٢٢)، ثم إلى غلاطية وفريجية (آ ٢٣) حيث سبق له وأسّس كنائس. في أفسس قامت الفتنة عليه (أع ١٩: ٢١ي). حينئذ ودّع التلاميذ ومضى إلى مكدونية، ثم إلى اليونان (أع ٢٠: ١ي). أراد العودة إلى سورية بطريق البحر، ولكنّه خاف من مؤامرة يهوديّة، فراح في طريق البرّ "بطريق مكدونية" (آ ٣). حطّ في تـرواس، ومضى إلى أسّوس (بهرام كالي في تركيا) على الخليج، ثمّ إلى ميتيلينة في جزيرة لسبوس. صعود إلى السفينة، نزول من السفينة، لا وقت للاستراحة ولا للتنفّس: "فلمّا لحق بنا إلى أسّوس، أصعدناه إلى السفينة وجئنا إلى ميتيلينة، ثم أبحرنا منها في اليوم الثاني، فأشرفنا على خيوس (جزيرة تجاه إزمير)، وسرنا في اليوم التالي بمحاذاة ساموس (في بحر إيجه)، ثمّ وصلنا في اليوم الرابع إلى ميليتس" (أع ٢٠: ١٤). وفي ميليتس ودّع الرسول شيوخ أفسس.

حين نقرأ هذا الخبر، نتخيّل أنّنا في رحلة استجماميّة على إحدى البواخر الفخمة. ننزل في مدينة فنزور آثارها ومواقعها، ثم نصعد إلى الباخرة فنغتسل ونستحمّ ونرتاح دون همّ في قلوبنا. كم نحن بعيدون عن هذه الصورة اليوتوبية[١٠] التي تعزلنا عن المكان والزمان. قال الرسول عن نفسه: "وهذا كلّه إلى جانب ما أعانيه كلّ يوم من اهتمام الكنائس" (٢ كو ١١: ٢٨).

ويتواصل السفر باتّجاه جزيرة كوس الصغيرة (٢٩٨ كلم مربّع) ثمّ رودس، جزيرة السيّاح في عالمنا. "ومنها إلى باترة"، المرفأ السلوقيّ في لوقية. ويتابع القدّيس لوقا: "فوجدنا هناك سفينة مسافرة إلى فينيقية، فركبناها وسرنا" (أع ٢١: ٢). قبرص، سورية، صور، قيصريّة، أورشليم.

(١٠) Utopie في اليونانية ou (لا) τοπος (مكان): هو عالم مثاليّ يبقينا على مستوى المخيّلة ولا يصل بنا إلى الواقع.

والرحلة الأخيرة إلى رومة مع صعوباتها. ومن يدري؟ ربما كانت رحلة إلى إسبانية. وزيارة الكنائس بعد أن أُطلق سراحُ بولس، لأنّ أحدًا من اليهود لم يحضر. وهكذا كتب قبل موته إلى تلميذه تيموتاوس: "أمّا أنا فذبيحة يُراق دمها، وساعة رحيلي اقتربت. جاهدتُ الجهادَ الحسن، وأتممتُ شوطي، وحافظت على الإيمان" (٢ تم ٤: ٦ - ٧).

٢- في قلب الخطر والصعوبات

ما تكلّم بولس مرّة واحدة عمّا قاساه في أسفاره، ولا هو حسب حسابات الكيلومترات التي قطعها لكي يصل إلى هذه الكنيسة أو تلك. ولكنّه أُجبر مرّةً فقال ما في قلبه. والمناسبة؟ اعتبره بعض الكورنثيّين رسولاً من الدرجة الثانية، لأنّه لم يرافق يسوع خلال حياته على الأرض، لهذا فهو يحتاج إلى "رسائل توصية" من بطرس أو يعقوب أو يوحنّا الذين يُعتَبَرون "العمد في الكنيسة" (غل ٢: ٩). وفي أيّ حال، ماذا عمل هذا الذي دعا نفسه "السقط" (١ كو ١٥: ٨) "وأصغر الرسل... لأنه اضطّهد كنيسة الله؟" (آ ٩).

عند ذاك أُجبر بولس على الكلام: هو ليس أقلّ من سائر الرسل على جميع الصعد: هم عبرانيّون، وأنا أيضًا. هم من ذرّيّة إبراهيم، وأنا أيضًا. هم خدّام المسيح. "أقول هذا كأحمق: فأنا أفوقهم" (٢ كو ١١: ٢٣).

أ- سفر في البحر

ويذكر الرسول جهاده. ونذكر نحن منه ما قال: "انكسرت بي السفينة ثلاث مرات، وقضيتُ نهارًا وليلة في عرض البحر" (آ ٢٥). فحين نقول إنّه انتقل من سفينة إلى سفينة، فليس بالأمر الهيّن: فلوقا يروي لنا حين يأتي الخطر: "ولكنّ ريحًا شرقيّة شماليّة عاصفة يُقال له أورأكيلون[١١]، ثارت بعد قليل من جهة الجزيرة وضربت السفينة؛ فلمّا تعذّر على السفينة أن تقاومها، اندفعت السفينة في مهبّ الريح" (أع ٢٧: ١٤ - ١٥). احتمى البحّارة بعض الوقت، ولكن "قويَت العاصفة في اليوم الثاني، فأخذوا يرمون الحمولة في البحر، وفي اليوم الثالث، أمسكوا أدوات السفينة ورموها في البحر. ومرّت أيام كثيرة ما رأينا فيها الشمس ولا النوْم، وبقيت الريح تعصف حتى قطعنا كلّ أمل لنا في النجاة" (آ ١٨ - ٢٠).

ولماذا هذه الحالة؟ لأنهم أبحروا في الشتاء. فبحسب علم الأرصاد الجويّة في البحر المتوسّط، ميّز الرومان بعد اليونان، بين الفصل الحلو المؤاتي للإبحار، والفصل الرديء حيث يُغلَق البحر[١٢] وتُعلّق النشاطات البحريّة. متى يُغلَق؟ في الشتاء، بلا شك. وفي الربيع والخريف بحسب السنوات. ولكنّ الخطر يبقى حاضرًا. نشير هنا إلى أنّ الملاحة بدأت تنتظم باكرًا مع الفينيقيّين ثم تبعهم اليونان، بحيث إنّ أسرار البحر صارت معروفة منذ القرن الثامن ق.م.، في البحر المتوسّط. وهذا البحر يتيح بسبب مظهره الخارجيّ من رؤوس وخلجان ومرافئ عديدة، إبحارًا يحاذي الشاطئ بحيث يدوم الإبحار بضعة أيام، وهذا ما لاحظناه في مسيرة بولس خلال الرحلة الرسوليّة الثالثة. وهكذا تتمّ كل سفرة بحريّة بشكل عامّ في أزمنة ثلاثة: إبحار بمحاذاة الشاطئ منذ مرفأ الانطلاق إلى موضع نستطيع أن نراه على الشاطئ، ويدعى الصوّة[١٣]. ثم الملاحة في عرض البحر بين صوّة وصوّة. وأخيرًا، ملاحة أخرى شاطئيّة من أجل الوصول إلى المرفأ الذي نريد. في مثل هذا النظام، وبغياب الخرائط وسائر أدوات الملاحة، استند الملاّحون إلى معرفة عميقة بالشواطئ والنجوم والرياح.

أمّا معرفة الشواطئ والأماكن التي يمكن اللجوء إليها من العواصف أو النزول فيها من أجل التزوّد بالماء

(١١) Eur-Aquilon هي ريح شرقيّة شماليّة تدفع السفينة باتّجاه أفريقيا، لا باتّجاه أوروبّا. لفظ Aquilon يعني الريح الشماليّة. أمّا ευρυς فتعني العريض الواسع.

(١٢) Mare clausum.

(١٣) تكون الصوّة على الشاطئ. Amer: point de repère pour la navigation. واليوم توضع منارة. من هنا لفظ amerissage أو النزول إلى البحر.

والطعام، فترتكز على الخبرة التي انتقلت بشكل شفهيّ قبل أن تُدوَّن في مجموعة نصائح وتوجيهات دُعيت "رحلة بحريّة"[١٤]، بانتظار الكتب الحديثة التي تُدعى "تعليمات ملاحيّة"[١٥]. أمّا أقدم مجموعة في أيدينا فتعود إلى القرن الرابع، ولكنّها تفترض وجود نماذج سابقة. وساعة تكون الضرورة بأن يبتعد قائد السفينة عن الشاطئ لينطلق في عرض البحر، كان يَجري بحسب التخمينات، فيقدّر الاتّجاه الذي يسير فيه والمسافة، مستندًا إلى النجوم والرياح. أمّا في النهار، فموقع الشمس يعطيه الاتّجاه الذي يَأخذ. كلّ هذا يرتبط بنوعيّة السفينة وتنافسيّتها. وتبقى الساعةُ الصعبة ساعةَ الوصول إلى الشاطئ، ولا سيّما إذا لم يكن خليج تنزل فيه السفينة. ذاك ما حصل للسفينة التي أقلّت بولس إلى رومة[١٦].

"وبينما كنّا في الليلة الرابعة عشرة تائهين في بحر أدريا (يفصل اليونان عن صقلية في الجغرافيا القديمة)، ظنّ البحّارة عند منتصف الليل أنهم يقتربون من البرّ. فلمّا قاسوا عمق البحر، وجدوه مئة وعشرين قدماً. ثم قاسوه بعد مسافة قصيرة، فوجدوه نحوَ تسعين قدماً. فخافوا أن تصطدم السفينة بأماكن صخريّة، فألقوا من مؤخّر السفينة أربع مراس، وترقّبوا طلوع الفجر بفارغ الصبر" (أع ٢٧: ٢٧ – ٢٩). ولكن الحمد لله أن السفينة لم تضرب بالصخور.

وهكذا يتابع لوقا وصول السفينة إلى جزيرة مالطة: "ولمّا طلع الفجر تعذّر على البحّارة أن يعرفوا إلى أي أرض وصلوا. ولكنّهم أبصروا شاطئ خليج صغير، فعزموا على أن يدفعوا السفينة إليه إذا أمكن. فقطعوا المراسي وتركوها تسقط في البحر، وحلّوا في الوقت نفسه الحبال التي تربط دفّة السفينة، ثم رفعوا الشراع الصغير للريح واتّجهوا نحو الشاطئ. ولكن السفينة اصطدمت بتلّة من الرمل بين المياه، فغرز فيها مقدّمها، وعاد لا يتحرّك. أما مؤخّرها فتحطّم من شدّة الأمواج" (أ ٣٩ – ٤١). فمن استطاع السباحة سبح. ومن تعلّق بخشبة من حطام السفينة نجا. والآخرون؟ من يدري ما يكون مصيرهم.

عُرفت السفن أقلّه منذ القرن السادس عشر ق.م. ، وتطوّرت تطوّرًا واضحًا في بداية الألف الأوّل ق.م. هناك المجاذيف في طبقة، وفي طبقتَين، وفي ثلاث طبقات. وهناك الشراع الذي لبث عاملاً حتّى اكتشاف المحرّك على البخار. هي سفن صغيرة وسفن كبيرة. تصل حمولة بعضها إلى ألف طن، وإلى ألفين. وكانت سفينة صقلّية استثنائيّة، فحملت خمسة آلاف طنّ. أما سفينة "بولس" فكان فيها ٢٧٦ نفسًا. وإذا حسبنا الطعام والمياه وسائر المعدات، يمكن أن نتخيّل ضخامة هذه السفينة. ونتذكّر هنا أنّ السفينة الحربيّة في ثلاث طبقات كانت تضمّ ١٧٠ جاذفًا وثلاثين بحّارًا، هذا يعني السرعة التي يمكن أن تسير فيها[١٧].

ب – سفر في البرّ

ويتابع الرسول كلامه إلى أهل كورنتوس: "وفي أسفاري المتعدّدة تعرّضتُ لخطر الأنهار واللصوص... وواجهتُ أخطارًا في المدن وأخطارًا في البراري" (٢ كو ١١: ٢٦). ما كفى الرسول أخطار البحر، بل عرف

(١٤) περιπλοος: périple, navigation autour.

(١٥) Instructions nautiques. L. BASCH, *Le musée imaginaire du navire antique,* Athènes, Institut hellénique pour la préservation de la tradition nautique, 1987; L. CASSON, *Ships and Seamanship in the Ancient World,* Princeton. Princeton Univ. Press, 1971.

(١٦) Voir *DdA* p. 1608–1610; P. DOMEY, *La navigation dans l'Antiquité*, Aix–en–Provence, Edisud, 1997; J. R. STEFFY, *Wooden Ship Building and the Interpretation of Schipwrecks,* College Station, Texas A & M Univ. Press, 1994.

(١٧) *DdA* p. 927-929: J. A . MORRISSON, J. COATES, and N. B. RANKOV, *The Athenian Trireme*, Cambridge, Univ Press. 2000.

أخطار البرّ. ذكر الأنهار وَالسيولَ العديدة التي قد يكون حاول العبور فيها، فجرفته مياهها. فالجسور لم تكن موجودة في كل مكان، بل بشكل خاص على الطرقات الرومانيّة الأساسيّة من أجل تنقّل الجيوش بالدرجة الأولى.

وأخطار اللصوص الذين يأخذون من المسافر الأعزل حتّى ثوبه. أمّا هذا الذي حصل لذاك النازل من أورشليم إلى أريحا كيف "وقع بأيدي اللصوص، فعرّوه وضربوه، ثم تركوه بين حيّ وميت" (لو ١٠: ٣٠). فالكتّاب القدماء يتحدّثون عن اللصوص الذين هم فقراء، يعتاشون من بعض الزراعة ورعاية غنمة أو بقرة واحدة. هكذا يستطيعون أن يقوموا بأودهم. عادةً يختبئون في الجبال والأحراج، في البراري وعند المستنقعات، ويقعون على المسافرين، ممّا جعل الناس يتحدّثون عن غياب الأمان في البلاد[١٨].

فالسفر اعتُبر منذ البداية مغامرة خطرة، بل "مغامرة مأساويّة". والمثال على ذلك عولس العائد إلى بيته، وابنه الماضي من طروادة إلى رومة عبر أفريقيا الشماليّة[١٩]. فاليونان في زمن هومير، لا يسافرون إلاّ مكرَهين، وكأنّ الإله يأمرهم بذلك. أمّا الرومانيّ في زمن الجمهوريّة، وهو الفلاّح المتعلّق بالأرض الرومانيّة، فيتصوّر السفر انقلاعًا، ولهذا فهو لا يسافر إلاّ إذا دعاه الواجب. وسوف ننتظر الحقبة الهلّنستيّة، أي بعد احتلال الإسكندر للشرق، لنرى اليونان يسافرون بفرح، بسبب الموفدين اليونان أو المستوطنات الموزّعة في الشرق. هنا تأتي أعمال اكسينوفون الأتيني (٤٢٧-٣٥٥ ق.م.) ولا سيّما "الصعود"[٢٠] من جبال فارس باتجاه البحر.

كيف كان الناس يسافرون؟ سيرًا على الأقدام. وتشير المراجع إلى غياب الراحة، وإلى صعوبة المنامة، أين يبيت المسافر عند المساء؟ في العالم اليونانيّ، يبيت المسافر في بيت من البيوت، بشكل مجّانيّ أو لا. وهكذا تُنسَج رباطاتٌ من الضيافة الفرديّة أو الرسميّة في الحواضر. ويتبادل الضيف والمضيف الهدايا. وكانت "فنادق"[٢١] في المعابد التي هي موضع التجمّعات الكبرى[٢٢]. أمّا أوّل عمارة تستقبل المسافرين فقد بناها سكّان مدينة ثيبة سنة ٤٢٧ قرب هيرايون[٢٣] كما يروي المؤرّخ توسيديد. ولعب رواق كورنتوس الجنوبيّ دور المضافة. ثمّ قُدّمت بيوتٌ كبيرة على أنّها فنادق: ڤيلاّ الحظّ السعيد في أولنتي[٢٤]، عمارة كاسوبي[٢٥]. ودُعيَ بعض المرّات بريتاينون[٢٦]، كذلك الذي

(١٨) H. MENAR D., "L"insécurité de La Rome impériale", in *Histoire urbaine. Peurs citadiines* 2 (2000) 59-71: B.D. SHAW, "Le bandit", in A. Giardina (éd), *L'homme romain*, Paris 1992, p. 371–420; C. WOLFF, *Les brigands en Orient sous le Haut-Empire,* Rome, EFR, 2003.

(١٩) Enée – Enéide, in *DMGR*, p. 217–222.

(٢٠) *Anabase* éd. P. Masqueay, 2 vols., 1931 مضى عشرة آلاف من المرتزقة اليونان لمحاربة الملك العظيم. ولكن بدت طريق العودة طويلة باتجاه البحر الأسود: سنتين.

(٢١) نزل καταγωιον : Lieu de halte, hôtellerie
Auberge, hôtellerie: πανδοκειον
Chambre réservée à l'étranger: ξενων.

(٢٢) panégrynies: جماعة كلّ الشعب، اجتماع من أجل عيد احتفاليّ (πανηγυρσις).

(٢٣) Héraion de Platées. Thucidide (٤٦٠-٦٩٣)، ق. م.، الكتاب الثالث ٦٨: ٣ (سقوط Platée بيد Thèbes).

(٢٤) Villa de la Bonne Fortune à Olynthe (anc. ville de Chalcidique près du Mont Athos).
Voir S. PSOMA, *Olynthe et les chalcidiens de Thrace. Études de numismatique et d'histoire*, Stuttgart, 2000.

(٢٥) Cassopé d'Épire (région de Grèce).

(٢٦) πρυτανειον ،عمارة للمدينة لاستقبال الضيوف.

وُجد قرب مسرح ديلوس. هي أبنية مخصّصة للنخبة. أمّا الأشخاص العاديّون فيخيّمون في الساحة. والفنادق البسيطة في المدن والمرافئ فلم تكن معروفة مثل هذه العمارات الضخمة، بل كانت بيوتًا مثل سائر البيوت في المدينة. خدمتُها خدمةُ حانة[٢٧] أو نُزُل[٢٨]. مثل هذه "النزل" لا تشرّف الآتين، إليها، ومع ذلك هم مجبَرون.

نحن لا نتخيّل بولس نازلاً في هذه "الفنادق الضخمة"، ولا في هذه الحانات. بل كان يسأل عن أهل صناعته ويقيم عندهم. ذاك ما فعل حين وصل إلى كورنتوس: جاء بولس إلى أكيلا (من أهل البنط) وامرأته برسكله، "فأقام يعمل عندهما، لأنّه كان من أهل صناعتهما، صناعة الخيام" (أع ١٨: ٢ – ٣). في فيلبّي، لا نعرف أين أقام في الأيّام الأولى مع سيلا، ولكنّ ليدية سوف تستقبلهما سريعًا: "قالت لنا راجية: أدخلوا بيتي وأقيموا فيه" (أع ١٦: ١٥). في لسترة نزل ربّما عند تيموتاوس (أع ١٦: ١) الذي كان يسكن مع جدّته لوئيس وأمّه أفنيكة (٢ تم ١: ٥).

أعلن سقراط أنه لم يترك أثينة يومًا إلاّ حين شارك كجنديّ[٢٩] في الغزوات. وأوذيسة هومير هي نشيد العودة البطوليّة، لا نشيد السفر. هذا يعني الشجاعة التي تحلّى بها بولس ورفاقه، لا سيّما وأنّ السفر يكون سيرًا على الأقدام مع هذه المسافات الطويلة. ثمّ إنّ الدابّة يمكن أن تصير سلبًا بيد اللصوص[٣٠].

٣ – السفر والأسفار

ما عرف العالَمُ القديم السياحة كما نعرفها اليوم، ولكنّ عددًا من الناس كانوا يسافرون. وما يدلّ على ذلك الرسائل، الأخبار، الكتابات على جدران المعابد، والكتب التي تدلّ المسافر على طريقه وعلى المواضع التي يحب زيارتها.

فالرومان، كما سبق وقلنا، تعلّقوا بأرضهم وما أرادوا أن يتركوها. ولكن منذ القرن الثاني ق. م.، اعتادوا على الانتقال إلى خارج بلادهم لضرورة سياسيّة أو اقتصاديّة، أو حبًّا بالسفر. وإذا أخذنا بقول بْلِين الأصغر، كان هناك بعض "التفاخر، السنوبيسم" في القيام بأسفار خارج إيطالية. كتب في بداية القرن الثاني ب.م.: "هناك أمور عديدة في رومة وفي الجوار المباشر، لم نرَه أبداً ولم نسمع به، ولكنها تُعرَف وتصوَّر وتُزاد وتنال الأعجاب إن وُجدت في اليونان، في مصر، في آسية الصغرى أو في كل موضع يجتذب الزوّار والسيّاح"[٣١].

يسافر وفدٌ من قبل رومة، أو والٍ من الولاة يرافقه الحرس...، ولكنّ هذه الأسفار صارت مناسبة لاكتشاف عالم لم يعرفوا عنه سوى ما قرأوه في الكتب. مثلاً بول–اميل قهَر برسيه ملك مكدونية في معركة فدنة[٣٢] سنة ١٦٧ ق.م.؛ وبعد ذلك قام برحلة سياحيّة إلى اليونان، "فجال في اليونان وزار جميع المواقع التي تتحدّث عنها الشهرة، ويُبرزها التقليد الشفهيّ، وتُجمّلها شهادةُ الذين رأوها"، بحسب كلام تيت ليف[٣٣] . وهكذا مضى إلى دلفي، إلى معبد أبّولون[٣٤]، وإلى هيكل جوبيتر ترو فونيوس في ليباديه[٣٥]. وراح إلى خلقيس حيث "شاهد أوريبي

(٢٧) καπελειον : خمّارة.

(٢٨) L. H. KRAYNAK, *Hostelries of Ancient Greece*, Din. Ann arbor Xuox, Univ. Berkeley 1984.

(٢٩) رج أفلاطون، Phèdre.

(٣٠) J. J. M. ANDRE et F. BASLEZ, *Voyager dans l'Antiquité,* Paris, Fayard, 1993; R. CHEVALLIER, *Voyages et déplacements dans l'Empire romain*, Paris, A. Colin, 1988; *DdA* p. 2295–2296.

(٣١) PLINE LE JEUNE (61–113 et SC), *Lettres*, VIII, 20 (éd. A. M. GUILLEMIN, *Les Belles Lettres* ,1927-1928).

(٣٢) الأسماء: Paul–Emile ثم Persée. Pydna.

(٣٣) كتب تاريخ رومة منذ البداية حتى سنة ٩ ق.م.، في ١٤٢ كتابًا أو مقالاً (بقي منها ٣٥) *Tite–Live (59 av. J.C. – 17 ap J.C.), Histoire romaine* XLV, 27.

(٣٤) Sanctuaire d'Apollon à Delphes au pied du Parnasse avec la prophétesse, la Pythie.

(٣٥) Jupiter Trophonios (celui qui mourrit) à Lébadée.

وأوباي[٣٦]؛ فأوباي هذه الجزيرة الكبيرة "ترتبط بالأرض بواسطة جسر". وزار أيضًا هيكل ديانا (إلاهة الصيد في أوليس) حيث ذُبحت إيفيجيني بيد والدها الملك أغاممنون قبل المضيّ إلى حرب طروادة. وزار أوروبوس مع "هيكلها القديم وهو موقع كلّها عذوبة بسبب الينابيع والسواقي". ومرّ بشكل خاصّ في أثينة حيث أورد تيت ليف لائحة" بالأمور التي تستحقّ الزيارة"، والتي أعجب بها بول–إميل: "القلعة، أبنية الرؤساء الكبار، تماثيل الآلهة والرجال المشهورة بتنوّع المادة والفنّ، والأسوار التي ترب پيراي بالمدينة، والأحواض التي فيها تُصنع الفن"[٣٧].

سَفَرٌ مثلُ هذا خاصّ بالعظماء، لا بالفريق الرسوليّ؛ ففي البحر لا نجد مثل هذه السفن الفخمة، ولا الخطوط البحريّة المنظَّمة كما هو الأمر اليوم. مرّات كثيرة يصعد المسافر إلى "سفينة شحن"؛ فالسعر أرخص والراحة نادرة، أو إلى "سفينة حربيّة". وهو لا يجد هناك غرفة خاصة. هو يقيم على خيمة، على جسر السفينة. يجب عليه أن يحمل طعامه وفراشه. والملاّحون لا يعطونه سوى الماء ليشرب، هذا إذا كان لا يدفع ثمنه. هذا من جهة. ومن جهة ثانية، ينتقّل المسافر مرّات من سفينة إلى سفينة بحسب الظروف. مثلاً، في رحلة بولس إلى رومة. قال الراوي: "ركبنا سفينة (آتية) من أدراميت (قريبة من تروآس) متّجهة (= راجعة) إلى شواطئ آسية..." (أع ٢٧: ٢). انطلقنا من قيصريّة، "فوصلنا في اليوم الثاني إلى صيدا" (آ ٣). توقّفٌ قصير، "ثمّ أبحرنا من هناك بمحاذاة قبرص لأنّ الريح كانت مخالفة لنا"(آ ٤). وسارت السفينة قرب شواطئ تركيا الحالية: كيليكية، پمفيلية، ميسية. "ونزلنا إلى ميناء ميرة" (آ ٥) (هي دمري في تركيا، على نهر ميرو المشهور بجمال موقعه). هنا يجب الانتقال من سفينة إلى سفينة. سجناء مربوطون بالجنود.

"فوجد القائد يوليوس سفينة من الإسكندريّة مسافرة إلى إيطالية، فأصعدَنا إليها، وسارت بنا السفينة ببطء عدّة أيام" (آ ٦–٧). كانت النقليّات مؤمَّنة بعض الشيء، لأنّ مصر كانت ترسل قمحها إلى إيطالية.

أمّا السفر في البرّ فهو في متناول الإنسان العاديّ، مع الطرقات الرومانيّة بجسورها وبالمحطّات التي يتوقّفون فيها. وكان "البريد" ينقل الموظّفين والجنود الكبار، ولا يحقّ له أن ينقل الأفراد ولو دفعوا المال. فالقانون يعاقبهم. "البريد" وحده يعطي الأمان في السفر. لهذا يحاول المسافر أن يؤمّن على حياته، فيرافق إحدى "القوافل" الرسميّة "من بعيد لبعيد". ومن يدري؟ ربّما استفاد بولس من هذا الوضع، فحدّث الناس عن المسيح، كما فعل فيلبّس الذي سار قرب مركبة وزير ملكة الحبشة (أع ٨: ٢٦ ي).

وأين يبيت المسافر؟ فإن هو بات في موضع ما، لا يستطيع أن يبقى أكثر من ثلاثة أيام. ومن هنا القول المأثور: "الضيف مثل السمك، بعد ثلاثة أيام بتطلع ريحتو"، أي يجب أن يترك المكان. ولكن ما العمل إذا كان "المسافر لا يستطيع أن يسافر"؟ أين يُقيم؟ في العراء؟ أو يبحث عن موضع آخر يستضيفه. ولا ننسَ أنّ المضافات كانت غالية الثمن، فكيف للفريق الرسوليّ الذين قالوا عن أنفسهم إنهم "فقراء"، إنّ "لا شيء لهم" (٢ كو ٦: ١٠)، أن ينزلوا حيث ينزل الأغنياء؟

هذا إذا كان السَفر في الصيف. أمّا في الشتاء، فالصعوبات والأخطار تتكاثر. تحدّثنا عمّا حصل لبولس ورفاقه حين أبحروا في الشتاء، وكيف تحطّمت سفينتُهم قرب مالطة. في هذا

(٣٦) Chalcis. هناك Euripe. رأيي Euripe et Eubée ، أمّا مضيق (بضعة عشرة أمتار) يفصل جزيرة Eubée (أكبر جزر اليونان بعد كريت) عن أرض اليونان، وسوف نذكر Aulis.

(٣٧) A. SARTRE–FAURIAT, "Voyages et voyageurs en Orient dans l'antiquité romaine", in *Dossiers d'Arch.*, no 285 p. 40–53, ici p. 40–42. Polybe parle aussi du voyage de Paul–Émile dans le Péloponnèse. Id.: "Hadrien et les voyages dans l'Orient Grec", *Dossiers d'Arch.*, no 2711 (avril 2002) 46-53.

قال سينكيا، الفيلسوف الرومانيّ: "الإنسان سريع العطب، وهو لا يحتمل كلّ سماء" (بغيومها وشتائها). وهناك صعوبات أخرى يعرفها الغريب: يرفضه أهل البلد إذا كان من عِرق آخر، يسلبه، يقتله ولا من يدافع عنه. أمّا بولس فعرف بشكل خاصّ عداوة اليهود التي لاحقته من مدينة إلى مدينة، بل فرضت عليه مرّة أن يبدّل طريقه فيمضي في البرّ لا في البحر درءًا للخطر. منذ الانطلاقة الأولى، اليهود هم هنا. في أنطاكية بسيدية "اضطّهدوا بولس ورفاقه وطردوهم من ديارهم" (أع ١٣: ٥٠). في أيقونية استعدّوا لأن يرجموا المرسلين (أع ١٤: ٥). في لسترة، كان الرجم (آ ١٩). ولم يكن الأمر أفضل في تسالونيكي (أع ١٧: ٥ ي) وفي بيرية (آ ١٣). ونتخيّل أسفار بولس في مثل هذه الظروف، هذا مع العلم أنّ "الجمارك" توزّعت على الطرقات، فيؤخذ من المسافر ما يمكن أن يرغب فيه "الموظّف الرومانيّ"، أو هو يدفع ويدفع، والويل له إن كان لا يحمل المال.

بعد مثل هذه المحن، يعود المسافر الذي قطع المسافات الشاسعة في البرّ والبحر إلى بلده مثل "بولس" رجلاً علّمته الخبرةُ الكثيرَ، علّمته الفطنة والحذر بحيث يستطيع أن يعلّم قائد السفينة. ذاك ما فعله بولس حين نصح "القبطان". قال: "كان يجب أن تسمعوا لي فلا تُبحروا من كريت، فتسلَموا من هذه الأخطار والخسائر" (أع ٣٧: ٢١). الجميع خافوا، ارتعبوا. حاول البحّارة أن يهربوا على القوارب. والسجناء؟ بل نقتلهم لئلاّ يُفلتوا. تحلّى الرسول بالشجاعة وبُعْد النظر، فرتّب الأمور: "لن يفقد أحد منكم حياته، إلاّ أنّ السفينة وحدها تتحطّم" (آ ٢٢)، "فأناشدكم أن تتشجّعوا"[٣٨].

قال العديدون إنّ بولس هو الذي فتح الطريق أمام المرسَلين في جميع العصور. علّمهم كيف يكتشفون البلاد التي ينطلقون إليها. في الظاهر أسفاره لم تختلف عن أسفار الوجهاء في عصره؛ فهو لا يسير حيث الآخرون، بل يترك الفضول يفعل فعله. مثلاً، مضى إلى ليكونية، إلى "برابرة" يتكلّمون لغة لا يعرفها اليونان. وفي مالطة، كانت مغامرة خاصّة. ما بدا بولس "مبتدئًا" في فنّ السفر، بل عارفًا كلّ المعرفة؛ ففي الرحلة الرسوليّة الثانية، بدّل طريقه مرّتين ليمضي في النهاية باتجاه أوروبّا، ولكن هو عمل الروح.

تحدّث سفرُ الأعمال عن "قيادة الروح القدس". ولكنّ الروح يعمل معنا ويستفيد من مواهبنا. وكذا نقول في الرحلة إلى رومة. بدا هو قائدَ السفينة، أمّا القائد الرسميّ فبدا متقلّبًا لا يدري ماذا يعمل ولا كيف يتوجّه. في النهاية "رفعوا الشراع الصغير للريح" (أع ٢٧: ٤٠). إلى أين هم ماضون؟ لا يعرفون. أمّا بولس فيعرف: "في هذه الليلة جاءني ملاك من إلهي الذي أعبده وقال لي: لا تخف، يا بولس! فلا بدّ لك أن تحضر لدى القيصر" (آ ٢٣).

مسيرة بولس "محدّدة"، لا في المعنى المادّيّ، بل الروحيّ: انتقال من العالم اليهودي إلى المشرق الهلّينيّ. انطلاق من آسية إلى أوروبّا عبورًا في البحر ومخاطره. وفي النهاية، ترك العالم اليونانيّ وتوجّه إلى رومة عاصمة الأمبراطوريّة التي منها سينطلق ليصل إلى اسبانية، كما قال في الرسالة إلى رومة. هَمُّ هذا الرسول أن يصل الإنجيل إلى كلّ مكان: البحر الأسود، هناك كان عمود أوّل يُسند الأرض. وفي جبل طارق (مضيق هرقل) العمود الثاني. وفي الليريكون حيث حدود العالم اليونانيّ؛ فهذا الذي لا يريد أن يبني على أساس غيره، ما أراد أيضًا أن يترك بقعة لم تصل إليها البشارة.

حين "سافر" بولس، نظّم أسفاره بحسب اتجاهات مهّد لها. ما كان ذلك المغامر الذي يترك الطريق تقوده. لا شكّ في أنّه توقّف في غلاطية دون أن يريد، لأنّ المرض أقعده. ولكنّه مع ذلك استفاد من هذا الظرف لكي

(٣٨) A. M.–F. BASLEZ, "Précarité et insécurité à l'épreuve du voyage", *Dossiers d'Arch.*, no 285, p. 64–69.

يحمل الإنجيل إلى هذه المنطقة الجبليّة الوعرة. ولا كان ذاك الدارس والباحث عن الأمور الجديدة، ولا عن الآثار التي تركها الأقدمون. فتنقّلاته في آسية الصغرى واليونان اتّخذت شكل "الدورة" التقليديّة التي نعرفها اليوم. في الرحلة الأولى، انطلق من أنطاكية وعاد إلى أنطاكية. أرسلته الجماعة وزوّدته، فعاد وقدّم تقريرًا عن الرسالة: "كيف فتح الله باب الإيمان للأمم"! (أع ١٤: ٢٧). وكذا نقول بالنسبة إلى أورشليم.

سَفَر بولس من أجل الرسالة. وهو يسير خطوة خطوة ويعرف أن يتكيّف مع الظروف. بدأ فمضى إلى قبرص مراعاة لبرنابا ابن تلك الجزيرة. بعد ذلك، راح في آسية الصغرى. وتروي أعمال بولس وتقلا (المنحولة) أنّ برنابا عاد إلى قبرص على أثر الخلاف بينه وبين بولس. أخذ الطرق الرومانيّة، ونزل حيث الأصحاب يستقبلونه. مضى إلى المدن ومنها شعّ: من أفسس شعّ في آسية الصغرى. من كورنتوس بشّر أخائية... وفي النهاية حين صار شيخًا، خفّف الأسفار كما فعل في أفسس حيث لبث ثلاث سنوات. فالسَفَر هو في خدمة الرسالة وليس العكس، وإلاّ تحوّل الرسول إلى كشّاف في رحلة علميّة على مثال ما يفعل الباحثون الذي يمضون إلى القبائل البدائيّة[٣٩].

الخاتمة

ما كان بولس في أورشليم ليبقى معتزلاً فيها يأتي كلّ يوم إلى الهيكل مثل الرسل (أع ٣: ١). ولا كان من أثينة ليسجن نفسه كما فعل سقراط، ولا كان من رومة ليشابه سينيكا أو شيشرون. هو من الشتات اليهوديّ، والسَفَرُ في دمه. لا يستطيع أن يتوقّف عن الانطلاق. وفي كلّ سفرة يفتح آفاقاً جديدة، مثل موج البحر الذي يتقدّم ويتقدّم حتى يصل إلى الشاطئ. ولماذا يخاف من السفر وهو متعدّد اللغات: اليونانية، اللاتينية، العبرية، الآرامية؟ ولماذا يخاف وهو ابن الجامعة الطرسوسيّة التي فتحته على الفلسفة والشعر، فاجتاح الأثينيّين في عقر دارهم، وهناك كلّمهم عن الإله المجهول؟ مع اليهود هو يهوديّ يعرف الشريعة وتفاسيرها، ومع الأمم هو أمميّ. عرف القوانين الرومانيّة فدافع عن نفسه، وعرف بعضَ الطبّ الذي مارسه في مالطة. وتكيّف مع المجموعات المختلفة. في فيلبّي، لا مجمع لليهود، فمضى إلى شاطئ النهر. في أنطاكية بسيدية عددٌ كبير من اليهود، فمضى إليهم. في أثينة، وقف في الأريوباغوس، في السفينة حمل الإنجيل، وكذلك على الطرقات الطويلة، فشابه المسيح الذي صوّره الإنجيليّون حاضرًا في المجمع، في البيت، في الساحة العامّة، في الهيكل. لا مكان مغلقًا على الإنجيل. وفي النهاية، مَن سافر؟ لا شكّ بولس. ولكن في عمق أعمال الرسل هي "الكلمة" مضت من أورشليم فوصلت إلى أقاصي الأرض، وهي تتواصل، مع أنّ بولس وُضع في السجن، ومات بقطع الرأس على طريق أوسيتا... ولا شيء يوقفها حتّى مجيء المسيح الثاني.

(٣٩) M. – F. BASLEZ, "Saint Paul a-t-il inventé le voyage missionnaire", *Dossiers d'Arch.*, no 285, p. 70–75; Id, *Saint Paul*, Paris, Fayard, ²1999; F. BLANCHETIERE, *Les premiers chrétiens étaient-ils missionnaires?*, Paris, Cerf, 2002.

بولس إن اعترف

(١ تم ١: ١٢-١٧)

الأب ميلاد الجاويش ب.م.

باحث في الكتاب المقدس

بولس، وأمثاله من بعده، إن كتبوا فلا يكتبون إلاّ ذاتهم. وكلماتهم لا يستعيرونها من خزائن الأدب المغبّرة بل من ماضيهم الحيّ، من لحمهم ودمهم. هم لا يَصفّون التعابير الواحد تلو الآخر اعتباطًا أو سعيًا وراء بلاغة، بل بعنايةٍ فائقة ووعي تامّ، لأنَّ ما يُكتب إنّما هو شخصهم وحياتهم وخبرتهم. إذا كان هذا القول يصحّ في مطوّلات بولس اللاّهوتيّة، كالتي في رسالة روما، أو في مجادلاته العنيفة، كالتي في غلاطية، أو في توجيهاته الكنسيّة، كالتي في كورنثس الأولى، فكم بالحريّ يصحّ في وقفاته الوجدانيّة التي فيها يقف لينظر إلى الوراء ويقرأ ماضيه، ليس ماضيه "الجسديّ" المادّي والتاريخيّ، بل ذلك "الروحيّ" الذي من صنع الله.

في الرسالة الأولى إلى تيموثاوس، قلّما يقف بولس وقفات وجدانيّة كتلك التي في ١: ١٢-١٧؛ فبينما تكثر مثل هذه الاعترافات في الرسالة الثانية إلى تيموثاوس[1]، لا يقع قارئ أختها الأولى على نصوص "اعترافيّة"، على النحو الأوغسطينيّ، إلاّ هنا، وذلك لأنّ نصوصها في أغلبها هي ذات نكهة توجيهيّة وتنظيميّة تطال شرائح مختلفة من الكنيسة: الأساقفة، والشيوخ، والشمامسة، والنساء، والأرامل والعبيد. بين هذه النصوص التي تكثر فيها الأفعال بصيغة الأمر، يأتي نصّنا كواحة يستظلّ القارئ تحت فيئها، ويسافر مع بولس في رحلة إلى الماضي البعيد، لا بل إلى أعماق نفسٍ تنكشف بخفاياها وسجاياها. ما يُكشَف هنا هي "أنا" تنسكب شفّافة رقراقة من دون زغل ولا زيف.

كيف كتب بولس ماضيه؟ وفي أيّ سياق؟ ولأيّ هدف؟ ماذا يبغي رسولٌ شيخ لا تفصله عن "الرحيل" (٢ تم ٤: ٦) سوى خطوات قليلة، من أن يستحضر ماضيًا بعيدًا وأن يُعيد فتح صفحةٍ من حياته طواها الزمن؟

سياق النصّ

بعد التحيّة المعتادة (١ تم ١: ١-٢)، يُودِعُ بولس تلميذَه تيموثاوس "وصيّة" مهمّة (آ ٣، ٥)، وهي أن يقوم بتحذير مؤمنيّ أفسس من بعض الذين يهوون المجادلات والنقاشات الفارغة حول الشريعة وغرضِها، فيُثيرون بذلك منازعات لا تخدم "تدبير الله الذي في الإيمان" (آ ٤)، ويقاومون "التعليم السليم" (آ ١٠) بتعليمهم "الآخر" (آ ٣). ثرثارو الشريعة هؤلاء كانوا يواجهون بولس أينما حلّ، ويعارضون تعليمه أينما بشّر، ويلاحقونه حتّى صاروا كظلّه، ويطعنون بـ"إنجيله" وبأصالة رسوليّته، مع أنّه لم يكن يأتي عملاً إلاّ "وفق" (κατα) الإنجيل (آ ١١)، و"عن قلب طاهر وضمير سليم وإيمان صادق" (آ ٥). لذا ما انفكّ بولس يذكّر دومًا بأنّ ما يبشّر به، إنّما هو إنجيل يسوع المسيح نفسه، "إنجيل مجد الله المغبوط" الذي،

(١) رج ٢ تم ١: ٣-٥، ١١-١٢؛ ٢: ٩؛ ٣: ١٠-١١؛ ٤: ٦-٨، ١٦-١٨.

وفي وقت محدّد من حياته[٢]، "ائتُمنَ عليه" على نحوٍ نهائيّ (آ ١١). وبما أنّه استذكر ذلك الوقت المحدّد، فلا بدّ من أن يشكر الربّ على تلك اللحظة المباركة على طريق دمشق التي غيّرت مصير حياته (أع ٩). تشكّل آ ١١ إذًا جسر عبور بين ما سبق وما سيأتي. لقد مهّدت كلمة "إنجيل" لما سيعترف به بولس لاحقًا. لعبارة "إنجيل" (ευαγγελιον) على بولس وقعٌ سحريّ. إنّها من الكلمات المفاتيح في لاهوته. ليس هنا فقط يدفعه الدفاع عن الإنجيل إلى استذكار بداياته، بل نجد الأمر نفسه يتكرّر في اعتراف غلاطية (غل ١: ١١-٢: ١٤). هناك أيضًا كان الإنجيل هو المحرّك للعودة إلى الماضي: "أعلمكم أيّها الإخوة بأنّ البشارة التي بُشّرتُ بها ليست على سنّة البشر" (غل ١: ١١؛ رج ٢: ٥، ١٤).

وإذا كان بولس يعاكس بماضيه ثرثاري الشريعة، فتلميذه تيموثاوس يخالفهم كذلك، وبماضيه أيضًا. هذا ما نقرأه في الآيات التي تلي نصّنا: هو تلميذ جدير بأن يستودعه بولس وصيّته، كونه وفيًّا للنبوّات التي قيلت بحقّه، ويجاهد أحسن جهاد بإيمان وضمير سليم (آ ١٨-٢٠).

المشهد إذًا اتّضح: خصوم بولس يثرثرون ويتلهّون بالمجادلات والأنساب التي لا طائل فيها، وهو لا يتكلّم سوى على ماضيه الذي عمل فيه الربّ بقوّة، لا ماضيه فقط، بل يستذكر أيضًا ماضي تلميذه وما فيه من استعدادات حسنة.

النصّ[٣]

"١٢ أوَدّي شكرًا للذي قوّاني المسيح يسوع ربّنا،

لأنّه عدّني أمينًا إذ أقامني لخدمة، ١٣ أنا الذي كان من قبلُ مجدّفًا مضطَّهِدًا عنيفًا، لكنّي رُحمتُ لأنّي كنتُ أفعل ذلك عن جهل، في عدم الإيمان،

١٤ وفاضت نعمة ربّنا مع الإيمان والمحبّة التي في المسيح يسوع.

---

١٥ صادق القول وجدير بكلّ قبول، أنّ المسيح يسوع جاء إلى العالم ليخلّص الخطأة، الذين أوّلهم أنا،

١٦ لكنّي لأجل ذلك رحمت، لكي يُظهر المسيح يسوع فيّ أوّلاً كلّ أناة، [فأكون] مثالاً للمزمعين أن يؤمنوا به في سبيل الحياة الأبديّة.

---

١٧ لملك الدهور الذي لا يفسد ولا يُرى الإله الواحد إكرامٌ ومجد إلى دهر الداهرين. آمين.

لا تخفى على القارئ النجيب أقسام النصّ، وذلك بسبب توازي الآيات والتعابير في ما بينها:

آ ١٢أ مقدّمة: الشكر للمسيح يسوع المقوّي

آ ١٢ب-١٤: الدافع الأوّل للشكر

- لأنّه عَدَّ بولس أمينًا، هو الذي كان من قبلُ مجدّفًا مضطَّهِدًا عنيفًا (١٢ب-١٣أ)،

+ لكنّه رُحم، لأنّه فعل ما فعله عن جهل وفي عدم الإيمان، وفاضت عليه نعمة الربّ مع الإيمان والمحبّة التي في المسيح يسوع (١٣ب-١٤)

(٢) هذا ما يوحيه فعل "آمن"، في آ ١١، الذي أتى بصيغة الماضي البسيط (aoriste).

(٣) ترجمة شخصيّة أمينة قدر الإمكان للنصّ اليونانيّ.

آ ١٥-١٦: الدافع الثاني للشكر
- بولس أوّل الخطأة (١٥)
+ لكنّه رُحم، لأجل أن يُظهر المسيح يسوع فيه أوّلاً كلّ أناته، وليكون مثالاً للذين سيؤمنون (١٦)

آ ١٧ خاتمة: الإكرام والمجد لملك الدهور

إفتتاحيّة شُكر (آ ١٢أ)

تُعتبر هذه الآية كمقدّمة لما يلي، لأنّ رفع الشكر يشير في أماكن كثيرة إلى بداية مقطع جديد[٤]. "أوْدّي شكرًا" (χαριν εχω) عبارة مرادفة لفعل "أشكرُ" (ευχαριστω) الذي يستعمله بولس مرارًا[٥]، غير أنّها تتميّز عنه كونها تعبّر عن عاطفة شكر متواصلة وليست عابرة. وهي تأتي غالبًا، كما هنا، مع "لأن" (οτι)، لتحديد دافع الشكر[٦]. "خاريس" تعني أيضًا "نعمة"، وهي من أحبّ التعابير إلى قلب بولس[٧]. في نصّنا ترد أيضًا في آ ١٤، لتضفي على المعنى بُعدًا علائقيًّا: بولس يؤدّي "الشكر" للمسيح، الذي سبق وأفاض عليه "نعمته". إنّه تبادلٌ يليق بمؤمن حقيقيّ. الربّ يبادر دومًا بوهب العطيّة، والإنسان ما عليه إلاّ أن يؤدّي الشكر لله على كلّ ما يهبه إيّاه.

والشكر هنا يرفعه بولس نحو المسيح "الذي قوّاه" (ενδυναμωσαντι). الفعل "قوّى"[٨] (ενδυναμοω) هنا هو اسم فاعل بصيغة الماضي البسيط، الصيغة التي تشير إلى حدث معيّن من التاريخ. لبولس خبرة رائعة مع هذا الفعل، إذ يستعمله لمرّات ثلاث في سياق تذكارات شخصيّة، وفي سياق الحديث عن الثبات في التجارب والضيقات والشدائد[٩]. ندخل مع هذا الفعل حقلَ بولس الحميم: ها هي صورٌ كثيرة تتلاحق في ذهنه، وتقفز إلى ذاكرته خبرات كثيرة عاشها في وسط الصعاب والشدائد، وكيف أنّ الله قوّاه عليها وخلّصه منها كمِن فم الأسد: "لكنّ الربّ كان معي وقوّاني لتُعلَن البشارة عن يدي على أحسن وجه ويسمعها جميع الوثنيّين، فنجوت من شدق الأسد" (٢ تم ٤: ١٧). وفي فيلبّي نراه ينشد نشيدًا للمسيح الذي يقوّيه في العسر واليسر، في الشبع والجوع (في ٤: ١٣). الفاعل إذًا هو الله، إلاّ في مرّة واحدة حيث الفاعل هو بولس نفسه: "وكان شاول يتقوّى أكثر..." (أع ٩: ٢٢). بالنسبة إلى بولس، تتجلّى قوّة الله وتكمل في الضعف: فكلّما كان الرسول ضعيفًا كلّما كان قويًّا في الله (٢ كو ١٢: ٩).

دافع الشكر الأوّل (آ ١٢ب-١٤)

أ- لأنّه "عدّني أمينًا"

"لأنّه عدّني أمينًا"، أو "مؤمنًا". كلّها ترجمات ممكنة للنعت "بيستون" (πιστον). الجدير ذكره هنا أنّ كلمة "بيستيس" (πιστις) ومشتقّاتها تجتاح النصّ كلّه: بولس كان عائشًا في "عدم الإيمان" (εν απιστια، آ ١٣)، وفي لحظة محدّدة من الماضي[١٠]، جعله الله "مؤمنًا"، "أمينًا"، "جديرًا بالثقة" (πιστον، آ ١٢)، وأفاض عليه المحبّة مع "الإيمان" (πιστεως، آ ١٤)، لذلك فإنّ كلمته، أي بشارته، هي "أمينة" و"جديرة بالقبول" (πιστος، آ ١٥)، لأنّ الله سبق ورحمه بنعمته وجعله مثالاً للمؤمنين أن "يؤمنوا" به (πιστευειν، آ ١٦).

(٤) رج رو ١: ٨؛ ١ كو ١: ٤؛ في ١: ٣؛ كول ١: ٣؛ ١ تس ١: ٢؛ ٢: ١٣؛ ٢ تس ١: ٣؛ ٢ تس ٢: ١٣؛ فل ٤؛ ٢ تم ١: ٣.
(٥) رج رو ١: ٨؛ ٧: ٢٥؛ ١كو ١: ٤، ١٤؛ ١٤: ١٨؛ إلخ.
(٦) رج رو ٦: ١٧؛ ٢ كو ٨: ١٦؛ ٩: ١٥؛ ٢ تم ١: ٣؛ عب ١٢: ٢٨.
(٧) ترد كلمة "خاريس" ١٠٠ مرّة في الرسائل البولسيّة، مقابل ٥٥ مرّة في باقي العهد الجديد.
(٨) يرد ٦ مرّات عند بولس من أصل ٨ في كلّ العهد الجديد.
(٩) هنا وفي في ٤: ١٣، و٢ تم ٤: ١٧.
(١٠) هنا أيضًا يأتي فعل "عدّني" (ηγησατο) في صيغة الماضي البسيط.

هنا أيضًا المبادرة تأتي من الله. لأنّ الله كلّيّ الرحمة، بادر إلى كشف ذاته لبولس وجعله يؤمن به: "أدلي برأيي كرجل جعلته رحمة الربّ أمينًا" (١كور ٧: ٢٥). الأمانة صفة أساسيّة يجب أن تتأمّن في شخص الرسول: "جلّ ما يُطلب من الوكيل أن يكون أمينًا" (١ كو ٤: ٢). سبق لبولس أن قال في النصّ السابق إنّه "ائتمن" (بصيغة المجهول επιστευθην) على البشارة، أي أنّ الله نفسه سلّمه وديعة الإنجيل (آ ١١)[١١].

جعل الله بولس مؤمنًا، لكن من أجل ماذا؟ "من أجل خدمة" (εις διακονιαν). التعبير هنا نكرة غير معرّف. في أماكن أخرى يتكلّم بولس عن "خدمتي" (رو ١١: ١٣؛ ١٥: ٣١)، وعن "خدمة الموت" (٢ كور ٣: ٧) التي تعاكس "خدمة الروح" (٢ كور ٣: ٨)، وعن "خدمة البرّ" التي تناقض "خدمة الدينونة" (٢ كو ٣: ٩). وفي مكان آخر، ينصّب نفسه سفيرًا "لخدمة المصالحة" (٢ كو ٥: ١٨). ومن المعلوم أنّ هذا التعبير يكون أحيانًا اصطلاحًا بمعنى خدمة الفقراء مع ما تقتضيه من خدمة الموائد وتوزيع الطعام ولمّ المساعدات الماديّة[١٢]. لكن لماذا هنا هي غير معرّفة؟ لأنّ سياق النصّ يفرض ذلك. فبولس يشكر الله لأنّه أقامه على "خدمة" –لا تهمّ طبيعتها!– كان غير أهلٍ لها، هو الذي كان يُعمل في الكنيسة اضطّهادًا وعنفًا. أيًّا تكن هذه الخدمة، صغيرة أم كبيرة، متواضعة أم عظيمة، فهو كان غير مستحقٍّ لها. "خدمة" بولس هنا هي طبعًا مجمل بشارته، وعمله الذي ائتمنه الله عليه. طالما افتخر بولس بأنّه مجرّد خادم، "خادم الله" (٢ كور ٦: ٤)، و"خادم عهد جديد" (٢ كور ٣: ٦)، و"خادم الإنجيل" (أف ٣: ٧؛ كول ١: ٢٣)، و"خادم الكنيسة" (كول ١: ٢٥). رسوليّته إنّما هي خدمة وليست سلطة (٢ كور ٣: ٣؛ ٨: ١٩–٢٠)، كان دائمًا يعدّ نفسه "أصغر الرسل" (١ كور ١٥: ٩)، و"عبدًا" ليسوع المسيح (راجع عناوين رسائله).

ب– "أنا المجدّف والمضطهِد العنيف"

في آ ١٣–١٤ تتواصل دوافع الشكر. هناك دوافع أخرى توازي هذه الأوّلى وهي في آ ١٥–١٦. تعابير مترادفة تتقابل: اضطهاد، عنف، افتراء/خطيئة؛ وأخرى متشابهة تتكرّر: رُحمت/رُحمت، من قبلُ/أوّل، عدم الإيمان/سيؤمنون.

في آ ١٣، يستذكر بولس بتعابير قاسية مرحلة قاسية من حياته، كان فيها مضطّهِدًا للكنيسة. في أمكنة أخرى من رسائله استذكر أيضًا هذه المرحلة[١٣]، غير أنّ هذه المرّة هي الأولى التي يطلق فيها على نفسه لقب "مجدّف" (βλασφημον)، مع أنّ التعبير هذا يرد في العهد الجديد خمس مرّات. في الرسالة الثانية إلى تيموثاوس، يُدرج بولس "المجدّفين" ضمن لائحة أصحاب الرذائل (٢ تم ٣: ٢)، الذين جابه كثرًا من أمثالهم أثناء تبشيره بين اليهود (أع ١٣: ٤٥؛ ١٨: ٦). لكنّ تجديفه الذي يتكلّم عليه الآن يجب أن يُقرأ مع ما اعترف به هو نفسه أمام الوالي فسطس، عندما قال: "وكثيرًا ما عذّبتُهم متنقّلاً من مجمع إلى مجمع لأحملهم على التجديف" (أع ٢٦: ١١). التجديف ليس فقط ألاّ يؤمن الإنسان بالله، بل أن يسير مسلكًا يناقض تمامًا إرادة الله، في أقواله كما في أعماله. إنّه نوع من الإقفال التامّ في وجه روح الله (مر ٣: ٢٩). التجديف الذي كان عليه بولس جعله في الضفّة الأخرى، حيث نعمة الله تنعدم، ضفّة العنف والقتل وعدم الإيمان بابن الله[١٤].

الصفة التي ترافق بولس أكثر من

(١١) رج أيضًا: ١ كو ٩: ١٧؛ غل ٢: ٧؛ ١ تس ٢: ٤؛ تي ١: ٣.
(١٢) رج رو ١٢: ٧؛ ١ كو ١٦: ١٥؛ ٢ كو ٨: ٤؛ ١١: ٨.
(١٣) رج أع ٢٢: ٣–٥؛ ٢٦: ٩–١٢؛ ١ كو ١٥: ٩؛ غل ١: ١٣–١٤، ٢٣؛ في ٣: ٦.
(١٤) بعد قليل سيتكلّم بولس على حالة همنايس والاسكندر اللّذَين "أسلمهما إلى الشيطان ليتعلّما الكفّ عن التجديف" (١: ٢٠).

صفة التجديف، هي صفة "المضطَّهِد" (διωκτην، آ ١٣). يتحدّر هذا النعت من فعل "ذيوكو" (διωκω)، ويعني أصلاً "لحق بـ"، "تبع"، وتوسّعًا "لاحق"، "اضطَّهد". هو من أكثر الأفعال التي يستعملها بولس عندما يتكلّم على ماضيه العنيف[١٥]. كان عملُ شاول يقضي بملاحقة المسيحيّين من مدينة إلى أخرى والتنكيل بهم وجرّهم إلى السجون كي يحملهم على التجديف ونكران اسم المسيح. لهذا عندما حانت ساعة توبته على طريق دمشق، طنّت في أذنَيه كلمات يسوع: "شاول، شاول، لِمَ تضطهدني؟" (أع ٩: ٤).

ليس هذا فقط، بل هو يعترف أيضًا أنّه كان "عنيفًا" في اضطّهاده (υβριστην، آ ١٣). يرد هذا اللفظ مرّتين فقط في العهد الجديد، والاثنتان عند بولس، هنا وفي رو ١: ٣٠، حيث يرد أيضًا ضمن لائحة أصحاب الرذائل، ويُترجم أحيانًا بـ"مفترٍ"، و"شتّام"، و"مهين"[١٦]. في الاعترافات الأخرى، استعمل بولس استعارات أخرى كي يصف العنف الذي كان عليه. ففي أع ٢٢: ٤ يقول: "اضطَّهدتُ تلك الطريقة حتّى الموت" (θανατου αχρι)؛ وفي مكان آخر يستعمل كلمة "كثيرًا" (πολλα) ليصف مقاومته اسم يسوع الناصريّ (أع ٢٦: ٩)، وكلمة "بإفراط" (περισσως) ليصف سخطه الشديد على المسيحيّين (أع ٢٦: ١١). وفي غل ١: ١٣، اعترف بأنّه سعى إلى "تدمير" (فعل πορθεω) كنيسة الله، و"بلا رحمة" (υπερβολην). طبعًا لا ننسى هنا تعبيرًا طالما استعمله بولس في هكذا سياق، ويرتبط غالبًا بالفعل "ذيوكو"، وهو تعبير "زيلوس" (ζηλος) ومشتقّاته: "الغَيرة" على الدين، وهي الحميّة التي دفعته إلى أن يتّخذ موقفًا حاسمًا للدفاع عن مرتكزات الدين اليهوديّ[١٧].

الغَيرة أصلاً مكوّنٌ أساسيّ في شخصيّة اليهوديّ (رو ١٠: ٢)، خصوصًا في عصر ما بعد الجلاء إلى بابل (سنة ٥٨٧ ق.م.)، وهي انعكاس لغَيرة الله نفسه، "الإله الغيور"[١٨]. والغَيرة تقضي بأن يحافظ المؤمن بكثير من الحماس على أسس الديانة اليهوديّة (عبادة الله الواحد، الشريعة، الهيكل، العهد...)، تلك التي تجعل من اليهود شعبًا مميَّزًا عن الشعوب المحيطة به. و"الغيور" لا يتوانى في استعمال القوّة والعنف إذا اقتضى الأمر ذلك، تمامًا كأبطال إسرائيل القدماء "الغَيارى"[١٩]. والقوّة لا تُستعمل ضدّ مَن هم في الخارج فحسب، بل إذا لزم الأمر ضدّ أبناء الدين الواحد. لهذا لم يكن أسلوب بولس العنيف ضدّ المسيحيّين، وبالتحديد ضدّ الهلّينيّين منهم، سوى وجهٍ من أوجه غَيرته على دينه. لماذا التركيز على المسيحيّين الهلّينيّين بالتحديد؟ لأنّ هؤلاء اليهود "الليبراليّون الجدد" هم "حدود" إسرائيل مع الخارج، وهم الأجدر في تصدير اليهوديّة إلى العالم الوثنيّ وتعريض أسس الديانة إلى الخطر، خطر الانفلاش والانفلات، فينتفي عندئذٍ تميُّز إسرائيل عن باقي الشعوب.

لكنّ مخطّط الله كان له كلمة أخرى: "كبح الله فيه هذه الحميّة الحمقاء، وأخذ يهدّئ أمواج هذه الثورة المتأجّجة"[٢٠]. فعندما ارتدّ بولس إلى المسيحيّة فَهِمَ أنّ دعوته الأساسيّة هي في أن يكون رسول الأمم،

(١٥) رج أع ٢٢: ٤؛ ٢٦: ١١؛ ١كو ١٥: ٩؛ غل ١: ١٣، ٢٣؛ في ٣: ٦.
(١٦) رج مت ٢٢: ٦؛ لو ١١: ٤٥.
(١٧) رج أع ٢٢: ٣؛ غل ١: ١٤؛ في ٣: ٦.
(١٨) رج مثلاً خر ٢٠: ٥؛ ٣٤: ١٤؛ تث ٤: ٢٤؛ ٥: ٩؛ ٦: ١٥.
(١٩) في تاريخ اليهوديّة هناك أبطال عديدون عُرفوا بغَيرتهم: شمعون ولاوي ابنا يعقوب (تك ٣٤: ٢٥-٣١)، فنحاس بن أليعازر (عد ٢٥: ٦-١٣؛ سي ٤٥: ٢٣)، إيليّا (١ مل ١٨؛ سي ٤٨: ٢؛ ١ مك ٢: ٥٨)، ياهو (٢ مل ١٠: ١٦)؛ إخوة يهوذا المكّابيّ (١ مك ٢).
(٢٠) يوحنّا الذهبيّ الفم، **تقاريظ القدّيس بولس**، العظة الرابعة، ٢.

وذلك لكي يُكمل ما منع هو نفسه من إكماله عندما اضطَّهد المسيحيّين الهلّينيّين: "على طريق دمشق، اكتشف بولس خطأه الفادح، خطأ اضطّهاده المسيحيّين الهلّينيّين. وارتداده إنّما هو عودة إلى منطقهم هم: عليه أن يفعل ما كان الذين اضطَّهدهم خطأً يفعلونه. عليه أن يُمسك الراية ويرفعها عاليًا، تلك التي سعى جاهدًا إلى أن ينتزعها من أيدي مواطنيه اليهود، وأن يشرّع الباب الذي حاول قبلاً أن يغلقه بنحوٍ عنيف"[٢١]. بعد حدثِ الشام إذًا، انتقل فعل "اضطَّهدَ" من اسم الفاعل إلى اسم المفعول؛ فمن يهوديّ مضطَّهِد، أمسى بولس مسيحيًّا "مضطَّهَدًا" (١ كو ٤: ١٢؛ ٢ كو ٤: ٩؛ غل ٥: ١١)، ومفترًى عليه (أع ١٤: ٥؛ ١ تس ٢: ٢).

كلّ هذا حدث "من قبلُ" (προτερον ،آ ١٣)[٢٢]، وكأنّ هذه المرحلة تنتمي إلى ماضٍ سحيق دفنه بولس في قبر وختم عليه بالحجر. بولس الآن في آخر أيّامه، وقد مضى وقت طويل على تلك المرحلة، و لم يبقَ منها إلاّ الذكرى والعبرة. كان يومها عائشًا في "عدم الإيمان"، وما عملَه، عملَه "عن جهل" (αγνοων، آ ١٣)، إذ لم يكن يدري ما يعمل، أو بأحسن حال كان يظنّه عملاً حسنًا. ذلك الإنسان هو "الإنسان القديم"، وقد تبدّل كلّيًّا بنعمة الله.

ج- "لكنّي رُحمتُ"

لكنّ بولس "رُحمَ" (آ ١٣). الرحمة الإلهيّة، الأمر لها. يأتي فعل "رحم" (ελεεω) هنا بالماضي البسيط وبصيغة المجهول. إنّه المجهول الإلهيّ، الذي تدخّل في وقت معيّن في حياة بولس على طريق دمشق وقلَبَها رأسًا على عقب. نجد تشابهًا مُلفتًا بين نصّنا وآخر في ١ كو ٧: ٢٥: "أدلي برأيي كمَن رُحم من الربّ [وذلك] بأن يكون أمينًا" (ως ηλεημενος υπο κυριου πιστος ειναι). موضوعان مشتركان: الرحمة والأمانة. القصّة إذًا قصّة رحمة إلهيّة وليست قصّة سعي وإرادة وجهد إنسانيّ محض (رو ٩: ١٦). إن نُصِّب بولس خادمًا، فليس لأجل استحقاقات شخصيّة أهّلته لهذا المنصب، بل برحمة من الله: "وأمّا وقد أُعطينا تلك الخدمة رحمة، فلا تفتر همّتنا" (٢ كو ٤: ١؛ رج أيضًا تي ٣: ٥). ما يكتبه بولس هنا إنّما هي تجربته الشخصيّة وليس مجرّد تنظير لاهوتيّ. لاهوته هو تاريخه، وتاريخه منسوج بخيوط رحمة الله الحرّة. الله كلّيّ الحرّيّة في أن يرحم من يشاء: "أرحم من أرحم وأرأف بمن أرأف" (رو ٩: ١٦؛ خر ٣٣: ١٩).

د- "وفاضت النعمة"

"الرحمة" وحدها لا تكفي لتصف مفهوم الخلاص عند بولس، فهناك أيضًا "النعمة" (χαρις)، وهي من أكثر التعابير في العهد الجديد بولسيّة. يقول في آ ١٤: "وفاضت نعمة ربّنا مع الإيمان والمحبّة التي في المسيح يسوع". الفعل اليونانيّ المركّب "إيبربليونازو" (υπερπλεοναζω) لا يرد إلاّ هنا، ويعني "فاض"، "تزايد كثيرًا". النعمة لم تكثر في بولس فحسب[٢٣]، بل فاضت، وفي الفيض غزارة ومجّانيّة. نعمة الله أحاديّة الجانب، لا ردّ عليها لأنها تُعطى بمجّانيّة خالصة. وإن ردّ الإنسان، فجوابه يكون شكرًا[٢٤]. في العهد القديم نجد تعبيرَين هما في أصل

(٢١) James D. G. DUNN, *La teologia dell'apostolo Paolo*, Introduzione allo studio della Bibbia, Supplementi 5, Paideia, Brescia 1999 (pour la traduction italienne), p. 355.

(٢٢) أمر لافت في النصّ هو تكرار عبارات "من قبلُ" (προτερον)، و"أوّل" (πρωτος، آ ١٥)، و"أوّلاً" (πρωτω، آ ١٦)، وجميعها من جذر واحد.

(٢٣) الفعل البسيط "بليونازو" (πλεοναζω)، والذي يعني "كثُرَ"، يستعمله بولس ٨ مرّات (رو ٥: ٢٠؛ ٦: ١؛ ٢ كو ٤: ١٥، إلخ). أمّا الفعل المركّب فيشدّد أكثر على معنى الفيض مع عبارة υπερ. يحبّ بولس كثيرًا استعمال الأفعال المركّبة مع عبارة υπερ، وجميعها لا ترد إلاّ مرّة واحدة في العهد الجديد: υπερπερισσευειν (رو ٥: ٢٠؛ ٢ كو ٥: ٤)، υπεραυξανειν (٢ تس ١: ٣)، υπερβαινειν (١ تس ٤: ٦)، υπερεκτεινειν (٢ كو ١٠: ١٤)، υπερνικαν (رو ٨: ٣٧)، υπερεντυγχανειν (رو ٨: ٢٦)، υπερυψουν (في ٢: ٩).

(٢٤) في تلازُمِ الشكر مع النعمة رج: رو ٦: ١٧؛ ٧: ٢٥؛ ١ كو ١٥: ٥٧؛ ٢ كو ٢: ١٤؛ ٨: ١٦؛ ٩: ١٥، إلخ.

كلمة "خاريس": "حِسِد" (חסד) و"حِن" (חֵן). والاثنان يعبّران عن عطيّة توهَب من شخص أعلى إلى آخر أدنى[٢٥]. وفي تطبيقهما على علاقة الله مع الإنسان (المعنى الديني)، لا يفترضان التبادل، لأنّ الله يهب نعمته بمجّانيّة خالصة من دون أن ينتظر جوابًا من الإنسان[٢٦]. بينما السبعينيّة تترجم "حِن" بـ"خاريس"، و"حِسِد" بـ"إيليوس" (ελεος)[٢٧]، يفضّل بولس استعمال كلمة "خاريس" على "إيليوس"[٢٨]، لأنّ قرّاءه اليونانيّين يفهمون جيّدًا معنى هذه الكلمة لكثرة استعمالها في ذلك الوقت. كانت تعني لهم: "نعمة"، و"حظوة"، و"معروف"، و"لطف"، و"جمال".

في الواقع إنّ لاهوت بولس حول النعمة يشكّل بناءً ضخمًا له ميزاته وتعابيره الخاصّة. فلأنّ "خاريس" نعمة من الله مجّانيّة، نرى بولس يربطها غالبًا مع كلمة "عطيّة" (δωρεαν) أو فعل "أعطى" (διδωμι)[٢٩]؛ ولأنّها ديناميّة خلاص تغيّر وتبدّل الإنسان، وليست حالة فحسب، نرى بولس يربطها أيضًا مع تعابير مثل "قوّة" أو "روح"[٣٠]؛ ولأنّ الله وحده هو مصدرها، لا نراها تأتي في الجمع بل دائمًا في المفرد؛ ولأنّ الله، كما هنا، يُغدقها دائمًا بوفرة، نراها ملتصقة بأفعال تحمل كلّها معنى الفيض والكثرة والغنى[٣١]. ولأنّ نعمة الله تكثر في الأغلب في البدايات، أي في اللحظة التي تجاوب فيها المؤمنون مع الإنجيل وآمنوا بيسوع المسيح، تأتي أغلب الأفعال الملتصقة بها في صيغة الماضي البسيط. هكذا تكون بداية المؤمن قرارًا حاسمًا وواعيًا يحتّم عليه تغييرًا في المسلك والعلاقات. وبما أنّ بدايات بولس كانت عنفيّة، لهذا نرى أنّه قليلاً ما يتذكّر تلك المرحلة من دون أن يلحقها فورًا بموضوع نعمة الله التي خلّصته من ماضيه المؤلم[٣٢]. ففي ١ كو ١٥: ٩-١٠ يقول: "إنّي أصغر الرسل ولستُ أهلاً لأن أُدعى رسولاً، لأنّي اضطهدتُ كنيسة الله، **وبنعمة الله** ما أنا عليه، **ونعمته** عليّ لم تذهب سدى... وما أنا جهدتُ، بل **نعمة الله** التي هي معي". طالما ركّز بولس على مبادرة الله في الخلاص: "الله خلّصنا ودعانا دعوة مقدّسة، لا بالنظر إلى أعمالنا، بل وفقًا لسابق تدبيره والنعمة التي وهبت لنا في المسيح يسوع منذ الأزل" (٢ تم ١: ٩). لم يكن لبولس أن ينهض من كبوة العنف والاضطّهاد من دون هذه النعمة الإلهيّة، حتّى أمسى وليد النعمة، لا غيرها: "بنعمة الله أنا ما أنا" (ειμι ὁ ειμι). نعمة المسيح القائم من الموت هي التي بادرت وخلّصته، لا نعمة الشريعة وأعمالها وثرثراتها.

دافع الشكر الثاني (آ ١٥-١٦)

تتوازى الآيات ١٥-١٦ مع التي قبلها؛ فبدل الكلام على الاضطهاد والتجديف والعنف (آ ١٣)، يعترف بولس بأنّه أوّل الخطأة (آ ١٥)، غامزًا بذلك من قناة ماضيه العنيف. وفي

(٢٥) رج تك ٦: ٨؛ ١٨: ٣؛ ٣٩: ٢١؛ خر ٣: ٢١؛ إس ٢: ٩، ١٧، إلخ.

(٢٦) "حِسِد" بمعناها الدنيويّ تفرض أحيانًا تبادلَ المعروف. رج مثلاً تك ٢١: ٢٣؛ يش ٢: ١٢، ١٤؛ ٢ صم ٢: ٥.

(٢٧) ما عدا في إس ٢: ٩، ١٧، حيث "حِسِد" مترجمة بـ"خاريس".

(٢٨) ترد "إيليوس" ١١ مرّة فقط في الرسائل البولسيّة.

(٢٩) راجع رو ٣: ٢٤؛ ٥: ١٥، ١٧؛ ٢ كور ٩: ١٥؛ غل ٢: ٢١؛ أف ٣: ٧، ٨؛ ٤: ٧؛ "النعمة المعطاة" في رو ١٢: ٣، ٦؛ ١٥: ١٥؛ ١ كو ١: ٤؛ ٣: ١٠؛ غل ٢: ٩؛ أف ٣: ٧؛ ٢ تم ١: ٩.

(٣٠) مثلاً ٢ كو ١٢: ٩؛ أف ٣: ٧.

(٣١) أفعال مثل περισσευω (رو ٥: ١٥، ١٧؛ ٢ كو ٤: ١٥؛ ٨: ٧؛ ٩: ٨)، وπλεοναζω (رو ٥: ٢٠؛ ٦: ١؛ ٢ كو ٤: ١٥)، وυπερβαλλω (٢ كو ٩: ١٤؛ أف ٢: ٧)، وتعبير πλουτος (٢ كو ٨: ٩؛ أف ١: ٧؛ ٢: ٧؛ كول ٣: ١٦؛ أف ٣: ٨).

(٣٢) لا يستعمل بولس مفهوم التوبة بتعابيره الكلاسيكيّة للكلام على تغيير المسلك إلاّ لمامًا: ثلاث مرّات مع فعل επιστρεφω (٢ كو ٣: ١٦؛ غل ٤: ٩؛ ١ تس ١: ٩)، ومرّة واحدة مع كلمة μετανοια (رو ٢: ٤) ومرّتين مع كلمة αφεσις (رو ٤: ٧ مستشهدًا بالمزمور ٣٢: ١؛ كول ١: ١٤). فهو يفضّل استعمال تعابير الإيمان والنعمة.

الجهتَين، يتكرّر الفضل للرحمة الإلهيّة التي جعلت من بولس مثالاً للذين سيؤمنون، بدل أن يكون في ضفّة عدم الإيمان (آ ١٤ و١٦).

أ- "ليخلّص الخطأة وأنا أوّلهم"

يبدأ هذا القسم بعبارة خاصّة بالرسائل الرعائيّة: "صادق القول وجدير بكلّ قبول"[٣٣]، وهي عبارة تمهيديّة تشبه تلك التي ردّدها يسوع مرارًا: "الحقّ الحقّ أقول لكم"، وهدفها أن تعطي وزنًا لما سيقال. وما يقال هنا هو التعليم "الرسميّ" – إذا صحّ التعبير – أي "كلام الإيمان والتعليم الحسن" (١ تم ٤: ٦)، و"الأقوال السليمة أقوال يسوع المسيح" (٦: ٣)[٣٤]. أن ينادي بولس بهذا التعليم، فهذا يضعه في خانة مضادّة مع الذين يعلّمون "تعليمًا آخر" (١: ٣)، الذين سبق وأوصى تيموثاوس أن يحذر منهم.

غير أنّ ما يقوله بولس ليس أبدًا تعليمًا تنظيريًّا بل شهادة حيّة، شهادة تصدر عن إنسان اختبر ما يقول. نعمة الخلاص التي يتكلّم عليها كان هو بالذات "أوّل" من اختبرها في حياته: "المسيح يسوع جاء إلى العالم ليخلّص الخطأة الذين أوّلهم أنا" (آ ١٥). هذا هو التعليم الصحيح، وهو كلاسيكيّ بامتياز. أوّلاً، لأنّه يحدّد يسوع المسيح على أنّه "الآتي" المنتظَر[٣٥]، أي أزليّة وجوده؛ وثانيًا، لأنّه يحدّد غاية مجيئه إلى العالم، وهي خلاص الخطأة[٣٦]. لاهوتان عابران للعهد الجديد. ووجودهما هنا على لسان بولس، قد يشيران إلى أنّ الرسول يستشهد هنا بترنيمة معروفة ومنتشرة جدًّا بين الكنائس، خاصّة تلك المتأثّرة بلاهوت يوحنّا، كما تشير إلى ذلك الإحصاءات أدناه[٣٧]. في أكثر من مكان تشدّد الرسائل الرعائيّة على البُعد الخلاصيّ السوتريولوجيّ لمجيء المسيح إلى العالم (١ تم ٢: ٦؛ تي ٢: ١٤).

ولكن ما يميّز نصّنا هنا هو البعد الشخصيّ للخلاص: "الخطأة الذين أوّلهم أنا". في الكنيسة الأولى، وقبل أن يهتدي بولس إلى الإيمان، لم يكن بعدُ قد مرّ في سماء الكنيسة خاطئ بحجمه، "خاطئ مخلّص"، على حسب تعبير توما الأكوينيّ. إذًا هو "الأوّل زمنيًّا ونمطيًّا"[٣٨]. وإذا كان "أوّل" الخاطئين، فهو بالتالي "أوّل" المخلَّصين. نقول هذا لأنّ كثيرين يسجّلون على بولس كلامه الدائم على الخطيئة وعلى كونه خاطئًا. في هذه الملاحظة شيء من الحقيقة، لكن ينقصها أمر جوهريّ كي لا تُرمى في سلّة الملاحظات الخاطئة: بولس إنسانٌ خاطئ، نعم، لكنّه خاطئ مبرَّر بنعمة الربّ: "حيث كثرت الخطيئة فاضت النعمة" (رو ٥: ٢٠). لم يتكلّم على الخطيئة كخاطئ بل كمبرَّر، ولا لأجل الخطيئة بل ليُظهر عملَ النعمة، فيه أوّلاً وفي كلّ مَن يؤمن. فبدل أن يكون كلامُه نعيةً في الخطيئة، أمسى على العكس نشيدًا في رحمة الربّ ونعمته.

ب- من جديد "لكنّي رُحمت"

بولس بكلّ أبعاده هو وليد النعمة، النعمة التي تخلّص. لذلك نراه يُعيد من جديد ويذكّر بلا ملل بأنّه "رُحم"، جاعلاً من آ ١٦ في توازٍ جميل مع آ ١٣ب. والرحمة التي نالها بولس لها

(٣٣) πιστος ο λογος، رج ١ تم ٣: ١؛ ٤: ٩؛ ٢ تم ٢: ١١؛ تي ٣: ٨. أمّا αποδοχη، ومعناها "قبول" و"تصديق"، فلا ترد في الكتاب المقدّس إلاّ هنا وفي ١ تم ٤: ٩ (هناك عبارة مشابهة في أع ٢: ٤١).

(٣٤) يتكرّر في الرسائل الرعائيّة هذا التشديد على صحّة التعليم. راجع أيضًا ٢تيم ١: ١٣؛ ٢: ١٥؛ ٤: ٢؛ تي ١: ٣، ٩؛ ٢: ١، ٧.

(٣٥) رج مت ١١: ٣؛ ١٨: ١١؛ ٢١: ٩؛ يو ١: ٩، ١١؛ ٣: ٢، ١٩، ٣١؛ ٥: ٤٣؛ ٦: ١٤؛ ١٠: ١٠؛ ١٢: ١٣، ٤٧، ١٤: ٢٨؛ ١٨: ٣٧؛ عب ١٠: ٣٧؛ ١يو ٤: ٢، إلخ.

(٣٦) رج مت ١: ٢١؛ ١٨: ١١؛ مر ١٠: ٤٥؛ لو ٩: ١٠؛ يو ٣: ١٧؛ ١٢: ٤٧، إلخ.

(٣٧) C. SPICQ, *Saint Paul. Les épîtres pastorales*, études bibliques, Gabalda, Paris 1947, p. 42.

(٣٨) رج بولس الفغالي، **الرسالة الأولى إلى تيموثاوس**، الرابطة الكتابيّة، بيروت ٢٠٠٠، ص ٥١.

هنا هدف، وهدفها لا ينحصر في البُعد الشخصيّ الذي يطال شخص بولس فقط، بل يتعدّاه ليخصّ الجماعة الكنسيّة ككلّ: رُحم بولس ليكون (ινα) مَثلاً (υποτυπωσις) للمزمعين أن يؤمنوا. أصبح بولس قدوة لأنّ الله أراد من خلاله أن يبيّن للمؤمنين وسع أناته على كلّ خاطئ. لهذا يستعمل بولس فعل "إنذيكنيمي" (ενδεικνυμι) ليصف عمل يسوع: لكي "يُظهر" و"يبيّن" و"يبرهن" طول أناته فيه (قارن مع رو ٩: ١٧)[٣٩]. القصّة إذًا قصّة برهان. كيف؟ إذا رحم الله بولسَ، أوّل الخاطئين تاريخًا وخطرًا، فكيف لا يرحم مَن هم دونه خطيئة؟ رحمة الله تشمل إذًا الجميع. لنقرأ هنا ما كتبه القدّيس يوحنّا فم الذهب حول هذا الموضوع: "تمثّلوا مدينة تعجّ بالسكّان، مؤلّفة فقط من أناسٍ أردياء، الواحد أردأ من الآخر، وجميعهم يستحقّون الدينونة والحكم. غير أنّ واحدًا منهم استحقّ أقسى عقاب، لأنّه تجاوز حدود الشرّ. فإنْ جاء إعلانٌ يقول إنّ الملك يريد أن يسامح الجميع، لا يصدّقون حتّى ينالَ المجرمُ الأكبر غفرانه. عندئذٍ لا يعودون يشكّون. هذا ما يقوله لنا بولس... حين نلتُ الغفران لي، لا يُسمح للآخرين أن يخافوا... وحين سامح الربّ ذاك، دلّ على أنّه لا يُعاقب الآخرين"[٤٠].

ورحمة الله تنبع من طول أناته. وطول الأناة (μακροθυμια) صفة من صفات الله المحبّة في العهدَين القديم والجديد[٤١]. وهي تعبّر عن "طول نفَسِه"[٤٢] في تعامله مع الخاطئين، أي بطأ غضبه عليهم، ومع كلّ ما يغيظه. يطلقها بولس هنا على المسيح لا على الله[٤٣]، لأنّه طالما اعتبر أنّ ما فعله في الماضي كان يمسّ بالأخصّ المسيح وجسدَه الذي هو الكنيسة: "شاول، شاول، لماذا تضطّهدني؟" (أع ٩: ٤). "الضحيّة تغفر بدل أن تطلق العنان لغضبها"[٤٤]، وهذا برهان على صبر المسيح اللاّمحدود، لأنّ "المحبّة نفسها تصبر" (١ كور ١٣: ٤).

خاتمة تمجيد (آ ١٧)

كما الشكر في البداية (آ ١٢)، كذلك التمجيد في الختام (آ ١٧). صلاة بولس تكتمل: شكر وتمجيد. سفرة إلى لماضي كهذه، شخصيّة إلى أبعد الحدود، يليق بها أن تُختم بصلاة تمجيد، كما يروق لبولس أن يفعل مرارًا لا سيّما في الرسائل الرعائيّة[٤٥]. في العهد الجديد كلّه، ما عدا مت ٥: ٣٥ ورؤ ١٥: ٣، لا يُطلَق لقب "الملك" على الله إلاّ في الرسائل الرعائيّة: هنا "ملك الدهور"، وفي ٦: ١٥ "ملك الملوك". الله ملكٌ أبديّ، يملك على جميع الأجيال والدهور (رج مز ١٤٥: ١٣). هو يناقض تمامًا الأمبراطور الرومانيّ، نيرون الذي كُتبت الرسالة على أيّامه وغيره من الذين ألّهتهم الثقافة الرومانيّة وملّكتهم على الكون كلّه (*Imperator mundi*). الله يفوقهم في كلّ شيء بما لا قياس له. فهو "غير فاسد" (αφθαρτος)[٤٦]، أي لا يموت، و"وحده لا يموت" (٦: ١٦)،

(٣٩) فعل ενδεικνυμι ومشتقّاته ενδειξις وενδειγμα بولسيّة بامتياز. ما عدا عب ٦: ١٠، ١١، التي تدور هي أيضًا في فلك بولس، فإنّ جميع استعمالاتها ترد فقط عند بولس. رج مثلاً: رو ٩: ١٧، ٢٢؛ ٢ كو ٨: ٢٤؛ أف ٢: ٧.

(٤٠) نقلاً عن بولس الغنالي، **الرسالة الأولى إلى تيموتاوس**، ص ٥٢.

(٤١) رج خر ٣٤: ٦؛ عد ١٤: ١٨؛ مز ٨٦: ١٥؛ ١٤٥: ٨؛ يون ٤: ٢؛ رو ٢: ٤؛ ٩: ٢٢؛ ١ بط ٣: ٢٠؛ ٢ بط ٣: ٩.

(٤٢) هذا ما توحيه العبارة في العبريّة "إرخ أبّيم" (ארך אפים).

(٤٣) لا يُطلق هذا اللّقب على المسيح إلاّ هنا وفي ٢ بط ٣: ١٥. أمّا الباقي فعلى الله (راجع الملاحظة أعلاه رقم ٤١).

(٤٤) C. SPICQ, *Saint Paul. Les épitres pastorales*, p. 43.

(٤٥) رج رو ١١: ٣٦، ١٦: ٢٧؛ غل ١: ٥؛ في ٤: ٢٠؛ أف ٣: ٢-٢١؛ ١ تم ٢: ٥-٦؛ ٣: ١٦؛ ٦: ١٥-١٦؛ ٢ تم ٢: ١١-١٣؛ ٤: ١٨.

(٤٦) هذا اللّقب انحصر استعماله في الكتاب المقدّس بثلاثة: سفر الحكمة (حك ١٢: ١؛ ١٨: ٤)، رسائل بولس (رو ١: ٢٣؛ ١ كو ٩: ٢٥؛ ١٥: ٥٢)، ورسالة بطرس الأولى (١بط ١: ٤، ٢٣؛ ٣: ٤).

أيضًا في تناقض تامّ مع الأباطرة الرومان الذين ادّعوا الخلود (*æternitas imperii*). لهذا الله وحده، لا لغيره، يليق المجد والإكرام. وعلى الطريقة العبريّة، يختم بولس بـ"آمين"، خاتمة–ختم تبنّتها واسعًا الليتورجيّة المسيحيّة[٤٧].

خاتمة

في الكنيسة أشخاص قلائل يحملون تاريخهم على راحاتهم ويمشون. بولس كان من طينة هؤلاء. كان الأوّل، في الطليعة، والسبّاق، ومن بعده كثيرون لحقوا به. فإذا تكلّم هؤلاء، فإنّما يتكلّمون عمّا هم عليه، وعمّا كانوا، وعمّا صنعت بهم رحمة الربّ ونعمته. لاهوتهم مستلّ من تاريخهم، لأنّهم يقاربون كلّ المواضيع من زاوية تجربتهم الشخصيّة. هذه هي خبرة بولس مع مفاهيم عديدة: مع مفهوم الخلاص والنعمة واليهود والأمم... ومع يسوع المسيح نفسه: "لاهوت بولس لم يولد من رحم تمرين عقليّ (...) جوهر لاهوت بولس هو اختباره المباشر لنعمة الرب"[٤٨]. لم يشدّد في إنجيله على قيامة المسيح إلاّ لأنّه اختبرها هو أوّلاً. وبالقوّة نفسها لم يستفض في الحديث على الخطيئة إلاّ لأنّه "أوّل الخاطئين". ولم يكن ليستلذّ في الحديث على رحمة الربّ المجّانيّة لو لم يُرحَم هو بمجّانيّة خالصة. لهذا لا يملّ حتّى آخر حياته من التغنّي بمراحم الربّ ومن رفع الشكران إليه والتمجيد.

ربَّ قائلٍ يعترض: هذا الاعتراف في ١ تم ١: ١٢–١٧ ليس لبولس نفسه، بل لأحد تلاميذه، أو لمدرسته اللاّحقة، وقد كُتب بعد مماته بعشرات السنين. إنّ هذا الاعتراض لدليل إضافيّ على ما قيل: لقد حفظَ التقليد اللاّحق، أتلميذًا منفردًا كان أم تيّارًا كاملاً، صورةً لا تُمَّحى عن بولس: ذلك الرجل العنيف الذي رحمه يسوع، والذي من أجل ذلك ما انفكّ، حتّى آخر رمقٍ من حياته، يشكره على نعمة الإيمان والخلاص. لم تخجل مدرسة بولس بما كان معلّمُها عليه، بل نراها تفتخر بما صنع فيه الربّ، وتنصّبه "مثالاً" لها ولكلّ الذين سيؤمنون بيسوع المسيح.

(٤٧) رج: ١ كو ١٤: ١٦؛ غل ١: ٥؛ ١ تم ٦: ١٦؛ عب ١٣: ٢١؛ ١ بط ٤: ١١؛ ٥: ١١؛ رؤ ٧: ١٢، إلخ.

(٤٨) James D. G. DUNN, *La teologia dell'apostolo Paolo*, p. 194.

بولس الرسول الثالث عشر والأفضل في الكنائس

في فكر الكنيسة السريانيّة

د. باسيل عَكُّولة

مدير أبحاث سابق في المعهد الوطنيّ للبحث العلميّ في باريس – الكولّيج دي فرانس

أستاذ اللغات القديمة المقارَنة والأديان القديمة في جامعة القديس يوسف – بيروت

وُلدت الكنيسة السريانيّة من أحشاء الوثنيّة الشرق–أوسطيّة، فكانت بعد اليهوديّة وقبل الإسلام الوريثة والناقلة للحضارات القديمة التي نشأت وترعرعت في هذه المساحة الجغرافيّة، وجاء أهلها إلى الدِّين الجديد يحملون إرثًا حضاريًّا لغويًّا كبيرًا يمتلك أدبًا وافرًا ورفيعًا نشأ وترعرع في ما بين النهرين والساحل الفينيقيّ، تدلّ عليه الملاحم والأساطير التي وصلتنا في نصوص مقطعيّة أو أبجديّة مسماريّة من المدن السومريّة والأكّديّة والبابليّة والأشوريّة والكنعانيّة، مثل أوغاريت (رأس شمرا) على الساحل السوريّ قبل أن ترثها الآراميّة في القرن السادس ق. م.، عندما استَبدل البلاط الأخمينيّ بصورة رسميّة البابليّةَ بالآراميّة، جاعلاً إيّاها لغة المراسلات والدواوين.

وفي بداية القرن الرابع ق. م. نشأ وضع سياسيّ جديد لم يكن مألوفًا في هذه المنطقة، عندما احتلّ الإسكندر المقدونيّ، في ما احتلّه من أراض، سورية والعراق، وأنتج حضورًا استعماريًّا كبيرًا، بعد أن قضى على السلالة الأخمينيّة. وكان الفاتح الجديد، ومن بعده خلفاؤه السلوقيّون، يحمل فكرًا إغريقيًّا ولغة إغريقيّة وفنًّا إغريقيًّا، ومعهم توطين جاليات كبيرة يونانيّة هدفها حماية العمليّة الاحتلاليّة بكلّ أدواتها، وفرْض واقع جديد، واستبدال الحضارات الأصيلة بالحضارة الوافدة. فتولّدت من جراء ذلك حركة أخْذ وعطاء تأثّر بها الأدب الآراميّ بأوزان وقياسات مختلفة، استمرّت في الفترة الرومانيّة اللاحقة. وفي حقبة "التقارض" هذه، تحوّلت الآراميّة إلى السريانيّة في ما بين النهرَين، مستندة على اللهجات "الجزريّة"، لا سيّما لهجَتا الرها ونَصِيبِين في انتفاضة استقلاليّة أدّت إلى تبنّي الكنيسة الوطنيّة لها، وتحويلها إلى أداة للتعبير عن إيمانها في صلاتها وفكرها اللاهوتيّ والنسكيّ وطقوسها.

نشأت الكنيسة السريانيّة الدائرة في فلك أنطاكية كجماعة قوميّة، وكانت "السريانيّة" صفةَ انتماءٍ إلى مساحة جغرافيّة محدّدة، هي سورية الرومانيّة وامتدادتها. عاشت هذه الكنيسة في فترة بداية العهد المسيحيّ وحتّى منتصف القرن الخامس الميلاديّ الذي شهد الانتفاضة اللاخلقيدونيّة ضمن الجماعة السوريّة الأنطاكيّة بشرائحها المختلفة: اليونانيّة السوريّة، والمُتَيَونِنَة السوريّة، والعربيّة القبليّة في البادية الشاميّة والوطنيّة من أبناء الأرض المنتشرة خصوصًا في جزيرة ما بين النهرَين، في عجينة إيمانيّة واحدة يسيطر عليها الفكر اللاهوتيّ اليونانيّ في فترة انتفاء فكر مسيحيّ قوميّ فاعل. وظلّ الأمر على هذه الحال حتّى منتصف القرن الرابع الميلاديّ عندما أصبح المفهوم الجغرافيّ والقوميّ عاجزًا عن الأداء بالمطلوب بعد أن اهتدى العراق والأهواز وغيرها وتبنّتها، فأصبحت "السريانيّة" صفة تتّصل باللغة السريانيّة القاسم المشترك بين كلّ المكوّنات.

كانت الأداة الرئيسيّة للفكر الكنسيّ للشريحة الرابعة هي اللغة السريانيّة، الحلقة الأخيرة في عمليّة تطوّر آراميّة الجزريّة التي ستأخذ ملئَها بعد بيان ميلانو سنة ٣١٣، متوجّة

مسيرة الآراميّة بقرار غير معلن، قوميّ وكنسيّ المضمون، المقصود منه خلق لغة متميّزة ومقدّسة، شأن العبريّة واليونانيّة، تستطيع بواسطتها أن تصبح لغة الأدب والطقوس واللاهوت والعبادة في بلدان الشرق الأوسط بعد التنصّر. ونستطيع القول بأن أفرام السريانيّ يشكّل، مع يعقوب النصيبينيّ، وهو أفراهاط الحكيم الفارسيّ أول من حوّلها من آرامية جزريّة، وهي سريانيّة غير مكتملة، فيها آثار من الآرامية، كما يظهر من الكتابات والصكوك السابقة لمرسوم ميلانو (٣١٣)، إلى السريانيّة بمعناها الدقيق والنهائيّ. إنّ كتابات أفرام النثريّة، كتآليفه الكتابيّة وتفاسيره، إذا ما أُضيفت إلى أعماله الشعريّة التي تتجلّى بأبهى صورها في مداريشه وأناشيده النَصيبينيّة وغيرها، أمدّت السريانيّة بسيل من المفردات، وأرست أسس بلاغتها، وروّضتها لتصبح قادرة على تلبية حاجات الفكر المسيحيّ الجديد، وتعبّر عن حاجاته. لذا يجوز بل يحقّ لنا أن نعدّ المعلّمَ وتلميذَه من مؤسّسيها.

النتاج البولسيّ والكنيسة السريانيّة

كان على هذه الكنيسة قبل أيّة مقاربة للفكر البولسيّ نقل نتاجه، أي رسائله، إلى السريانيّة، وقد فعلت ذلك بطريقة فريدة تضاهي ما قامت به الكنيسة البيزنطيّة، فأنتجت ترجمات عديدة للعهد الجديد، وفيه الرسائل البولسيّة وتفاسير طويلة ومفصّلة لها يمكن وضعها في مصافّ مثيلاتها اليونانيّة واللاتينيّة، تجسّدت بالأمور التاليّة:

تراجم الرسائل البولسيّة

لقد بدأت ترجمة الكتاب المقدّس في عهده القديم من اليونانيّة إلى الآراميّة، قرونًا قبل أن يتمّ الفراق بين بيزنطية والكنيسة السريانيّة في منتصف القرن الخامس للميلاد، إثر مجمع خلقيدونية (٤٥١). فلقد تَمّت هذه الترجمة "البسيطة" قبل أن تنتصر الجزيرة السوريّة على يد جماعة من علماء التوراة، عندما أصبحت اللغة الآراميّة لغةَ الشرق الأوسط بأسره، لا سيّما سورية والعراق.

وعندما أصبحت المسيحيّة واقعًا في هذه البقعة، ودخلت البشارة الإنجيليّة إلى أطراف الجزيرة السوريّة وما وراءها في العراق القديم وجزء من إيران، شعرت الكنيسة السريانيّة بجناحَيها الشرقيّ والغربيّ اللذين سيصبحان بعد أفسس (٤٣١) وخلقيدونية (٤٥١) الكنيستَين النسطوريّةَ واللاخلقيدونيّةَ، اللتين، وإن اختلفتَا لاهوتيًّا، ظلّتَا مشتركتَين بوحدة التاريخ والثقافة واللغة، إلى ترجمة للعهدَين القديم والجديد، أصبحت بعدئذ "البسيطةَ" السريانيّة. تمّ ذلك قبل الانفصال، يوم كانت الكنيسة السريانيّة واحدة اللغة وواحدة الايمان، أي قبل أفسس، بدليل قبول الجميع لها واعتبارها الترجمة الوحيدة المكرّسة والمتداولة، واستمرّت الوحيدة المعمول بها لدى النساطرة، وحافظت عليها الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة جنبًا إلى جنب مع الترجمات اللاحقة.

الترجمة المدعوّة بالفيلوكسينيّة و"المقارنة" الحرقليّة

شعرت الكنيسة السريانيّة اللاخلقيدونيّة بحاجتها الماسّة إلى ترجمة خاصّة بها يقوم بها أبناؤها انطلاقًا من النصّ اليونانيّ[١]، وهذا ما يفسّر السرعة الكبيرة التي تمّت بها هذه العمليّة؛ فبعد نصف قرن أو أكثر بقليل على مجمع خلقيدونية، وفي عام ٥٠٥ على التحديد، قرّر فيلوكسينوس المنبجيّ، المعروف كذلك باسمه السريانيّ "أكسنويو"[٢]، مطران المدينة (٤٨٥-٥٢٣)، المعروف بالمعترِف، أن يقوم بهذه المهمّة؛ فكلّف هذا

(٢) لقد قام بولس التلّي، أسقف مدينة تل موزلت (ويران شهر الحاليّة في منتصف الطريق بين الرها وماردين، بترجمة العهد القديم، عُرِفَت بالهكسبلة السريانيّة، اعتمد فيها بصورة رئيسيّة على عمل أوريجانوس. وكان آخر محاولة في هذا الحقل ما قام به يعقوب الرهاويّ في بداية القرن الثامن، ويظهر أنّ هذه الحركة توقّفت بعد هذا التاريخ.

الأسقف وأهله من بيث جرماي غي الجانب الشرقي لدجلة[٣]، فعهد إلى شمّاسه بوليكاربُّوس بإنجازها[٤].

"مقارنة" توما الحرقليّ

لا يزال الشكّ حتى اليوم يساور العاملين في حقل العهد الجديد حول عمل توما الحرقليّ بالتحديد في ما يتعلّق بالترجمة الفيلوكسينيّة التي أُنجزت قبل قرن من الزمن أو أكثر بقليل.

ولد هذا الخبر، الذي نجهل الكثير عن حياته، في قرية حرقل (هرقلة) الفلسطينيّة، وأصبح بعدئذ أسقفًا لمدينة منبج كسلفه فيلوكسينوس. ونستدلّ من الذيل الذي أَلحَقَهُ بعمله أنه أنجز العمل عام ٦١٦ للميلاد في دير "الأنطون" بالقرب من إسكندريّة مصر[٥]. إنّ المعلومات النادرة والمتكرّرة[٦] التي وردت في المخطوطات المتعدّدة لا تكفي لتوضيح الصورة؛ فلقد انقسم المهتمّون بهذا الشأن إلى فئتَين: واحدة تقول بأنّ توما الحرقليّ قام بترجمة شخصيّة ومستقلّة انطلاقًا من النصّ الفيلوكسينيّ[٧]، والأخرى تدّعي عكس ذلك، معتبرة أنّ عمل هذا الحبر اقتصر على تجهيز النصّ المذكور بالهوامش والشروح والأدوات النقديّة، تَشَبُّهًا بما كانت عليه النسخ اليونانيّة ذات الصلة بالتقليد القيصريّ[٨].

التفاسير البولسيّة

مهّدت الترجمة السريانيّة البسيطة منذ بداية القرن الثالث الميلاديّ، وأكثرهم يجهل اليونانيّة، إلى الانصراف إلى تفسير النتاج البولسيّ انطلاقًا منها أو من أعمال سابقيه من الآباء وعلماء الكتاب الإلهيّ، ومنهم:

– **أوّلهم وعظيمهم أفرام السريانيّ**، في النصف الثاني من القرن الرابع، الذي قام بشرح الرسائل البولسيّة؛ وقد فُقِدَ النصّ الأصليّ، ولم يبقَ في متناولنا غير الترجمة الأرمنيّة[٩].

– **لعازر القنداسيّ** (نهاية القرن الثامن): ترجمة جزئيّة للرسائل البولسيّة، وهو عبارة عن تلخيص مبسَّط لتفسير الذهبيّ الفم والآباء القبّادوقيّين (**اللؤلؤ**، ٣١٩).

– **موسى بن كيفا**، مطران الموصل وبَارِمَّان (توفّي ٩٠٣). شرح الرسائل البولسيّة التي لم يصلنا منها غير نتف مبعثرة، اعتمادًا على الآباء القبّادوقيّين، لا سيّما الذهبيّ الفم (**اللؤلؤ**، ٣١٩).

– **ديونوسيوس يعقوب المعروف بابن الصليبيّ** (توفّي ١١٧١). له شرح مفصّل للرسائل البولسيّة في تفسيره للعهد الجديد.

– **المفريان غريغوريوس أبو الفرج المعروف بابن العبريّ**، وهو آخرهم، وخاتمة مَن عمل في هذا الحقل، استند في "خزانة أسراره" إلى شبكة واسعة من

(٣) يذهب البطريرك أفرام برصوم، في **تاريخ الآداب والعلوم السريانيّة** (اللؤلؤ، ٢١٥)، إلى أنّ الشمّاس بوليكربّوس أتمّ ترجمته في منبج في حوالى العام ٥٠٠ للميلاد. إنّ المعلومات عن المترجم قليلة جدًّا، وقد ورد ذكره لماحًا في بعض المخطوطات، كالنسخة الأمبروزيانيّة (C133)، ومخطوط المتحف البريطانيّ ١٧١٠٦ في لندن. لمزيد من المعلومات عن بوليكربّوس وهذه الترجمة، أنظر دوفال، ٦٣–٦٤؛ باومشترك، ١٤٤، **واللؤلؤ المنثور** أعلاه.

(٤) السمعانيّ، **المكتبة الشرقيّة**، ٢٢٦–٢٣٣.

(٥) درس الحرقليّ السريانيّة واليونانيّة في دير قنسرين الشهير على الفرات.

(٦) إنّ أهمّ المخطوطات التي يعتبرها الباحثون حرقليّة : أوكسفورد، المجموعة الجديدة ٣٣٣، الفاتيكانيّ السريانيّ ٢٦٦ (المؤرَّخ عام ٧١٧ ميلاديّة، ١٠٨٦ يونانيّة): العهد الجديد بكامله، الفاتيكانيّ السريانيّ ٢٦٨ (أحد أقدم المخطوطات عن هذا العمل)؛ مخطوط مطرانيّة حمص : الأناجيل الأربعة، ومخطوط بوسطن ٤٥٠ (٧٣٢ للميلاد) . إنّ عددًا كبيرًا من هذه المخطوطات يرجع إلى الفترة ما بين القرنَين العاشر والخامس عشر للميلاد، وأحدثها يحمل تاريخ عام ١٧٨٨ للميلاد (Or. 4056) ، وهو اليوم في فلورنسا في المكتبة الشرقيّة لآل مديتشي (النسخة البلاتينيّة).

(٧) إنّ ذيلا مكتوبًا بالعربيّة يقول بأنّ الكنيسة السريانيّة كان لها نسختها: "عندنا نسخة المحرقل" (السمعانيّ، **المكتبة الشرقيّة** ، ج، ٢٣).

(٨) نسخة المكتبة الأنجيليكيّة: أ، ٢، ١٨ (القرنان الحادي عشر والثاني عشر للميلاد)، و Or. 3 العائد إلى سنة ٧٥٧ ميلاديّة. إنّ الذيل الوارد في النسخة الإنجيليكيّة هو ذاته تقريبًا الموجود في سائر المخطوطات .

(٩) دوفال، **الآداب السريانية**.

المصادر، فلم يغفل أحدًا من كبار الآباء اليونان الأرثوذكسيّين: أثناسيوس، وباسيليوس، وغورلس الإسكندريّ، وأبيفانوس، وأوسابيوس القيصريّ، غريغوريوس النيصيّ والنزينزيّ، وأورجنوس، إلى جانب أفرام، وفيليكسينوس المنبجيّ، وساويريوس الأنطاكيّ، ويعقوب الرهاويّ، ويوحنا التلّيّ، وابن الصليبيّ، والحرقليّ، وغيرهم. إنّ هدفه، وهو أحد كبار المُتَيْونين، أن يجري "مصالحة تاريخيّة" مع النصّ الأساس، وهو اليونانيّة.

السيرة البولسيّة

للكنيسة السريانيّة سيرتها البولسيّة، يظهر فيها الترابط وثيقًا بينها وبين قصائد السروجيّ. ويتبيّن ممّا جاء فيها أنّها متأخّرة عنه في صيغتها الحاليّة. وهي في خطوطها الكبرى لا تختلف عن أيّة سيرة أخرى لوحدة المصادر في جميعها، وهي سفر الأعمال والرسائل البولسيّة، ولجهل الكاتب بجغرافيّة الحضارة اليونانيّة الرومانية وتاريخها، مسرح نشاط الرسول. والهدف من السيرة إرشاديٌّ تعليميٌّ أَهمل فيها كلّ ما هو غريب على الأذن السريانيّة إلاّ ما ندر أو ما اعتبره المؤلّف ضروريًّا لإضفاء صيغة الأصالة على بعض مضامينها. وتظهر نكهتها في النعوت والتشابيه الأدبيّة التي تحتوي عليها؛ فالرؤيا على طريق الشام جعلت من بولس "بُوقًا" و"مبشّرًا للأمم" كلّها، و"شريكًا" و"مساعدًا" في نشر إنجيل الابن، "مختتمًا" أنّ أحدًا لم يجهد نفسه مثل بولس"، الذي تجوّل في أرجاء الدنيا، "مالئًا الأرض بالإنجيل، مبتدئًا بسورية ومنتهيًا بإيطاليا...". تنسب إليه السيرة مرافعة أمام نيرون انتهت بتبرئته وهدايته إيطاليا كلّها، وسفره إلى إسبانيا، وكلّ هذه جاءت في السِيَر اليونانيّة السابقة.

وجاء في السيرة نبذة رقيقة ننقلها دون إخضاعها للنقد:

"يُروَى أنّه، في المكان الذي سالت فيه دماء القدّيسَين بطرس وبولس، نبتت شجرتان عظيمتان تختلف عن سائر الأشجار كلّها، يتقاطر الناس إليهما لنيل البركة لهم ولبلدانهم؛ وكانت الشجرتان في ليلة عيد القيامة من كلّ سنة تنحنيان وتتعانقان أثناء القدّاس عند توزيع السلام، دليلاً على اتّفاقهما، وأنّ وحدة التعليم لديهما مستمرّة بعد موتهما، فقطعهما أعداء الإيمان، ولم ينبت بعد ذلك شيء".

أدب البدايات: أفرام والسروجيّ

يجب ألاّ ننسى، من الناحية الفكريّة، الفراغ الذي أحدثه الجرح الخلقيدونيّ في جسم الكنيسة السريانيّة، اللاهوتيّ والكتابيّ، بسبب القطيعة اللغويّة بين السريانيّة واليونانيّة، رغم الجهود الكبيرة التي بذلتها الكنيسة السريانيّة في الحفاظ على اليونانيّة المسيحيّة التي استقت من أعمال آبائها القدّيسين حليب المعرفة الإنجيليّة، والمحافظة عليها بتعليمها في أروقة الأديرة في سورية الشماليّة والجزيرة الملحقة بها، وترجمة الكثير من تآليف آبائها إلى السريانيّة لتتمكّن عمليّة الأواني المستطرقة من الاستمرار وإنْ بصورة فرديّة وبوتيرة متباطئة، وإن كنا ملزمين بالإشارة، منذ السلام القسطنطينيّ في بداية القرن الرابع للميلاد، وفي الجانب الشرقيّ للفرات، ولا سيّما في القسم العلويّ من جزيرة ما بين النهرَين، إلى وجود فكر لاهوتيّ مواز للفكر البيزنطيّ، له أدواته الأدبيّة، ولغته وهي السريانيّة، شهد ازدهارًا كبيرًا طيلة قرون ثلاثة، ومن أركانه الكبيران: أفرام السريانيّ ويعقوب السروجيّ، أساس هذا الفكر، شكلاً ومضمونًا. لذا رأينا أن نستند مباشرة إليهما لأنّهما النبعان اللذان منهما استقت الكنيسة السريانيّة ما يتعلّق برسول الأمم، ولم تَحِدْ عن قدسيّة أقوالهم.

لقد أخذنا عن أفرام نتفًا من مدراش قصير تبنّته الكنيسة السريانيّة وأثبتته نشيدًا ليوم عيده، لنكوّن لنا نموذجًا بالشكل وبالمضمون، ونتذوّق رقّة الشعر وإرهافه، وكثافة المادّة الفكريّة ودقّتها وأمانتها للأصول الكتابيّة، واستنادها الجذريّ، إلى رسائل بولس

وسفر الاعمال.

إنَّ المهمّ هو إثبات بولس رسولاً، شأنه شأن الاثني عشر، ولذلك شرطان أساسيّان: أن يكون مدعوًّا، شاهدَ الربّ واستمع إليه، وكلّها تنطبق على الإناء المصطفى.

فالدعوة مقرونة بتلقينه البشارة تمّت مباشرة من الفم الإلهيّ للابن على طريق الشام:

طوباك، بولس، يا ابن العبرانيّين،
يا إناء مصطفى يفيض فضائلاً
لأنّ ابن الله قاده حبّه
الى أن يحوّلك من ذئب إلى حمل،
فأدخلك إلى حظيرته،
ودعاك إلى عرسه،
ولقّنك أسراره، وأقامك وكيلاً
على كنوزه الإلهيّة.

كان ما حدث على طريق الشام انقلابًا جذريًّا، إذ انتقل الفريسيّ المتعنّت، ابن العبرانيّين، أي اليهوديّ، من خدمة الناموس والولاء الموسويّ إلى الانخراط كلّيًّا في البشارة الإنجيليّة الجديدة، فشرع بتغيير اسمه من شاؤول إلى بولس، نازعًا عنه الإنسان القديم. فالاسم هو السمة والعلامة في العالم الساميّ القديم، وكان يحتاج إلى اسم يميّزه عند الإسرائيليين، فنَزْع الاسم كنَزْع الجلد يفترض ولادة جديدة:

طوباك، شاؤول، يا مَن نبذت
اسمك
ومعه الفكر اليهوديّ،
وأصبحت بولس الاسم الجديد
الذي وضعته لك البشارة الجديدة،
فنبذت تصرّفك القديم ومعه
اسمك،
ولحقت بالمخلص وبصليبه،
فغيّرك وأصبحت تلميذًا جديدًا،
إسمًا وفعلاً.

وفي اختطافه إلى السماء الثالثة شاهد الابن وجهًا لوجه، واستمع إليه دونما وسيط، ولقّنه ما كان يعوزه من العلم الإنجيليّ الذي لم يحظَ به سابقًا:

طوباك لأنّه ارتضى فتحدّث إليك
من دياره السامية في السماء،
فأسرك صوته، وقيّدك حبّه،
لئلاّ تواصل اضطّهاد المسيحيّين؛
وبالضياء الباهر الذي أراك إيّاه
نزع ضياء بآبائك،
فاستنار باطنك
بضياء السماء لتنير الظلمات.

كان الانتقال إلى الديار الإلهيّة حيث يقيم الثالوث انتقالاً روحيًّا وليس جسديًّا، أطلعه فيه الابن على شخصيّته وأصله الإلهيّين، ووهبه أسراره ومفاتيح حلّها:

طوباك لأنّه أصعدك عنده إلى دياره
بذلك الإنسان الخفيّ في باطنك،
وهناك لقّنك كلّ أسراره.
بلغة الإعجاز التي لا توصف
كشف لك الناصريّ في دياره
السامية تلك
عن هويّته وعن نسبه،
وعن أنّ حبّه أنزله ليحطّ في
الناصرة
ويخلّص السفليّين.

زعزع لقاؤه مع الربّ في عليائه قناعاته؛ فالمسيح في علمه التوراتيّ يسوع الناصريّ الخارج على الناموس، والذي لسلامة هذا الناموس كان يرغب في اضطّهاد تلاميذه والقضاء على رسالته:

طوباك لأنك ارتفعت وتعاليت
فوق إلى السماء الثالثة،
وهناك لقّنك أساتذة أجلاء بلغة
الألوهة،
ودرّسوك -بألفاظ خفيّة
غريبة عن الأفواه- اللغاتِ،
لأنّ الروح هو معلّم
كلّ مَن هو أهل لذلك العلم
السماويّ.

طوباك لأنّك عايشت التوراة
كأمّ مربّية،
والبشارة الإنجيلية كقرينة
أحببتها ولازمتها بقداسة،
فأكرمت تلك الأمّ المباركة،
ولازمت تلك القرينة المسرّة.
لقد اقترنت بالبشارة الإنجيليّة،
وأصبحت وإيّاها، أنت وهي،
شخصًا واحدًا.

أصبح بولس بعد عماده مناديًا بالإنجيل بين الأمم "في حينه وفي غير

حينه":

طوباك يا من صرتَ في الأقطار
الأربعة قيثارة للإنجيل،
تغنّي بك عروس النور غناء عذبًا
بصوت مرتفع،
فدوّى كالرعد تعليمك،
وناديت بالصليب بين الأمم كلّها،
فأخجلت العلماء بألفاظ مبسّطة
لكونها حقيقيّة.

طوباك يا مَن احتويتَ كلّ محاسن صلبه،
وانتَظَمَتْ فيك من كلّ جانب
جراحُه بأسرها.
فرحًا بسلاسلك وقيودك المختلفة
تحمّلت السجن والرجم مرّات عديدة.
جلدوك بالسياط فصرت شريكًا
في عذابات ابن الحيّ.

القصائد السروجيّة [١٠]

للسروجيّ الكبير قصيدتان رائعتان عن بولس ضمّنهما في سياق شعريّ رفيع كلّ ما قاله سفر أعمال الرسل ورسائله المنوّعة[١١]، متّكئًا في أسلوبه على ما قاله أفرام فيه، مستعملاً كلّ أدوات الفصاحة والبلاغة التي ميّزت آداب الشرق الكتابيّ والوثنيّ معًا. تتميّز القصيدتان بأمانتهما الكاملة لِمَا جاء في العهد الجديد عن سيرة بولس وتعاليمه. وقد أهمل الشاعر واللاهوتيّ الجانب السرديّ لرحلات بولس التبشيريّة وما تخلّلها من أحداث، لأنّها لا تثير اهتمام اللاهوتيّين والرهبان والشمامسة، وهم الوحيدون الذين كانوا يقرأون السريانيّة في الكنيسة وخارجها، وجلّهم يجهلون جغرافيّة الشعوب اليونانيّة الرومانيّة وتاريخها ودياناتها وحضاراتها، موضوع أحداث هذا السفر، على عكس اللاهوتيّة والروحيّة النسكيّة والتعليميّة المضامين. إنّ القصيدتَين تتحاشيان ما أمكن الأسماء اليونانيّة للأمكنة والأشخاص وغيرها بطريقة مقصودة ليأتي الشعر سريانيًّا صافيًا في حقبة مفصليّة من تاريخ الكنيسة السريانيّة.

تخوض الكنيسة، إلى جانب معركتها اللاهوتيّة التي انتهت باستقلالها الدينيّ عن الكنيسة البيزنطيّة، معركةً متوازيةً تهدف، منذ ثمانية قرون تقريبًا، إلى إرساء قواعد البناء القوميّ في فضائها الجغرافيّ والتاريخيّ واللغويّ في وجه بيزنطية اليونانيّة اللغة والانتماء وحضورها السياسيّ والعسكريّ.

إن بولس الرسول بالنسبة إليه نَقْدٌ ذو وجهين:

كيف أدعوه كارهَ يسوع أو عاشقَه؟
الطريدةَ اليوميّة أو المطاردَ الدائم؟
مُحرجَ التلاميذ أو مفرّحَ الرسل؟
عدوًّا أم صديقًا يفيض حبًّا؟
معلّمًا بليغًا ومفسّرًا للعقيدة اليهوديّة
أو قيثارة الرسل الغنيّة بالألحان؟
الفصيح البليغ مترجم كتب آل أدوناي،
أو المستغيث ببساطة آل يوحنا؟

شاؤول عبرانيّ، فريّسيّ ومعلّم الناموس من أهل الناموس وغلاتهم، اختاره الربّ حَكَمًا وقاضيًا بين العهدَين؛ فـ"في بيته يؤتى الحكم"، كما يقول المثل العربيّ:

من داخل البيت طلع شاؤول لشعبه
مهمازًا،
يجادلهم من التوراة بشأن ابن ربّه.

والحَكَم المذكور ابن للتوراة، وتلميذ لموسى، وعالم كبير بالتوراة والكتب والطقوس والتقاليد، ما يؤهّله للتمييز بين العهدَين:

كان الكتبة يحتقرون شمعون البارّ لأنّه
كان صيّادًا،
ومعه تابعوه كلّهم لكونهم سذّجًا،
لهذا اختار شاوول المتعلّم
ليناضل مع السذّج لأنهم الصادقون،

(١٠) بولس بيجان، **سِيَر الشهداء والقدّيسين**، الجزء الثاني، باريس، ١٩٠٥، الميمر الحادي والثلاثون (بيجان، ٧١٧ إلى ٧٤٧)، والثاني والثلاثون (٧٤٧ إلى ٧٦٩).

(١١) يعترف السروجيّ بأنّه استمدّ الكثير من مواد قصيدتَيه من قراءات بولس، ٧٢٠.

حتى لا يقول الشعب إذا ما أبطلوا
الختان والعادات والتقاليد
إنّهم لم يقرأوا حتّى أسفار موسى؛
فهم لسذاجتهم يحتقرون طقوس
الديانة اليهوديّة،
لأنّهم لم يتعلّموا أنّهم بذلك يتعدّون
الشريعة.
حسنًا كان دخول بولس الميدان، كما قلنا،
وهو الأستاذ القدير، لينادي بالحقيقة مع
السذّج،
هذا الذي كان قد تعلّم كلّ الطقوس
القديمة
نبذها جملة متباهيًا بالأمور الجديدة،
وهو الذي تمرّن على الأعياد والسبوت
ورؤوس الأهلّة،
تخلّى عنها وشرع يتصرّف ببساطة،
فمن حمل الحِمْل الذي أعطاه إيّاه
موسى
ألقاه عنه وحمل نير الصلبوت[١٢].

وعلى طريق دمشق، وهو المستكبر بالتوراة والتقاليد، دخل في علاقة مباشرة مع القائم من بين الموت، مع ربّ مزج التواضع بالرهبة، عندما حدّثه لكي يتمرّس ابن العبرانيّين بهما:

كان المضطَّهِد يتّقد غيظًا على هذين
الأمرَين
لئلاّ ينطق أحد باسمَي يسوع والناصرة.
أقرّ ابن الله بعاره أمام مطارده
ليبيّن له أنّه يفخر به لأنّه اسم الخلاص،
وأنّه وهو في السماء لا يخجل من اسم
الناصرة،
ففيها نما قضيب التجسّد العزيز.

أيّ ساذج يستطيع أن يرسك للملك
صورة،
وهو يجهل التمييز بين الألوان
والعقاقير؟
فمَن يقوى على رسم صورة بولس
غير الإصبع الإلهيّة التي تزيّنه،
وبعد أن دعاه علنًا الإناء المصطفى؟
مَن يستطيع إضافة جمال ما على هذا
الجميل؟
مَن يستطيع رسم صورة له في خطابه
ولا يلحق به فسادًا؟
فهو يشبه ربّه، وصورة الابن لا تُحَدّ؛
إنه يشبهه من بعيد، وهو هنا هو هو.
إنّه لا يشبهه، لكنّه هو حيّ فيه ويتكلّم؛
فالمسيح حيّ فيّ ولست أنا الحيّ؛
فقد متّ أنا في الذي مات حقًّا من أجلي،
إذ صُلب معه إنساننا العتيق،
فماتت كلّ الأهواء والشهوات على
الصليب[١٣].

اعتمد الرسول على ذاته لتأمين رزقه، واحتمل التعب والكدّ والجوع والعطش والعري أسوة بربّه:

أيّ راع لم يذق حليب رعيّته،
إلاّ هذا الذي نزّه ذاته بالبشارة
الإنجيليّة[١٤].
أسير يسوع وخادم صلبوته،
تعبًا ومجهدًا وعريانًا، كما تعلّمت منه،
طريد أبناء جنسه البعيدين منهم
والأقربين،
جائعًا وعطشانًا وصيّامًا يفيض حبًّا،
حمل جراح ابن الله في أعضائه،
وآلام الصلب كلّها مرسومة فيها[١٥].

الرؤى العديدة والانخطافات جعلته على علاقة مباشرة بالربّ، ومدرسة تعلّم فيها عند أقدام الابن مضامين بشارته:

هذا الذي اغتنى بالأحلام وبالرؤى،
وأُوكلت إليه أسرار الخلق كلّها أكثر من
موسى،
ذلك الذي ارتفع إلى السماء،
وفي طريقه شاهد الفردوس حسب
قوله،
هذا الذي سمع كلام آل بيت الله
الرفيع،
لا يحقّ له وهو عاجز عن النطق به،
هذا الذي أمسك نفسه عن الإدلاء
بشيء ممّا سمعه،
لئلاّ يكابر وهو يتحدّث عن رؤاه[١٦].

(١٢) بولس بيجان، القصيدة الأولى، ٧٢١.
(١٣) المرجع ذاته.
(١٤) بولس بيجان، القصيدة الثانية، ٧٤٩.
(١٥) المرجع ذاته، ٧٤٩.
(١٦) المرجع ذاته، ٧٥١.

أثارت وداعة بولس ورقّته المقرونة بجسد رقيق اهتمام المتصوّفين من الرهبان الذين امتلأت الكنيسة السريانيّة منهم وفقراء الله وبقيّته، لأنّها انعكاس لرقة سيّده ووداعته:

نظر إلى وداعة يسوع فتواضع،
فلم تهبّ الكبرياء حيث كان
سرق له ألوانًا من عقاقير الصلبوت،
ورسم صورته على مثال ابن الله،
وبمقدار ارتقائه إلى أسرار الابن تنازل
واتّضع،
ليدرك جمال اتّضاع الابن ذاك.

إن هذه الرقّة، وهي نتيجة ولادة بولس الثانية، تتعارض مع قسوته وشدّته وغيرته المتطرّفة قبل اهتدائه، وهي نتيجة حتميّة لاكتشافه أنّ النقطة المحوريّة في الروحانيّة المسيحيّة هو الصلب والصليب:

الوثنيّون يبحثون عن الفلسفة، أمّا أنا
فلا أنادي بغير المسيح مصلوبًا ومقتولاً.

فحص رفات الرسول بولس بعد ١٩ قرنًا!

قال البابا بنديكتوس السادس عشر إنّ تحليلاً علميًّا جزئيًّا للقبر الذي يضمّ رفات القدّيس بولس الذي لم يفتح أبداً منذ ١٩ قرنًا، أظهر وجود أجزاء من عظام بشريّة قد تكون عائدة الى القدّيس نفسه الذي كان أحد رسل المسيح. وأعلن البابا لدى ترؤّسه صلاة العصر في كاتدرائيّة القدّيس بولس في روما، في ختام سنة من الاحتفالات مكرّسة للقديس بولس، أنّ التابوت الموجود في الكنيسة "خضع أخيرًا لتحليل علميّ دقيق".

وأوضح البابا أنّ "ثقبًا صغيرًا جدًّا أُجري لإدخال مجسّ خاصّ" داخل التابوت الحجريّ سمح بإخراج "أجزاء صغيرة جدًّا من العظام؛ وقد أظهر فحص كاربون ١٤ أنّها عائدة إلى شخص عاش بين القرنَين الأول والثاني".

وقال بنديكتوس السادس عشر: "يؤكّد ذلك على ما يبدو التقليد الراسخ والذي يُجمع عليه الكلّ أنّ الأمر يتعلّق ببقايا بولس الرسول". وسمح المجسّ كذلك بالعثور على "آثار قماش ثمين من الكتّان الأرجوانيّ المقصّب بالذهب ، وقماش أزرق مع خيوط من الكتّان، فضلاً عن حبوب من البخور الأحمر.

وقال كبير كهنة الكاتدرائيّة، أندريا كورديرو لانتسا دي مونتسيميلو، خلال مؤتمر صحافيّ، إنّ بنديكتوس السادس عشر لا يستبعد "أن يأمر يومًا بتحليل كامل ومعمّق" للتابوت. وقال الأسقف إنّ دراسات أُجريَت في موقع المقبرة الواقعة تحت مذبح الكاتدرائيّة من أجل إجراء هذا التحليل، إلاّ أن فتحه "يتطلّب أعمالاً كبيرة، إذ إنّ التابوت الحجريّ ضخم، وستؤدّي إلى هدم المذبح. والقيام بالتحليل في المكان صعب لكنّه غير مستبعد".

ومنذ نهاية العام ٢٠٠٦ يمكن للزوّار رؤية القبر من خلال فتحة أُقيمت تحت المذبح الرئيسيّ. وقال يومها الكاردينال مونتيسيمولو إنّ "لا شكّ بتاتًا" أنّ هذا القبر هو قبر القدّيس بولس. وسمحت حفريّات العام ٢٠٠٢ باكتشاف القبر الذي كان وجوده شبه مؤكّد بسبب مظاهر التعبّد لبولس الرسول في المكان. وقد نسب الفاتيكان القبر رسميًّا إلى بولس الرسول في شباط/فبراير ٢٠٠٥.

بولس
في البِيت غازو الماروني Add. 14.703
(القرن الثاني عشر - الثالث عشر)

الأباتي يوحنّا تابت
جامعة الروح القدس، الكسليك

المقدّمة

بعد نشرنا في ١١ مجلّدًا ثلاث بِيت غازات مارونيّة، هي:

- Add. 14.701 (١٢٦٣م)،
- Add. 14.703 (القرن الثاني عشر- الثالث عشر)،
- Vat. Syr. 324 (القرن الثالث عشر)،

أخذت دراساتٌ ليتورجيّة ولاهوتيّة وبيبليّة تسلّط الضوء على الغنى الوافر الذي تتضمّنه تلك المصادر الليتورجيّة المارونيّة، والتي كانت بحاجة إلى من ينحني عليها ويضعها في متناول القرّاء.

وإنّنا نستفيد اليوم، في مناسبة الألفيّة الثانية لمولد بولس الرسول، من تلك الكنوز المخبوءة والمحفوظة في مكتبة المتحف البريطانيّ في لندن، وفي المكتبة الفاتيكانيّة في روما، لنُظهر وجهًا مارونيًّا لرسول الأُمم، إنطلاقًا من الجزء الأخير من **البيت غازو Add. 14.703**، وهو بعنوان: **ألحانٌ للرُّسل**، وقد نشرناه سنة ٢٠٠٥ في معهد الليتورجيّا في جامعة الروح القدس- الكسليك.

مقالنا هذا يستند إلى **٤٣** نصًّا مأخوذًا من **ألحان الرسل**، وعددها **٤٩** لحنًا. ومن المعلوم أنّ الأفكار تتداخل بعضها مع بعض، ويصعب، بالتالي، فصلها. ومع ذلك، عملنا على تنسيقها بشكل يسمح للقارئ اللبيب اكتشاف هذا البُعد البولسيّ في مخطوط ماروني عريق ومُحدَّد. ولا ندّعي أنّنا نختصر هنا الحضور البولسيّ في الليتورجيّا المارونيّة، أو في الكنيسة المارونيّة.

ملاحظة أخيرة لا بدّ منها: يبقى التأمّل والغوص في مجمل هذه المختارات أمرًا ضروريًّا، ليكتشف القارئ أبعادًا رائعة وعمقًا لاهوتيًّا لشخصيّة مار بولس، رسول الأمم. وإنّنا نترك النصوصَ تبوح بأسرارها وفرادتها، على هدأة التأمّل والصلاة الشخصيّة والاحتفال الطقسي.

١- ألقاب بولس

تتضمّن النصوص -إضافة إلى كلمة رسول- ألقابًا عديدة تُنزع على بولس، وتدلّ جميعها على الغنى المُتضمَّن في كلّ من هذه التسميات. نذكرها الآن بحسب ورودها في الألحان، مع العلم أنّ الرقم الأول يُشير إلى اللحن، والرقم الثاني، بين القوسَين، إلى البيت في اللحن:

فبولس هو " تلميذ الحقّ" ١(١٥)، " أللاّبس الظَّفر" و"المهندس الحكيم" ٢(٣)، "مهندس الإيمان" و"خطّاب بيعة القدس" ٢(٤)، "مهندس صالح" ١١(٧)، "باني بيعة القدس" ١٢(١٠)، "رئيس كمال بنيان البيعة" ١٥(٨)، "بولس المختار" ١٥(١٠)، "مختار الكنائس" ٢٥(٢)، "رسول وكارز" ٢٦(٣)، "المهندس الماهر" ٣١(٤)، "كمال بنيان الكنيسة" ٣٦(٧).

٢- شاولُ على طريقِ دمشق

تذكر مجموعةٌ من النصوص الحدثَ المحوريّ الأبرز في حياة شاول، ألا وهو حدث دعوته أو ارتداده على طريق دمشق، بتفاصيل ومعطيات قريبة جدًّا من كتاب أعمال الرسل ٩: ١-١٩.

فهي تتكلّم على رسالة أو رسائل حملها شاول من الكتبة والفرّيسين والكهنة إلى دمشق، بغية القبض على

الرسل والتلاميذ وملاحقتهم واضطّهادهم وقتلهم؛ وكان ذلك بحقد عظيم وغيرة؛ وكان مظهرُه مظهرَ أسد يزأر.

وفجأةً، على الطريق، شاهد رؤيا: نورًا سماويًّا قويًّا؛ وسمع صوتًا يُناديه من العلاء: شاول! شاول! لماذا تضطّهدني؟ لماذا تضطّهد تلاميذي؟

فتجرأ شاول وسأل الربّ: ما خبرك؟ أنا لستُ أعرف. فقال ربّنا: أنا هو يسوع الذي أنت تضطّهده! فتعالَ كن رسولاً وَمُضْطَّهَدًا، واخرجْ وابنِ لي الكنائس التي هدمتَها من قبل.

وخطفت الرؤيا النُّورَ من عينيه، وأعمت مُقلتيه.

وبعد الرؤيا، أُرسل إلى حنّيا الذي اقترب ووضع يده على عينيه، فانفتحت للحال، لأنّه كان مُزمعًا أن يتألّم من أجل اسم يسوع.

وهذه هي النصوص كاملةً التي تسند هذا المقطع، بحسب ورودها في المخطوط:

٢(٧): "بواسطة الرسائل التي أخذها بولس من الكهنة، بحقد عظيم وغيرة، ذهب ليقبض على الرسل، كي لا يعودوا يكرزون بين الشعوب باسم يسوع ذلك الناصريّ. وربّنا، على الطريق، أشرق عليه، وأجاب وقال له هكذا: لماذا تضطّهدني؟ تعالَ! كن مُضْطَّهَدًا ورسولا".

٣(٤): "من الكتبة وكهنة الشعب، استلم رسالةَ قتل شاولُ المختار المدعوّ بولس. وإلى دمشق تهيّأ ليضطّهد الرسل، لأنّه سمع أنّهم يكرزون بيسوع. وفي الطريق، التقاه مخلّصُنا، فشاهد نورًا قويًّا، وسمع صوتًا دعاه وقال له: شاول! لماذا تضطّهدني؟ تعالَ كن رسولاً وَمُضْطَّهَدًا، هللويا، من الآن فصاعدًا".

٣(٦): "عندما كنتُ أضطّهِد الكنائس، قال بولس المختار، كنتُ أظنّ أنّني كنتُ أعملُ الحقّ، إلى أن رأيتُ تلك الرؤيا التي خطفت النّور من عينيّ، وأعمت مُقلتيّ، وقال الربّ لي هكذا: شاول! لماذا تضطّهدني؟ أُخرج وابنِ لي الكنائس، تلك التي هدَمتَها من قبل. وللحال، أرسلني إلى حنّيا، فاقترب ووضع يده على عينيّ، هللويا. فانفتحت للحال".

٧(٨): "بالحقد تسلّح شاول ضدّ التّلاميذ؛ وإذ كان في الطريق، شاهد نورًا وسمع صوتًا: شاول! شاول! لماذا تضطّهدني؟ تبارك الذي اختاره ليكون رسولاً للكرازة".

٨(٨): "من الكتبة حمل الرسائلَ بولسُ، وذهب ليضطّهد الرسل؛ وبغتةً، لاقاه ربُّنا، وأجاب وهكذا قال له: شاول! لماذا تضطّهدني؟ تعالَ! كن، منذ الآن، رسولاً وَمُضْطَّهَدًا!".

١١(٥): "كالأسد زأر، وهو خارج، بولسُ المختار، على الكارزين بالحقّ. وربُّنا في الطريق دعاه، وقال: شاول! شاول! لماذا تضطّهدني؟ هللويا. تباركَ الذي اختاره!".

١١(٦): "أظهر ربُّنا لحنّيا في شأن شاول المدعوّ بولس، أنِ اذهب وضع يدك على عينَيه ليُشاهد النّور، لأنّه مزمع أن يتألّم من أجل اسمي. هللويا. صلاته...".

١٧(٣):"من الكتبة والفرّيسيّين، حمل الرسائلَ شاولُ المدعوّ بولس ليضطّهد الرُّسل؛ فجاءه صوتٌ من العلاء قائلاً له: شاول! شاول! لماذا تضطّهد تلاميذي؟ فتح فمه وقال له هكذا: ما خبرك، يا ربّ؟ أنا لستُ أعرف. فقال ربُّنا: أنا هو يسوع الذي أنت تضطّهده" .

٣- تبدّلُ بولس

بعد لقائه الرّبَّ يسوع على طريق دمشق، حدث تبدّل جذريّ ونهائيّ في حياة بولس. كان ذئبًا فأصبح حملاً؛ كان مُضْطَّهِدًا فصار مُضْطَّهَدًا. قطّع أوصال الكنيسة في السابق ومزّقها؛ لكنّه تحوّل إلى مهندس حكيم يبني ويعمل ويتعب ويكتسب الإكليل.

٢(٣): "مَن لا يفرح ويرتّل المجد بكلّ الألحان في هذا اليوم، يوم تذكار الرسول اللاّبس الظّفر، الذي تبدّل وصار حملاً، وقد قطّع الكنيسة في السّابق؛ واحتمل الآلام والضيقات من أجل الشّعوب وتلمذها؛ كالمهندس

الحكيم، عمل وتعب، واكتسب الإكليل".

١٢(١٠): "بولسُ المختار، مهندس الإيمان، باني بيعة القدس، ألذئبُ الذي قد تحوَّل مثل حمل بريء، فاحتمل الآلام والضيقات، هللويا. من أجل يسوع".

٢٠(٥): "مَن لا يفرح ويرتّل المجد والشُكران في يوم تذكار ذلك الذي تبدّل وصار حملاً، ذاكَ الذي مزّق البيعة في السّابق، واحتمل كلّ الضيقات من أجل الشُعوب الذين تلمذهم، فنال إكليله".

٤- ألبشارةُ بالآلام

بولسُ، رسول الأمم، انطلق إلى البشارة بيسوع المسيح، فأرجع الشّعوب إلى طريق الحقّ، بحماس غريب وغيرة نادرة؛ وهذا ما جعله يُعاني الآلام واللطمات وأمشاط الحديد والميتات المتنوّعة، إلى أن احتمل الموت بالسيف، واستحقّ إكليل الظَّفر.

وكان قد هَيَّأ نفسه لذلكَ الجهاد المستميت بالسهر والصوم والصلاة والحبّ الكامل لسيّده وقوّة الروح القدس الذي عضده وسنده في مخاطره الرسوليّة كلّها.

وهذه الأفكار والمعطيات التي تملأ نصوصنا هي صدى لِما جاء في رسائل بولس من معاناة واضطّهادات في سبيل البشارة والرسالة.

١(٤): "ذهلٌ عظيم وعجب قد أخذا بيعة القدس التي شاهدت بولس يُبشِّر بإيمان الحقّ؛ واحتمل اللطمات وأمشاط الحديد والميتات المتنوّعة مرارًا كثيرة؛ واكتسب الإكليل بالبرّ الذي أعدّه هو لنفسه بأعماله. وورث الملكوت مع الأبرار ومع الصدّيقين؛ وها إنّ تذكاره يُشَرَّف في بيعة القدس التي خطبها لابن الله".

١(٥): "إلى الأبد فليكن ذكرك، يا تلميذ الحقّ بولس، لأنّك في جهاد الحقّ البهيّ كنت تعمل كلّ يوم لسيّدك، في السهر والصوم والصلاة والحبّ الكامل، (حبّ) سيّدك الحقيقيّ؛ وبالروح القدس تشرَّفْتَ في البيعة خطّيبة المسيح؛ ومثل البخور المقبول، صعدتْ صلاتك إلى السَّماء، لكيما، مع الجموع المُتَّشحة بالنُّور، ترتّل المجد للرَّبّ الذي كلَّل عنقك".

٢(٤): "بولس الرسول مهندس الإيمان، خطّاب بيعة القدس، وقد احتمل الآلام في الجهاد، وبالابتهال تكلَّل، وداس الموت المنيع. أمجد للعروس المقتول الذي نهج الطريق لأبطاله، فقُتلوا من أجل حبّه، وها إنّ ذكرهم يُشَرَّف!".

١٤(٤): "بولس الرسول، مهندس الإيمان، وخاطب بيعة القدس، الذي احتمل الآلام، وبالسيف تكلّل، وداس الموت المنيع".

٢٥(٣): "ذهلٌ وفرحٌ استولى على بيعة القدس، لأنّها شاهدت بولس يُبَشِّر، وقد احتمل اللطمات وأمشاط الحديد والموت المخيف، فاستحقّ أكاليل الملكوت، هللويا. صلاته...".

٢٦(٣): "بولس المختار الذي دَعْوَتُهُ من الله سُمِعَتْ، والكلمةُ اختاره ليكون رسولاً وكارزًا لشعوب الأرض، وبه أرجع من الضَّلال الشُّعوبَ إلى طريق الحقّ".

٢٧(٥): "ذهل عظيم وفرح استولى على بيعة القدس، لأنّها شاهدت بولس يُبَشِّر بإيمان الحقّ، وقد احتمل اللطمات وأمشاط الحديد، واستحقّ الإكليل، وورث الملكوت".

٥- بولسُ الباني

إن كان بولس يُنعت بالمهندس في معظم النصوص، فهو يعمل على بناء كنيسة المسيح وعلى نسف كلّ ضلال يُعرِّضها للسقوط.

١١(٧): "ألطّوبى للبيعة المؤمنة، مَن اختار لها المسيحُ مهندسًا صالحًا ليبني ويُقيم مساكنها، وينسف منها بنيان الضَّلال النتن. هللويا. صلاته...".

٢٦(٥): "ألبيعة المقدَّسة تفرح وترتكض في يوم عيد بولس المختار والمهندس، لأنّه أتقن وبنى خِرَبَها، وثبّت مداميكها على صخرة إيمان

الحقّ".

٦- تعليمٌ في الكهنوت

يذكر البيتُ الرابع من اللحن السابع عشر كلامًا على الكهنوت وصفاته؛ وهو مستوحى، بطريقة مباشرة، من ثلاث نصوص وردت في رسالة بولس الأولى والثانية إلى تلميذه طيموتاوس، وفي رسالته إلى تلميذه طيطس. سنُثبت، أوّلاً، نصوص بولس، ثمّ البيت المذكور أعلاه، فنُعطي، بذلك، نموذجًا على قرب نصوصنا المارونيّة من نصوص مار بولس.

أ- رسائل بولس

- "... مُحْسِنًا تدبيرَ بيته، وضابطًا أولاده على خضوعٍ بكلّ شرف؛ فمَن لا يعرف أن يُدَبِّرَ بيته، فكيف يُعنى بكنيسة الله؟" (١ تم ٣: ٤-٥).

- "ولا يجوز لخادم الربّ أن يماحك، بل أن يكون ذا لطفٍ مع الجميع، جديرًا بالتعليم، صبورًا، مؤَدِّبًا برفقٍ المُخالفين، لعلّ اللهَ يمنحهم توبة لمعرفة الحقّ، فيفيقوا من فخِّ إبليس، وقد اصطادهم لمشيئته" (٢ تم ٢: ٢٤-٢٦).

- "في كلّ شيء، كن مِثالاً للأعمال الطيِّبة، وسلامة في التعليم وشرفًا" (تي ٢: ٧).

ب- نصّ المخطوط

١٧(٤): "يليق بالكهنوت التواضعُ والطهارة والقداسة والتعاليم الكاملة، هكذا كتب بولس الرسول المختار إلى تيموتاوس حبيبه وإلى تيطس تلميذه، ليكون كاهنُ الله كاملاً، ومُكمَّلاً بالأعمال الصّالحة، وَمُدَبِّرا بيته تدبيرًا حسنًا، وبيعته بطهارة".

٧- بطرس وبولس

لا تفصل النصوصُ بطرسَ عن بولس؛ فكلاهما في مشهد كنسيّ ورسوليّ وتأسيسيّ واحد؛ إنّهما متكاملان وشعاعان في الخدمة والشّهادة:

بطرس رئيس التلاميذ والرسل، وبولس المختار مهندس البيعة؛ سمعان الأساس، وقد اعترف بسيّده، وبولس تبدَّل جذريًّا وأصبح مُضْطَهَدًا؛ بطرس حامل المفاتيح، وبولس قائم على باب البيعة. قتلهما نيرون الملك، فتكلَّلاَ بالمجد، وهتفَا: لكَ المجدُ، يا ربّ.

١(١): "ألكارزان اللاّبسان سلاحَ الرُّوح القدس، ألرَّسولان القدّيسان، بطرس رئيس التلاميذ، وبولس مهندس البيعة، هما الشُّعاعان اللذان لَمعَا في الخليقة، وطردَا منها ظلام الضَّلال".

١١(١): "يا سمعانُ رئيسَ الرسل، ويا بولس المختار، ويا يوحنّا الذي عمّد الابن، إبتهلوا واطلبوا من أجل الخراف التي رعيتموها في مروج الإيمان. هللويا. وهللويا".

١٣(٦): "سمعان الأساس، وبولس المهندس، للبيعة المقدَّسة. سمعان اعترف به، وبولس تبدَّل، وصار مُضْطَهَدًا. هللويا. وهللويا. من أجل خلاصنا".

١٥ (٣): "حسنًا جعل اللهُ سمعانَ الصّفا أساسَ بيعة القدس، وعليه بناها ووضعها، ودعا بولسَ مهندسًا، وكمَّل وعظَّم بُنيانها حتّى السَّماء. هللويا. وهللويا".

١٥(٨): "أساساتُ بيعة القدس: سمعانُ الصَّفا، ورئيسُ كمال بُنيانها بولسُ المهندس؛ واحد يصرخ أنّ جمعها هم الخراف، أولئك الذين ضلّوا؛ وآخر حامل المفاتيح يفتح للتّائبين. هللويا. وهللويا".

١٥(١٠): "في قبّة الزمان، (الخيمة) لإسرائيل، وضع الرَّبُّ موسى وهارون الكاهن اللاّوي، فخدمَا قُدّام الربّ؛ وفي بيعة اليوم هذه، يقوم سمعانُ، ومعه بولسُ المختار مهندس البيعة. هللويا. وهللويا".

١٦(٦): "ليكن ذكر صالح في العُلى والعمق، في الأقطار الأربعة، لمار بطرس ولمار بولس، مُهندسَي البيعة المؤمنة، اللذين كانَا صيّادَي سمك، فعادَا يصطادان أبناء البشر بشبكة الرّوح، التي من عظيم الحقّ، قبلاها".

١٦(٧): "بطرس وبولس الطُّوباويّان هما تلمذَا روما العظمى، فسمع نيرون الملك، واشتدّ غضبه مثل الدُّخان، فأمر

فقتلوا الرسولَين الاثنين معًا. وعندما كانَا يتكلّلان، كانَا يرفعان ألحان المجد".

١٩(٥): "سمعان رئيس الرسل وبولس المختار، قد تلمذَا روما العظمى لتعليم الربّ؛ فسمع وغضب الملك الأثيم نيرون الوثنيّ تلميذ الشرّير. فأمر وقتلهما كليهما معًا؛ وعندما تكلّلاَ، كانَا يهتفان: لك المجد، يا ربّ!".

٢٣(٧): "مفاتيحَ الملكوت أعطى ربُّنا لسمعان؛ وعلى باب البيعة أقام بولس. سمعانُ، ثلاث مرّات، اعترف أنّه يُحبُّه؛ وبولس تبدّل من ذئب إلى حمل".

٢٥(٢): "في تذكار الأبطال كارزيّ الإيمان، ألرُّسلِ المختارين والقدّيسين، سمعانَ الأساس، وبولسَ مختار الكنائس، وتوما الذي دُعي إلى الهند. هللويا. صلاتهم...".

٢٨(٢): "على سمعان الصّفا، وضع العريسُ السّماويُّ البيعة المقدّسة؛ وبولس كمّل بنيانها حتّى السّماء، إلى مكان دار الحياة، هللويا. حيث يسكن اليقظون".

٢٨(٥): "على صخرة الإيمان، صخرة بطرس وبولس، ها إنّ البيعة مبنيّة؛ ومعه رفاقه الأحد عشر، مثل العواميد يحملون زواياها، هللويا. فلن تهتزّ إلى الأبد".

٣٠(٧): "يا سمعانُ الصّفا، ويا بولسُ المختار وأيضًا مهندسَ بيعة القدس المؤمنة؛ بصلواتكما فليملك في الأرض السّلامُ والأمان؛ ولتُحفظ البيعة وأولادها".

٣١(٤): "سمعانُ الصّفا أساسُ بيعة القدس المؤمنة؛ وبولسُ المهندس الماهر الذي كمّل وأقام بنيانها. سمعان اعترف ثلاث مرّات أنّه يُحبّ الابن حقًّا! وبولس تبدّل وصار بدل الذئب حملاً بريئًا".

٣٥(١): "يا بطرسُ رئيسَ الرُّسل، ويا بولسُ مهندس البيعة، كونَا مُتضرِّعَين من أجل البيعة التي خطبتماها للوحيد؛ لتهدأ فيها الخصومات؛ والإيمان الحقّ فليتثبّت فيها حتّى الآخرة والنّهاية. باركوه".

٣٦(٧): "أساسُ البيعة بطرسُ رئيس الرُّسل؛ وأيضًا كمالُ بنيانها بولسُ المهندس الماهر. ألواحد يهتف: إجمعوا الحملان التي ضَلَّت؛ والآخرُ يفتح الباب للتّائبين".

٤١(ش): "يا سمعانُ الصّفا، ويا بولسُ المختار، بصلواتكما نلوذ".

٨- بولسُ والرُّسل

نصوص كثيرة تذكر بولس وباقي الرّسل، وجميعهم يحملون البشارة الجديدة إلى أقاصي المعمور؛ وهذا برهان ساطع على الوحدة العميقة وعلى الشركة الكنسيّة التي تربط بولس بالرسل، وقد ذُكر بعضهم بالاسم.

٤(٣): "ألرسل المختارون قد أُرسلوا إلى الأقطار الأربعة: سمعان الصّفا، وبولس المختار، وتوما ويوحنّا، كالمصابيح المضيئة. أشرق نور تعليمهم على الأقاصي كلّها".

٢٤(٢): "أُناسًا بسطاء، وصيّادي سمك، اختار ربُّنا ليكونوا تلاميذه: سمعانُ إلى روما، وتوما إلى الهند، وأيضًا يوحنّا وبولس إلى أفسس، ويعقوب كرز بالبشارة في أُورشليم. المجد له لأنّه اختارهم".

٣٥(٦): "إثنا عشر ثورًا مكدونون، جميعهم بنير واحد، وهم يحرثون؛ ألرُّسلُ الذين عنهم كتب بولس مهندس البيعة، وهم حاملون الصّليب مِحراثًا، يستأصلون ويطرحون الوثنيّة، وينصبون في الأرض البيع مثل السّوسن. باركوه!".

٣٦(٢): "أيُّها الرُّسل القدّيسون، تلاميذ الوحيد، سمعانُ وبولس ويوحنّا، يا كارزيّ الإيمان، كونوا طالبين من أجل البيعة التي خطبتم، لكي تُعْضَدَ بصلواتكم".

ألخلاصة

تناول هذا المقالُ شخصيّةَ بولس الرسول في **البيت غازو المارونيّ Add. 14.703** (القرن الثاني عشر- الثالث

عشر) من مكتبة المتحف البريطانيّ في لندن، في الجزء الأخير منه. ولقد حاولنا أن نستجمع أهمّ المعطيات التي يحتويها ٤٩ لحنًا عن الرسل؛ فكانت النتيجة كالآتي:

١- ألقابُ بولس عديدة، أهمّها: المهندس، وخطّاب البيعة، ورئيس كمال بنيانها.

٢- إختبار شاول-بولس على طريق دمشق محطّة مفصليّة في حياة الرسول؛ فالرؤيا أعمت مقلتيه، وذهبت به إلى حننيّا حيث اكتشف تفاصيل الحياة المسيحيّة والكنسيّة.

٣- تبدّل جذريّ في حياة بولس: من ذئب إلى حمل، ومن مُضْطَهِدٍ إلى مُضْطَهَد.

٤- حاملُ البشارة بالآلام والاضطّهادات؛ لم يتراجع ولم يضعف.

٥- باني البيعة، مثبّت مداميكها، وهادم الضّلال.

٦- معطي تعليم في الكهنوت لتيموتاوس وتيطس تلميذَيه.

٧- عامل مع بطرس ومتكامل معه في تأسيس الكنيسة الناشئة.

٨- وذُكر اسمه مع سائر الرسل في البشارة.

هذه، باختصار، صورةُ بولس في **البِيت غازو الماروني Add. 14.703**. إنّها عربون محبّة الكنيسة المارونيّة لرسول الأمم، وإطلالة في الألفيّة الثانية لمولده، وفعل إيمان راسخ بالكنيسة الواحدة، الجامعة، المقدّسة، الرسوليّة.

المراجع

- **البِيت غازو الماروني Add. 14.701A** (١٢٦٣م)، مجلّدان، جامعة الروح القدس- الكسليك ٢٠٠٠.
- **البِيت غازو الماروني Add. 14.703** (القرن الثاني عشر- الثالث عشر)، جامعة الروح القدس، الكسليك،
  - ج ١، **ألحانٌ لوالدة الإله**، ٢٠٠١؛
  - ج ٢، **ألحانٌ للشهداء**، ٢٠٠٢؛
  - ج ٣، **ألحانٌ للقيامة**، ٢٠٠٣؛
  - ج ٤، **ألحانٌ للتوبة**، ٢٠٠٤؛
  - ج ٥، **ألحانٌ للمنتقلين**، ٢٠٠٤؛
  - ج ٦، **ألحانٌ للصّليب**، ٢٠٠٥؛
  - ج ٧، **ألحانٌ للرسل**، ٢٠٠٥.
- **البِيت غازو الماروني Vat. Syr. 324** (القرن الثالث عشر)، جامعة الروح القدس الكسليك،
  - ج ١، **ألحانٌ للقيامة**، ٢٠٠٦؛
  - ج ٢، **ألحانٌ للتوبة**، مجلّدان، ٢٠٠٧؛
  - ج ٣، **ألحانٌ للشهداء**، ٢٠٠٨.

القدّيس بولس
في كتابات آباء الكنيسة اليونانيّين واللاتين

الأب أيوب شهوان
جامعة الروح القدس، الكسليك

مقدّمة

عَبَّر آباء الكنيسة، وهم قدّيسوها، وعلماؤها، وقادتها الروحيّون ومُلهِموها، في القرون الأولى (من الأوّل حتّى الثامن)، عن محبّتهم الشديدة للقدّيس بولس وإكرامهم العميق له، ودعوا المؤمنين إلى الاقتداء به، واكتناز تعاليمه، كما هو الأمر بالنسبة إلى قدّيسيّ العهدَين القديم والجديد[1]. وإذا ما أردنا أن نجمع المدائح التي قالوها فيه، وألقاب الشرف التي خلعوها عليه، لَتَطلَّبَ الأمر المجهودات الكبيرة والطويلة الأمد والمعمّقة والشاملة.

إنّ مصدر الشهادات الآبائيّة حول الرسول بولس هو إمّا كُتّابٌ ذائعو الصِيت، مثل القدّيسَين يوحنّا الذهبيّ الفمّ، وأغوسطينوس، وغيرهما كثيرون، وإمّا كُتّاب مجهولو الاسم أو مشكوك في هوّيّتهم، ولكنّهم يُعْتَبَرون كمرجعيّات هامّة في هذا المجال كونهم يشكلّون الوسطاء الأمناء بين التعليم البيبليّ التقليديّ وبين المؤمنين.

إعتبارًا من كون القدّيس بولس كاتبًا مُلهَمًا، وذا أهمّيّة استثنائيّة في المسيحيّة، كما يرى القدّيس غريغوريوس النِيصيّ الذي يدعوه "بولس الكبير" أو "العظيم"[2]، والقدّيس أغوسطينوس[3]، فإنّ رسائلَه تُقْرَأ كثيرًا في الكنيسة، وتُدْرَس بتوسّع وبتعمّق متواصلَين، حتّى ولو لم تُفْهَم دائمًا بشكل سليم وصحيح، إنْ في القديم وإنْ في أيّامنا أيضًا. وكما يحصل عادة بالنسبة إلى العظماء، وكما حصل ليسوع بالذات، انقسم الناس في شأن هذا الرسول؛ فناصَبَه بعضُهم العداءَ، كاليهود والمتهوِّدين[4]، والغنوصيّين[5] في القرون الأولى، وريثان في العصر الحديث[6]؛ وأظهر آخَرون الودّ تجاهه ولكن زورًا، مثل مرقيون[7] قديمًا وغيره

(١) يوحنّا الدمشقيّ، **الإيمان الأرثوذكسي** ٤: ١٥ي.

(٢) غريغوريوس النيصيّ، **توجيه حول التربية الدينيّة** ٣٢، ٨.

(٣) يوحنا الحلو (مترجم)، **اعترافات القدّيس أغوسطينوس**، سلسلة التراث الروحيّ، دار المشرق، بيروت ٢٠٠٣: ١٣، ٤٠.

(٤) "اتّهم المتهوّدون بولس بالمساومة على حقيقة الوحي الإلهيّ، لأنّه بات لا يُلزِم بالختانة مَن يهتدون على يده من الأمم إلى المسيح، وذلك، في نظرهم، طمعًا بعطف الأمم وكَسْبًا لرضاهم! يوجّه بولس الحرْم إلى أمثال أولئك المتهوّدين، مؤكّدًا لهم أنّ تحرير الأمم من شريعة الختانة ليس إلاّ أمانة للمسيح لا غير" (**الكتاب المقدّس، العهد الجديد، إونجليون**، جامعة الروح القدس، الكسليك ١٩٩٢، حاشية غل ١: ١٠).

(٥) "تقول أوساط العقلانيّين إنّ بولس تأثّر بالغنوصيّة، وإنّه خلق غنوصيّة مسيحيّة ليتجاوب والحاجات الدينيّة لدى الوثنيّين المهتدين. ولكن جاء مَن يبيّن أنّ هذا القول لا أساس له، وأنّ بولس ظلّ في التقليد اليهوديّ الصافي" (بولس الفغالي، "غنوصيّة"، في: **المحيط الجامع في الكتاب المقدّس والشرق القديم**، بيروت ٢٠٠٣).

(٦) Voir Ernest RENAN, *Saint Paul*, Paris 1869.

(٧) رج "Marcion", in *New World Encyclopaedia*، حيث نقرأ أنّ "مرقيون يؤكّد أنّ يسوع المسيح هو المخلّص الذي أرسله الله، وأنّ بولس هو رسوله الرئيسيّ... وإذ يركّز مرقيون على تقاليد الإنجيل البولُسيّة، يشعر أنّ نظريّات الإنجيل الأخرى كلّها هي معارضة للحقيقة. ينظر إلى حجج بولس المتعلّقة بالشريعة وبالإنجيل، بالغضب والنعمة، بالأعمال وبالإيمان، باللحم والروح، بالخطيئة والبرّ، بالموت والحياة، باعتبارها جوهر الحقيقة الدينيّة... كان قانون الكتاب المقدّس في نظره يقوم على ١١ كتابًا هي: ترجمته الخاصّة لإنجيل لوقا، وعشر رسائل لبولس. كلّ رسائل وأناجيل العهد الجديد الأخرى تمّ نبذها" (رج: *Eusebius' Church History*, Christian Classics Ethereal Library, 2008).

لاحقًا؛ وتصرّف بعضهم بأمانةٍ وصدق ومحبّة وإكرام، مثل أوريجانوس، والذهبيّ الفمّ، وغيرهما كثيرون.

إنّ آباء الكنيسة القدّيسين هم بالتأكيد أفضل القارئين لرسائل القدّيس بولس، وأكثر المتماهين مع شخصه وحياته بالطرق الأسمى وبالوسائل الأفعل؛ فَهُمْ يعرفون هذا الرسولَ الفريدَ وتعاليمَه معرفةً واقعيّةً ووجوديّةً، أي أنّ معرفتَهم هذه هي موجَّهة نحو الحياة والعَمَل، وليست بالتالي نظريّات مجرّدة لا طائل منها. فقد رأوا في بولس "مسيحًا آخَر" بامتياز، وذلك لأنّ قارئه يشعر أنّه أبدًا من الحاضر، اليومَ كما في زمانه، لأنّ يسوع يخلّد مَن يُحبّه حقًّا، كما عبّرت عن ذلك العذراء مريم بقولها: "ها منذ الآن تطوّبني جميع الأجيال" (لو ١: ٤٨)؛ أو كما قال يسوع: "الحقّ أقول لكم: حيثما تُعلَن البشارة في العالم كلّه، يُخبَر أيضًا بما صنعت هذه (المرأة)، إحياءً لذكرها" (مر ١٤: ٩). في الواقع، القدّيسون لا يزولون أبدًا، بل يبقون خالدين مثل يسوع المسيح معلّمهم وربّهم، الذي "هو هو أمس واليوم وإلى الأبد" (رج عب ١٣: ٨)، كما قال هو ذاتُه: "السماء والأرض تزولان، وكلامي لن يزول" (مت ٢٤: ٣٥)؛ أو أيضًا: "هاءنذا معكم طوال الأيّام إلى نهاية العالم" (٢٨: ٢٠).

هكذا كان الذهبيّ الفمّ (†٤٠٧)، مثلاً، يشعر أنّ بولس الرسول هو حيٌّ في كنيسة زمانه، وبنوع خاصّ في الليتورجيّا[٨]. في الواقع، لدى المسيحيّين، شعور بأنّهم أبناء روحيّون للقدّيس بولس، خاصّة بفضل أقواله النابضة بروح الأبوّة السامية: "أريد أن أنصحكم نصيحتي لأبنائي الأحبّاء؛ فقد يكون لكم ألوف الحرّاس في المسيح، ولكن ليس لكم عدّة آباء، لأنّي أنا الذي ولدكم بالبشارة، في المسيح يسوع" (رج ١ كو ٤: ١٤-١٥)؛ ويضيف: "يا بَنِيَّ، أنتم الذين أتمخّض بهم مرّة أخرى حتّى يُصوَّر فيهم المسيح" (غل ٤: ١٩). يلعب بولس دورًا جوهريًّا في حياة المؤمنين، كدور الأمّ (١ تس ٢: ٧) ودور الأب (١ تس ٢: ١١؛ ١ كو ٤: ١٥) في حياة أولادهم، لذا أهلُ غلاطية وأبناءُ كلّ الكنائس الأخرى التي أسّسها مدينون له بحياتهم، لأنّه بشّرهم بالمسيح، فكأنّي به قد ولدهم ولادةً روحيّة للمسيح، ولا يزال يعاني الآلام ويحتمل الصعوبات في سبيلهم وفي سبيل الإنجيل (٢ كور ٤: ١٠-١٢؛ كول ١: ٢٤-٢٥). نحن كلّنا، بالتالي، أبناء بولس بالروح، مَدينون له، ولعقيدته الموحاة، ولحياته المثاليّة، ولشهادته المُلهِمَة.

أ- معطيات آبائيّة حول بولس

ينقل إلينا الأدب الآبائيّ معلومات غير قليلة عن بولس، لا نجدها في كتب العهد الجديد، أقلّه بشكل صريح وواضح. سنكتفي ببعضها، أي بتلك التي تبدو الأهمّ والأكثر إفادة.

١ - بُنْيَة بولس وخُلُقه

نَدينُ بالمعلومات المتعلّقة ببُنْيَةِ بولس الجسديّة وبخُلُقِه وبسيرته لمؤلَّفٍ مجهول الكاتب يرقى إلى القرن الثاني، ويُدعى **أعمال بولس**[٩]، هو كناية عن سيرة هذا الأخير، حيث نجد ما هو مقبول وما هو أقلّ قبولاً. "لا شكّ في أنّ هذا الكتاب هو أحد المؤلّفات غير القانونيّة؛ ويدلّ استعمال أوريجانوس له على رواجه في الأصقاع المصريّة، في زمنٍ لم تكن فيه الأسفار القانونيّة قد ثُبّتَت. وما يجدر حقًّا التنبّه له هو أنّ المؤلَّف المذكور بات مفقودًا، فلا ينبغي الخلط إذًا بينه وبين مؤلَّفٍ منحول يُعرف بـ **أعمال بولس وتقلا**"[١٠].

(٨) يوحنّا الذهبيّ الفم، **في الكهنوت** ٤، ٩. الكاتب نفسه، **تقاريظ القدّيس بولس**، سلسلة النصوص التقريظيّة، المكتبة البولسية، لبنان ٢٠٠٢: ٤، ١؛ ٥، ١؛ بولس الفغالي، "مقالات في الكهنوت للقدّيس يوحنّا الذهبيّ الفمّ"، في: **يوحنّا الذهبيّ الفم في المئويّة السادسة عشرة لوفاته**، سلسلة آباؤنا المعلّمون ٢، المكتبة البولسيّة ٢٠٠٨، ص ٢٩-٥٠.

(٩) إسكندر شديد (ترجمة)، **أعمال بولس**، في: **الأعمال والرسائل المنحولة**، سلسلة الكنيسة في الشرق ٩، نسبيه-غوسطا ١٩٩٩، ص ١٥٣-١٩٥.
Les Actes de Paul, in: *Écrits apocryphes chrétiens* I, édition publiée sous la direction de François BOVON et Pierre GEOLTRAIN, Bibliothèque de la Pléiade, Gallimard 1997, p. 1115-1177.

(١٠) جورج خوّام، **أوريجانس، في المبادىء**، سلسلة الفكر المسيحيّ بين الأمس واليوم ٣١، منشورات المكتبة البولسيّة ٢٠٠٣، حاشية ١٥، ص ٨٦.

في كتاب **أعمال بولس وتقلا**[١١]، لدينا وصف موجز لبُنية بولس، هو التالي: " هو رَجُلٌ قصيرُ القامة، أصلع، رِجلاه مُقَوَّسَتان، مملوءٌ عافية، الحاجبان مُتَّصلان، الأنفُ معقوف قليلاً، وهو مملوءٌ لطفًا؛ فقد كان يبدو أحيانًا كإنسان، وأحيانًا أخرى كان وجهه يبدو كوجه ملاك"[١٢].

بعد ذلك، وفي **كتاب أعمال بولس** (٣)، يقدِّم هذا الأخيرُ ذاتَه إلى "الإخوة" في الإيمان قائلاً: "أنا خادمُ الله...، صغير ومجهول بين الأمم"[١٣]. قد يكون هذا المنحول هو المرجع المباشَر أو غير المباشَر للوحات مماثلة عن القدّيس العظيم، رَسَمَها كتّابٌ لاحقون، مثل يوحنّا مَلَلاس في القرن السادس[١٤] وغيره.

إنّ هذا الرسم لبولس هو بالتأكيد غير كامل، ولكنّه صالح إلى حدٍّ كبير لأنّه مبنيّ –أقلّه جزئيًّا– على معطيات من رسائله هو بالذات ومن كتاب أعمال الرسل، نورد في ما يلي بعضها: "ورُبَّ قائل يقول: إنّ الرسائل شديدة الوقع، قويّة العبارة، ولكن إذا حضر بنفسه، كان شخصًا هزيلاً، وكلامه سخيفًا" (٢ كو ١٠: ١٠)؛ في ذلك إشارة إلى هيئة بولس الخارجيّة، أو إلى اسمه "بولس" اللاتينيّ، الذي يعني "قليل، صغير"، أو إلى تواضعه وفقره وتصرّفه الوضيع؛ فحرّر ردًّا رائعًا ملؤه الحكمة المؤدَّبة والروح الأبويّة، هو التالي: "وأنا، أيُّها الإخوة، لَمَّا أَتَيتُكُم، ما أَتَيتُ ببَراعَةِ كَلِمَةٍ أَو حِكْمَة، مُبَشِّرًا إِيَّاكم بسِرِّ، إِذْ إِنّي ما قَضَيتُ أَن أَعْرِفَ بَينَكُم شَيئًا إِلاّ يَسُوعَ المَسيح، يَسُوعَ المَسيحَ مَصلُوبًا. وأَنا، بِضُعْفٍ وخَوفٍ ورِعدَةٍ شَدِيدَةٍ صِرْتُ إِلَيكُم، ولَم تَكُنْ كَلِمَتي وبِشارَتي بِكَلِمَاتِ حِكْمَةٍ مُقْنِعَة، بل بإِظْهَارِ رُوحٍ وقُوَّة، لِئَلاَّ يَكُونَ إِيمانُكُم قائمًا على حِكْمَةٍ مِن بَشَر، بل على قُوَّةِ مِنَ الله" (١ كو ٢: ١–٥).

ومن التّهم الموجّهة إلى بولس أنّه متواضع حليم، عندما يكون حاضرًا بينهم في كورنتس، ولا يُظهر جرأة عليهم إلاّ عندما يكون غائبًا عنهم، وهذا ما نقرأه في ٢ كو ١٠: ١: "أَنا بولسُ... المُتَواضِعُ بَينَكُم في الحَضْرَة، وفي الغَيبَةِ جَرِيءٌ عَلَيكم". يُجيب بولس على هذه التهمة فيقول: "إِن كُنْتُ أُمِّيًّا بالكَلِمَة، فَلَسْتُ كذلِكَ في المَعْرِفة" (١١: ٦).

ويلمح هو ذاته إلى فراره من وجه مطارديه في دمشق فيقول: "دُلِّيتُ في زنبيل من كوّة على السور، فنجوت من يديه" (٢ كو ١١: ٣٣)؛ هذا الحدث المذكور في أع ٩: ٢٤–٢٥، وقد بقي حدثًا مُذِلاً مؤلمًا، وفي الوقت نفسه موضوع فخر في ذاكرة بولس.

وعن أوضاع جسديّة خاصّة يقول بولس: "وإِنَّكُم ما احتَقَرْتُم ولا كَرِهْتُم ما كانَ لَكُم مِحْنَةً في جَسَدي، بل تَقَبَّلْتُمُوني كَأَنّي مَلاكٌ منَ الله، كَأَنّي المَسيحُ يَسُوع" (غل ٤: ١٤). كان مرض بولس جديرًا بأن يُبعد عنه أهل غلاطية، لكنّهم، بالرغم من ذلك، تعلّقوا به. غير أنّ قلب الغلاطيّين تغيّر وانحرف بسبب إخوة كذّابين يحرّفون الإنجيل، ويجرّحون بولس (رج غل ٦: ١٣). ولكن، وبالرغم من وهن جسده، تقبّله الغلاطيّون، لا كأنّه "ملاك من الله" فحسب، بل كأنّه، المسيح يسوع نفسه (رج ١ كو ٢: ٣–٥؛ ٢ كو ٤: ١٠–١٢).

وعن التزامه بنذر يقول لوقا: "ومكث بولس بضعة أيّام في كورنتس، ثم ودّع الإخوة وأبحر إلى سورية، ومعه برسكلّة وأكيلا، بعدما حلق رأسه في قنخريّة لنذر كان عليه" (أع ١٨: ١٨).

(١١) M. ERBETTA, *Gli apocrifi del NT* II, Marietti 1966, 242ss; B. ALTANER, *Patrologia*, Marietti 1977, p. 139s.

(١٢) **أعمال بولس وتقلا** ٢، ٣ (B. ALTANER, *Patrologia*, p. 259)؛ رج أيضًا:
János BOLLÓK, "The Description of Paul in Acta Pauli", in Jan N. BREMMER, *The Apocryphal Acts of Paul* and Thecla, Kampen 1996, p. 1-15; *Écrits apocryphes chrétiens*, *op. cit.*, p. 1129-1130; *Actes de Paul et de Thècle*, in Johannes Baptist BAUER, *Les apocryphes du NT*, coll. Lire la Bible, n. 37, Cerf, Paris 1973, p. 78 (Édition originale allemande : 1988); Robert GRANT, "The Description of Paul in the Acts of Paul and Thecla", *Vigiliae christianae*, 36 (1982) 1-4.

(١٣) B. ALTANER, *op. cit.*, p. 270.

(١٤) PG 97, 389; cf. B. ALTANER, *op. cit.*, 236.

فالنذر يمكن ، لغويًّا ، أن يكون نذرَ أكيلا أو بولس. ويُرجَّح أنّه نذر بولس، ولكن من غير المؤكَّد إذا كان هذا النذر غير ذاك الذي يَرِدُ ذكره في أع ٢١: ٢٣-٢٧، وهو تَرْك الشَّعر يسترسل، كما يفعل نذير الربّ (رج عد ٦: ٩-١٨).

كلّ هذه المعطيات سمحت للعديد من آباء الكنيسة بأن ينقلوا إلينا رَسْمًا روحيًّا وخُلُقيًّا عن الرسول بولس، لا أبهى ولا أجمل، كما فَعَلَ، مثلاً، أوريجانوس[١٥]، والذهبيّ الفم[١٦]، وأغوسطينوس[١٧]، وغيرهم.

٢ - بولس البتول

هناك تساؤل حول بتوليّة بولس، التي يُشْهَد لها بقوّة وبوفرة، انطلاقًا، على ما يبدو، من كتاب **أعمال بولس**، حيث نجد الرسول بصورة المُبشِّر بقوّةٍ بالتَعَفُّفِ الكاملِ، أي بالبتوليّة، حُبًّا بالله[١٨] وبالقريب. نجد هذه الصورةَ لبولس البتول أيضًا لدى ترتوليانوس[١٩]، وأوريجانوس[٢٠]، وأغوسطينوس[٢١]، وإيرونيموس (†٤١٩/٤٢٠) وغيرهم؛ ويمدح هذا الأخيرُ بولسَ على قراره بالبقاء بتولاً، فيقول: "بقي بولس بتولاً، ليس تنفيذًا لأمرٍ تلقّاه، بل بإرادة عفويّة خاصّة"[٢٢].

لكن بالتأكيد، تأثّر آباء الكنيسة بنوع خاصّ بما كتبه بولس حول البتوليّة، خاصّة في النصّ الشهير في ١ كو ٧: ٣٤: "المَرأَةُ العازِبةُ والعَذْراءُ تَهْتَمَّانِ بما لِلرَّبّ، لِتَكُونا مُقَدَّسَتَينِ جَسَدًا ورُوحًا". ممّا لا شكّ فيه أنّ تعليم بولس في هذا المجال قد ترك أثرًا كبيرًا في نفوس آباء الكنيسة، وهذا ما نتبيّنه من تعاليمهم كما من سِيَرِهم بالذات؛ نورد في ما يلي بعض الأمثلة:

قال القدّيس أمبروسيوس: "البتوليّة أحضرت من السماء ما يمكن تقليده على الأرض". وقال القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم: "إذا كنتم تريدون الطريق الأسمى والأعظم، فالأفضل ألاّ يكون لكم علاقة مع أيّة امرأة كانت". وقال ترتليانوس: "ما أكثر الذين نذروا البتوليّة من ذات لحظة عمادهم، وأيضًا ما أكثر الذين في الزواج منعوا أنفسهم بموافقة مشتركة عن استعمال الزواج، فجعلوا أنفسهم خصيانًا من أجل ملكوت السماوات" (مت ١٩:١٢)[٢٣].

لاحقًا، في القرن الرابع، أعرب القدّيس أثناسيوس الإسكندريّ، وهو أحد أعظم آباء الكنيسة المصريّة، عن اعتقاده بأنّ تعليمَ بولس حول البتوليّة المكرَّسة قد استُلهِمَت من مَثَل العذراء مريم، التي كان الرسول بولس يعرفها بشكلٍ ما. في **الرسالة إلى العذراء**، بعد أن رَسَمَ القدّيس أثناسيوس لوحةً خُلُقيّة وروحيّة عن العذراء مريم[٢٤]، قدّم الفَرَضيّة التالية:

"مِن المحتمل أنّ بولس أيضًا كان يعرف حياةَ مريم، لكونه قد أخذ نموذجَه منها كي يُبرِز رأيَه الخاصّ في البتوليّة. إليك السبب الذي لأجله كتب هكذا إلى أهل كورنتس: "في ما يتعلّق بالعذارى، ليس لي أمر من عند

(١٥) أوريجانوس، **في الصلاة** ٦، ٥. رج F. COCCHINI, *Il Paolo di Origene*, Roma 1992, 32ss.

(١٦) يوحنّا الذهبيّ الفم، **تقاريظ القدّيس بولس**، في عدّة أماكن من الكتاب.

(١٧) أوغسطينوس، **مدينة الله** ١٤، ٩، ٢؛ رج يوحنا الحلو (مترجم)، **مدينة الله للقدّيس أوغسطينوس**، ٣ مجلّدات، سلسلة التراث الروحيّ، دار المشرق، بيروت ٢٠٠٢.

(١٨) **أعمال بولس** ٢: ٥ي.

(١٩) ترتوليانوس، **إلى زوجته** ١، ٣، ٦.

(٢٠) أوريجانوس، **تفسير إنجيل متّى** ١٤، ١٦.

(٢١) أغوسطينوس، **في البتوليّة المقدّسة** ٤٠، ٤١.

(٢٢) إيرونيموس، **الرسالة** ٢٢، ٢٠؛ رج ٤٨، ٣.

(٢٣) نقلاً عن : http://st-takla.org

(٢٤) Cf. L. CIGNELLI, *Maria e la vita consacrata nei Padri della Chiesa*, Gerusalemme 2006, p. 42.

الربّ، بل أعبّر عن رأيي، كونُ الربِّ قد أنعم عليّ بأن أكون أهلاً للثقة" (١ كو ٧: ٢٥). أنا أعتقد أنّكم أنتم أيضًا قد فهمتم جيدًا أنّ هذا قد قيل (مِن قِبَل بولس) على أثر ملاحظة...، كونُ صورته (صورة البتوليّة) لم تظهر إلاّ في مريم". وإذ يكمل بعد ذلك تفكيره، يُسقط القدّيسُ عبارةَ "من المحتمل" التي تعني شيئًا من الشكّ، فيقول: "في الواقع، هو أيضًا، أي بولس، لم يعرفها (أي البتوليّة المكرسَّة) من خلال الشريعة (الموسويّة)، بل استخلص هذه التوصيات من سلوك مريم، كما قلت قبلاً"[٢٥].

٣ – هل عرف بولس العذراء مريم؟

لا تأتي نصوص العهد الجديد على ذكر معرفة القدّيس بولس للعذراء مريم أبدًا؛ بالمقابل، يبدو أنّ الأدب الآبائيّ يُفيد بعضَ الشيء عن هذا الموضوع؛ فآباء الكنيسة قد تنبّهوا إلى الأمر، ولم يهملوا شيئًا يتعلّق بالحياة المسيحيّة، لا بل تحرّوا عن كلّ الأبعاد الجوهريّة، بما في ذلك "البعد المريميّ"، كما فعل بولس، ولو بإشارة سريعة إلى الأمر، وكما كتب البابا يوحنّا بولس الثاني، في رسالته **أمّ الفادي**: "هوذا ابنك! نتبيّن في هذه الكلمات، بوضوح كلّيّ، سبب هذا البُعد المريميّ في حياة تلاميذ المسيح، ليس فقط في حياة يوحنّا الحاضر في تلك الساعة عند قدمَيّ الصليب مع أمّ معلّمه، بل في حياة كلّ تلميذ للمسيح، وكلّ مسيحيّ. إنّ البعد المريميّ في حياة تلميذ المسيح، يُعبَّر عنه، بشكل خاصّ، بهذه التقدمة البنويّة بالذات لوالدة الاله، تلك التي بدأت في وصيّة الفادي على الجلجلة؛ فالمسيحيّ، إذ يقدّم ذاته بروح البنوّة، لمريم، على غرار الرسول يوحنّا الذي أخذها إلى بيته الخاصّ[٢٦]، يكون له، في عداد ما يخصّه شخصيًّا، أمّ المسيح، فتدخل في مدى حياته كلّها، أعني في الأنا الإنسانيّة والمسيحيّة التي له"[٢٧].

وفي كتاب **أعمال بولس**، يحارب الرسول الهرطقة الدوسائيّة، ويطلب من مؤمنيّ كورنتس محاربة هذه الأخيرة كما يفعل هو، ويعلّم بوضوح وبقوّة، ليس فقط السرَّ الفصحيّ، بل أيضًا السرَّ الميلاديّ، أي التجسّد الخلاصيّ بواسطة العذراء مريم[٢٨]. لِنُدرِج هنا نصًّا صريحًا وملفتًا من كتاب **أعمال بولس** بالذات يتكلّم على التجسّد في إطار تاريخ الخلاص: "بعد سقطة الأبوَين الأوّلَيْن بتحريض إبليس (تك ٣)، لم يشأ الله الكلّيّ القدرة والعادل أن يطرد خليقته طردًا تامًّا، بل ترأّف بهما من السماء، فأرسل روحَه إلى الجليل إلى **مريم**، التي آمنتْ من كلّ القلب، وقَبِلَت الروح القدس في حشاها، بطريقة استطاع بها يسوع أن يأتي إلى العالم. وهكذا هُزِم الشرّير (الشيطان) بالجسد عينه الذي به كان قد انتَصَرَ، واتّضح بالتأكيد أنّه لم يكن الله"[٢٩]. يفسّر هذا النصُّ ما ورد في غل ٤: ٤ ("مولود من إمرأة")، وهو النصّ الوحيد الذي يتكلّم فيه بولس صراحةً عن أُمّ ابنِ الله، الذي صار إنسانًا: "لمَّا أَتى مِلْءُ الزَّمَن، أَرْسَلَ اللهُ ابنَهُ مَولُودًا مِن امْرَأَة، مَولُودًا تَحتَ الشَّريعة". يشير بولس إلى أمّ يسوع، داعيًا إيّاها "امرأة"، دلالة على سرّ تجسّد ابن الله، وانتمائه إلى جميع الناس بغير استثناء. في هذا النصّ، وهو أقدم نصّ في العهد الجديد عن العذراء مريم، تشديدٌ على الدور الفريد الذي جعله الله للعذراء مريم، امرأة العهد الجديد، في تدبيره الخلاصيّ.

وينبغي لفت الانتباه إلى أنّ كتاب **أعمال بولس** المنحول يركّز على إيمان

(٢٥) ATHANASE, *Lettres festales*, CSCO 151, 62; cf. ERBETTA, p. 72.

(٢٦) أغوسطينوس، **مقالة في إنجيل يوحنّا** ١١٩، ٣: "استقبلها عنده، لا في منزله، لأنّه لم يكن يملك شيئًا يخصّه، بل أفسح لها مكانًا في المسؤوليّات التي كان يكرّس ذاته لها من كلّ قلبه".

(٢٧) يوحنّا بولس الثاني، **أمّ الفادي، رسالة عامّة في الطوباويّة مريم العذراء في حياة الكنيسة عَبر مَسيرتها على الأرض**، الفاتيكان ١٩٨٧، ٤٥ي، ص ٨٦.

(٢٨) ERBETTA II, p. 258

(٢٩) **أعمال بولس** ٧، ٣، ر ج ٧، ٢ي.

العذراء مريم السخيّ والمتأهّب؛ هذا ما نجده لدى القدّيسَين يوستينوس[٣٠] وإيريناوس[٣١] المعاصرَين للكتاب المذكور.

٤ – كتاب انتقال مريم

هو كتاب منحول أيضًا، يرقى إلى القرن الثاني، يجعل بولسَ، وكان لا يزال "حديثَ الإيمان"، يلتقي العذراءَ مريم التي كانت على وشك الموت[٣٢]. ومع كلّ الرسل الباقين الذين توافدوا إلى أورشليم بطريقة عجيبة لتشييع جثمان العذراء مريم، بمن فيهم بولس، الذي دخل "بيتَ مريم" وتكلّم إليها قائلاً: "يا مريم أختنا، وأمّ المخلّصين كلّهم، لتكن نعمةُ الربّ معك"؛ ثمّ أخذ يدها وقال لها: "فليباكِكِ الربُّ، مخلّص الجميع"[٣٣].

عمليًّا، نَسَبَ مؤلّفُ هذا المنحول، وهو يهوديّ مسيحيّ تقيّ وذو إحساس مرهَف، إلى الرسل الآخَرين، بمن فيهم بولس، مشاعرَ وكلماتِ يوحنّا الإنجيليّ، الرسول الحبيب والأمين: "فرأى يسوع أمَّه وإلى جانبها التلميذ الحبيب، فقال لأمّه: أيّتها المرأة، هذا ابنك. ثم قال للتلميذ: هذه أمّك. ومنذ تلك الساعة قبلها التلميذ في بيته" (يو ١٩: ٢٦-٢٧)[٣٤].

ماذا يمكن الاعتقاد في هذا الأمر هنا وفي أخبار أخرى، مصدرها من خارج كتب العهد الجديد، حول بولس الرسول؟ بالتأكيد هناك مجال لمناقشتها. لكن لا يجوز نَبْذُها بالمطلق لمجرّد أنّها غير موجودة في أسفار العهد الجديد. نحن نعلم أنّ التقليد، الذي نقله إلينا آباء الكنيسة، يشمل أيضًا وخاصّة معطيات الكتاب المقدّس، كما اعتقدت الكنيسة دائمًا[٣٥].

٥ – بولس والبتول القدّيسة والشهيدة تقلا

ما نعرفه عن القدّيسة تقلا وعن دور القدّيس بولس في اهتدائها إلى الإيمان المسيحيّ يأتينا من كتاب **أعمال بولس** أيضًا الذي يفيدنا بأنّ هذا الأخير، عندما كان يعظ في إيقونية (في آسيا الصغرى)، ردّ إلى الإيمان عذراء شريفة النَسَب، تركت خطّيبها فورًا وأصبحت مثل "مريمَ" بالنسبة إلى الرسولِ بولس، إذ تتلمذت له وعاونته بأكثر ما يكون من الأمانة في التبشير بالإنجيل[٣٦]. في الكتاب عينه تُطلَق على تقلا ألقابُ شرفٍ مختلفة، مثل "أمَة المسيح"، وبرسولة الله وبتولته"[٣٧].

سيَقْبَل العديد من آباء الكنيسة هذه الرواية ويقدّرونها حقّ قدرها، كالقدّيس أمبروسيوس (٣٩٧)[٣٨] الذي يقدّم القدّيسة تقلا مثالاً للعذارى المكرّسات مباشرةً بعد السيّدة العذراء[٣٩]. وإذا اعتمدنا هذه المعلومات وقبلنا بها، لا يكون بولس عندها إطلاقًا ذا ميولٍ عدائيّة تجاه النساء، كما يُشيِّع البعض اعتباطيًّا ودون أيّ مرتكزات تثبت ذلك أو حتّى تسمح بالإيحاء به.

(٣٠) القدّيس يوستينوس، **الدفاع عن المسيحيّين. الحوار مع تريفون**، تعريب جورج نصّور، أقدم النصوص المسيحيّة، سلسلة النصوص الليتورجيّة ٧، الكسليك ٢٠٠٧، ص ٣٠٥-٣٠٧: ١٠٠.

(٣١) إيريناوس، **ضدّ الهرطقات** ٣، ٢٢، ٤. رج L. CIGNELLI, *Maria nuova Eva nella patristica greca,* Assisi 1966, 31-39.

(٣٢) *Transitus Romano* 22s. 45 : ERBETTA, *op. cit.*, I/2, Marietti 1981, 468.471.

(٣٣) **انتقال مريم**، فصل ٢٨.

(٣٤) Cf. L. CIGNELLI, " Il rapporto Maria-Giovanni evangelista nell'exegesi patristica", in AA.VV., *Tuo padre e io ti cercavamo (Lc 2, 48)*, Jerusalem, Studium Theol. Salesianum 2007, 314-318.

(٣٥) يوحنّا الدمشقيّ، **الإيمان الأرثوذكسيّ**، ٤: ١٢، ١٦؛ الدستور العقائديّ في **الوحي الإلهيّ، كلام الله** ٨ي. رج أيضًا القديس يوحنّا الدمشقيّ، **المئة مقالة في الإيمان الأرثوذكسيّ**، عرّبه عن النصّ اليونانيّ أدريانوس شكّور، سلسلة الفكر المسيحيّ بين الأمس واليوم، المكتبة البولسيّة، لبنان ١٩٩١.

(٣٦) **أعمال بولس** ٢، ٧ – ٤٣؛ رج: ERBETTA II, 260 - 269.

(٣٧) **أعمال بولس** ٢ – ٤٣.

(٣٨) cf. H. SAVON. *Ambroise de Milan (340-397)*, Deselée, Paris 1997.

(٣٩) امبروسيوس، **عظات حول البتوليّة** ٢، ٣، ١٩– ٢١.

٦ – القدّيس بولس الكاتب

يتكلّم آباء الكنيسة ، وهم المثقّفون والعلماء العارفون، على بولس الكاتب، فيُبرزون غنى فكره الفريد وعمقَه، من جهة، ويبيّنون الصعوبات غير القليلة والمتنوّعة التي يصادِفها قرّاؤه في أسلوبه، من جهة ثانية. وعلى خلاف يوحنّا الإنجيليّ الذي يجمع العمقَ العقائديّ وبساطةَ الأسلوب، نجد لدى بولس أنّ العمقَ العقائديّ هو الأقوى.

يلاحظ الذهبيّ الفمّ أنّ "بولس يُعنى دائمًا بأن يعبّر عن أفكاره بأقصى ما يكون من الوضوح"[٤٠]. ولكن قد يكون من التجاسر أن نطرح السؤال حول نجاحه دائمًا في ذلك. في الواقع، ليس قليلاً عددُ الكتّاب القدماء والحديثين الذين يشيرون إلى ذلك، بدءًا برسالة بطرس الثانية حيث نقرأ: "وقد ورد في رسائله أمور غامضة يحرّفها الذين لا عِلمَ عندهم ولا ثبات، كما يفعلون في سائر الكتب، وإنّما يفعلون ذلك لهلاكهم" (٣: ١٦). ويقول أوريجانوس (٢٥٣/٢٥٤) في هذا السياق بأنّ "بولس يستعمل مراحل هي أحيانًا مختلِطَة وقليلة الوضوح، ويركم أفكارًا فوق أفكار إلى حدّ تعقيد الأمور"[٤١]. ويشكّل ما كتبه إيرونيموس صدى لأوريجانوس، فيلفت الانتباه إلى أنّ الرسالة إلى الرومانيّين "هي متلوّية وغامضة إلى حدّ أنّه، من أجل فهمها، يتطلّب الأمرُ معونةَ الروح القدس؛ فهو الذي، آخِر الأمر، مَن أَمْلَى نَصَّها مستخدمًا الرسول لهذه الغاية"[٤٢]. ويشير أغوسطينوس (†٤٣٠) إلى أمر ملفت آخَر، وهو أنّه، بين عدّة أمور، يقول بأنّه "مذعور" من تعقيد هذه الرسالة البولُسيّة، إلى حدّ التخلّي عن تفسيرها كاملة[٤٣]. كذلك لا يُخفي شارحو رسائل بولس الحديثون الصعوبات التي يواجهونها في مهمّتهم.

في الحقيقة، إنّ قراءة رسائل بولس، وهو الرّابيّ المسيحيّ العالِم، ليست بالأمر السهل؛ فهو مفكّر قدير، وعميق، ومُثقَل بالمعرفة، يطفح كيانُه عقيدةً وشغفًا؛ هذا ما لفت الانتباهَ إليه القدّيسُ إيرونيموس الذي يقول: "أودّ أن أستشهد ببولس الرسول: في كلّ مرّة أقرأه، يبدو لي أنّني اسمع أصواتًا وليس كلمات"[٤٤]. في كلّ حال، عندما يكون المسيح "في قلب"[٤٥] قارىء بولس، كما كان بالنسبة إلى هذا الأخير، ويكون له الحَدْسُ لإدراك سرّ الحقّ والمحبّة[٤٦]، لا ينتهي عندها الكلام عليه والتبشير به، إذ تكون هناك رغبة في القول دائمًا أكثر وبالطريقة الأفضل.

٧ – استشهاد في روما أيّام نيرون

يتوقّف كتاب أعمال الرسل، في سرده أعمال بولس، مع سجن هذا الأخير في روما، حيث "مكث سنتين كاملتَين في منزل خاصّ استأجره، يستقبل جميع الذين كانوا يأتونه، ويعلن ملكوت الله، ويعلّم بكلّ جرأة ما يختصّ بالربّ يسوع المسيح، لا يمنعه أحد" (أع ٢٨: ٣٠-٣١). كان العامان المُدّة القُصوى، التي يحقّ للسلطة الرومانيّة أن تسجن متّهمًا دون حكم قضائيّ. وكان على الوالي، وقد مَرّ العامان على سَجن بولس في

(٤٠) يوحنّا الذهبيّ الفم، **عظات في الأولى إلى الكورنثيّين** ٣٠، ٢.

(٤١) أوريجانوس، **تفسير الرسالة إلى الرومانيّين**، المقدّمة.

(٤٢) إيرونيموس، **الرسالة** ١٢٠، ١٠.

(٤٣) AUGUSTIN, *Retractationes* 1, 25.

(٤٤) إيرونيموس، **الرسالة** ٤٩، ١٣.

(٤٥) "وأسأله أن يهب لكم... أن يقيم المسيح في **قلوبكم** بالإيمان..." (رج أف ٣: ١٦-١٧).

(٤٦) "أنا أصغر صغار القدّيسين جميعًا وُهبت لي هذه النعمة، وهي أن أبشّر الوثنيّين بما في المسيح من غنى لا يُسبر غوره، أمكنكم أن تدركوا مع جميع القدّيسين ما هو العرض والطول والعلوّ والعمق، وأبيّن كيف حقّق ذلك السرّ الذي ظلّ مكتومًا طوال الدهور في الله خالق جميع الأشياء" (أف ٣: ٨-٩). ونقرأ أيضًا في فل ٣: ٧-٨: "إلاّ أنّ ما كان في كلّ ذلك من ربح لي عددته خسرانًا من أجل المسيح، بل أعدّ كلّ شيء خسرانًا من أجل المعرفة السامية، معرفة يسوع المسيح ربّي. من أجله خسرت كلّ شيء، وعددت كلّ شيء نفاية لأربح المسيح".

قيصريّة، أن يُطلقه، و لم يفعَل (أع ٢٤: ٢٧)، لكن، على الأرجح، حصل ذلك في روما (٢٨: ٣٠). لا يفيد لوقا عمّا حدث لبولس بعد هذين العامَين: هل صدر الحكم عليه ، أو أُطلق سَراحه؟ فهَمُّ لوقا أن يَصِلَ بولس إلى روما، ويبشّر بيسوع المسيح في عاصمة العالم الوثنيّ، تنفيذًا لوصيّة يسوع بالذات: "وتكونونَ شُهُودي في أُورشَليم، وفي كُلِّ اليَهوديَّة والسامرة، حتَّى أَقاصي الأَرض" (أع ١: ٨). أثناء هذين العامَين، كتب بولس، وهو في سجنه، رسائله إلى أهل كولسّي، وأفسس، وإلى تلميذه فيلمون، وبشّر بالانجيل، ممّا يعني أنّ كلمة الله تبقى غير مقيَّدة (رج ٢ تم ٢: ٩)، بالرغم من كلّ ما تتعرّض له من مضايقات وخطر واضطّهاد، وتبلغ إلى أقاصي الأرض.

وما نعرفه عن المرحلة التي تلت يأتينا من الأدب الآبائيّ؛ فالقدّيسُ إكليمنضوس الروماني[٤٧] يشهد، في القرن الأوّل، على استشهاد بولس في روما: "ونتيجةً للحسد والشقاق، أظهرَ كيف تُنالُ جائزةُ الصبر. وبعد أن كُبِّلَ بالسلاسل سبع مرّات، ونُفيَ ورُجِمَ، وبعد أن أصبح بشيرًا في الشرق والغرب، نال من أجل إيمانه مجدًا ساطعًا. وبعد أن علَّم العدلَ للعالَم أجمع، وبلغَ أطرافَ الغرب، وأتمَّ جهادَه أمام الحكّام، غادر هذا العالَم، وذهب إلى مقرّ القدّيسين، تاركًا مثالاً رائعًا للصبر"[٤٨]. ويتكلّم كتاب **أعمال بولس** على الأمر عينه أيضًا بتوسّع ومع تفاصيل عديدة، وعنه سيقتبس كتّابٌ آخَرون ويتوسّعون فيه[٤٩].

ويوجز البابا بندكتوس السادس عشر ما تجمّع لديه من معطيات حول استشهاد بولس، ويعرضها في تعليمه كما يلي: "**يُجمع التقليد المسيحيّ القديم على الشهادة بأنّ القدّيس بولس مات شهيدًا هنا في روما**. لا تورد كتابات العهد الجديد الخبر. ويختتم كتاب أعمال الرسل سرده مشيرًا إلى حالة الرسول السجين، الذي كان يستطيع استقبال كلّ مَن يرتاده (رج أع ٢٨: ٣٠-٣١). فقط في الرسالة الثانية إلى تيموتاوس نجد كلمات التنبيه التالية: "أمّا بالنسبة إليّ، فها إنّ دمي سيُسفَك كقربان، وقد اقتربت ساعة إرخاء أشرعتي" (٢ تم ٤: ٦؛ رج فل ٢: ١٧). يتمّ استعمال صورتَين، صورة القربان الطقسيّة، والتي سبق واستعملها في الرسالة إلى أهل فيلبّي مفسِّرًا الشهادة كجزء من ذبيحة المسيح، وصورة بحريّة تتمثّل بإلقاء المرساة، وهما صورتان تُشيران سويّة وبشكل حصيف إلى حدث الموت، الموت الدامي"[٥٠].

ويضيف البابا قائلاً: "إنّ الشهادة الأولى الواضحة حول نهاية القدّيس بولس تأتينا في أواسط العقد التاسع من القرن الأوّل، أي بعد نحو ٣٠ عامًا من موته الفعليّ. نحن بصدد الرسالة التي كتبَتها كنيسةُ روما، بواسطة أسقفها **أكليمنضوس، إلى كنيسة كورنثوس**. في هذا النصّ، يدعو الأسقف الكورنثيّين إلى إبقاء مثالِ الرسولِ نُصْبَ أعينهم. وبعد ذكر استشهاد بولس، نقرأ ما يلي: "بسبب الغيرة والخصام، اضطرّ بولس أن يُظهر لنا كيفيّة الفوز بإكليل الصبر؛ فقد أُلقِي القبض عليه سبع مرّات، ونُفي، ورُجم، وكان سفير المسيح في الشرق والغرب، ولأجل إيمانه حاز مجدًا نقيًّا. بعد أن بشّر بالبرِّ في كلّ العالم، وبعد أن وصل إلى أقاصي الغرب، حاز الشهادة أمام الولاة؛ وبهذا الشكل فارق هذا العالم، ووصل إلى الموضع

(٤٧) إقليمندُس الروماني، **الرسالة إلى الكورنثيّين**، تعريب جورج نصُّور، أقدم النصوص المسيحيّة، سلسلة النصوص اللاهوتيّة ١، الكسليك ١٩٧٥. رج :
Épitre de Clément de Rome aux Corinthiens. Traduction de Suzanne-Dominique, in *Les Pères Apostoliques*, coll. Foi vivante, Cerf, Paris 1990.

(٤٨) إقليمندُس الروماني، **الرسالة إلى الكورنثيّين**، المرجع السابق، رقم ٥: ٥-٧، ص ١٨.

(٤٩) **أعمال بولس** ٩: ٣-٧؛ أنظر أيضًا: إيرونيموس، **حول مشاهير الرجال** ٥؛ أوزابيوس القيصريّ، **التاريخ الكنسيّ**، ٢، ٢٥. رج:
M. ERBETTA, *op. cit.*, II, 285-288.

(٥٠) بندكتوس السادس عشر، **القدّيس بولس مات شهيدًا هنا في روما**، مقابلة الأربعاء العامّة، ٤ شباط ٢٠٠٩.

المقدّس، فصار بهذا مثالَ الصبر الأكبر" (١ أكليمنضوس ٥: ٢)[٥١].

ومن مقال للباحث دانيال مارجورا[٥٢] حول اختتام كتاب أعمال الرسل، نستنتج أنّ لوقا قد لجأ على ما يبدو إلى "بلاغة الصمت" التي تدفع القارىء إلى أن يتبيّن بنفسه كيفيّة انتهاء حياة بولس الأرضيّة، وإلى أن يختم بالتالي الرواية وفق منطق الأحداث، خاصّة وفق الخبرَين الأخيرَين في أع ٢٨، أي: النقاش اللاهوتيّ مع البعثة اليهوديّة الرومانيّة (آ ١٧-٢٨)، ومشهد الرسول وهو يبشّر في عاصمة الأمبراطوريّة (آ ٣٠ي). هذا ما دفع ببعض آباء الكنيسة إلى محاولة إيجاد أجوبة توضح سبب اعتماد هذه الطريقة في آخِر كتاب أعمال الرسل، وإلى معرفة كيفيّة انتهاء حياة بولس في مدينة روما.

ب - وجه بولس بحسب آباء الكنيسة

لننتقل الآن إلى إبراز بعض النواحي من وجه القدّيس بولس، الذي توقّف عنده آباء الكنيسة وفكّروا فيه مليًّا. ولكن ما يقوله هؤلاء في هذا المجال ما هو إلاّ تعليقٌ على ما قاله الرسول على ذاته في رسائله وتفسيرٌ له.

١ - بولس المشغوف بالمسيح

يكشف القدّيسُ بولسُ ذاتُه عن شغفه حتّى الجنون بالمسيح الإله والإنسان، وعن أنّه قد تذوّق "غناه الذي لا يُسْتَقصى"، كما جاء في رسالته إلى أهل أفسس: "أبشّر الوثنيّين بما في المسيح من غنى لا يُسبر غوره" (أف ٣: ٨)؛ يجري التشديد هنا على فيض عطايا الله لنا، من "غنى المسيح الذي لا يُستقصى" (٣: ٨) إلى "حِكمة الله المتنوّعة" (٣: ١٠)، وإلى "إدراك ما العرض والطول والعلو والعمق" (٣: ١٨)، وكلّها تعابير حِكَميّة (رج سي ١: ٣). ويكمل بولس في كول ٢: ٣ قائلاً: "فهو الذي تكمن فيه جميع كنوز الحكمة والمعرفة"؛ من الواضح أنّ السرّ هو المسيح نفسه (١: ٢٧)، حكمة الله (١ كو ١: ٢٤، ٣٠)، الخفيّة المكتومة (١ كو ٢: ٧)، التي لا يُستقصى غناها، لأنّها تفوق المعرفة (أف ٣: ٨، ١٩). ويضيف بولس: "ففي المسيح يحلّ ملء الألوهيّة كلّه حلولاً جسديًّا" (كول ٢: ٩). يُحَدَّد "الملء" هنا بلفظتين متّصلتَين في النصّ اليونانيّ، هما "الألوهة" و"جسديًّا"، مثل "الكلمة" و"اللحم" في يو ١: ١٤. جسد المسيح القائم من الموت، الحامل فيه الخلقَ أجمع، يحوي "ملءَ الألوهة كلّه"؛ فيه تتجمّع الحياة الإلهيّة، ومنه تتدفّق قوّةً خلاصيّةً على الإنسانية كلّها وعلى الكون أجمع.

لقد أدرجنا هذه الآيات من رسائل بولس لنُبرز مدى غوصه في سرّ الله، وإدراكه لحكمته الإلهيّة، وبالنتيجة لنتبيّن شدّة محبّته ليسوع وشغفه به. هذا ما أدركه آباء الكنيسة، لذلك راحوا يعظّمون محبّةَ الرسول للمسيح يسوع، ويسعون إلى أن يقتدوا به. في هذا المجال أطلق الذهبيُّ الفمّ قولَه الرائع في بولس، وهو التالي: "لم يُحِبَّ أحدٌ المسيحَ أكثرَ من بولس"[٥٣]؛ هذا يعني أنّه لم يُحِبَّ أحدٌ الناسَ، بمن فيهم الأعداء، أكثر منه[٥٤]، انطلاقًا من كون المحبَّتَين غير قابلتَين للانفصال، كما يعلّمنا القدّيس يوحنّا في رسالته الأولى: "إذا قال أحد: أنا أحبّ الله، وهو يكره أخاه، كان كاذبًا، لأنّ الذي لا يحبّ أخاه وهو يراه، لا يقدر أن يحبّ الله وهو لا يراه. وصيّة المسيح لنا هي: مَن أحبّ الله أحبّ أخاه أيضًا" (١ يو ٤: ٢٠-٢١). بالنسبة إلى القدّيس بولس، يقول الذهبيّ الفمّ، "كانت محبّة المسيح الأمرَ الأسمى من كلّ أمر"، وبالتالي ينبغي أن تتقدّم على أيّ حُبٍّ آخَر[٥٥].

(٥١) المرجع السابق

(٥٢) Daniel MARGUERAT, "Et quand nous sommes entrés dans Rome" . L'énigme de la fin du livre des Actes (28,16-31)", *Revue d'Histoire et de Philosophie Religieuses* 73/1 (1933) 1-21.

(٥٣) يوحنّا الذهبيّ الفم، **في الكهنوت** ٢، ٥.

(٥٤) يوحنّا الذهبيّ الفم، **تقاريظ القدّيس بولس** ٣، ٢.

(٥٥) يوحنّا الذهبيّ الفم، **تقاريظ القدّيس بولس** ٣، ٢؛ رج مت ١٠: ٣٧ي.

وكان أوريجانوس قد لفت الانتباه إلى الأمر عينه عندما قال: "نحن أيضًا، عندما نفكّر ببولس، لا نظنّ أنّه يمكن أن يوجد أحدٌ قادر على أن يتفوّق عليه في محبّة المسيح"(٥٦).

٢ – بولس الشاهد للمسيح

أن يكون بولسُ شاهدًا للمسيح، فهذا نتيجة طبيعيّة لما ورد أعلاه عن شغفه بالربّ يسوع. إنّ المحبّة تجعل المُحِبَّ مطابقًا للمحبوب، الذي يجعل منه شاهدًا حقًّا ونسخةً، إذا جاز التعبير، مطابقة للنموذج. في الواقع، يصبح المرءُ ما يُحبّ، كما يقول القدّيس أغوسطينوس: "كلٌّ واحد هو كما الحبُّ الذي عنده"(٥٧). يحوّل الحبُّ بولسَ إلى "مسيح آخر"، يجعل منه تَجَلّيًا مثاليًّا للمسيح، وبالتالي، إنسانًا متفوّقًا حقًّا؛ هذا ما يقوله هو نفسُه بافتخار ولكن باتّضاع: "لأنّي بالشريعة مُتُّ عن الشريعة لأحيا لله، وقد صُلبتُ مع المسيح" (غل ٢: ١٩)؛ ويضيف قائلاً: "وكانت حالتي الجسديّة محنة لكم، فلم تزدروني، ولم تشمئزّوا منّي، بل قبلتموني قبولكم لملاك الله، قبولكم للمسيح يسوع" (٤: ١٤)؛ وأيضًا: "فالحياة عندي هي المسيح، والموت ربح" (فل ١: ٢١)؛ وأيضًا: "أستطيع كلّ شيء بذاك الذي يقوّيني" (٤: ١٣). من هذه الآيات ومن مجمل رسائله نستنتج أنّ همّه الأوحد كان محصورًا بأن يعلن "يسوعَ المسيح، وهو مصلوبًا" (١ كو ٢: ٢؛ ١٥: ٣ي)، وقائمًا من الموت؛ فبالنسبة إليه هو وحده الضروريّ الأوحد، وهو "الكلّ": "المَسيحُ هُوَ الكُلُّ وفي الكُلّ" (كول ٣: ١١)؛ على المؤمن أن يسعى إلى تحقيق الوحدة الكاملة، حتّى يصير المسيح، أوّلاً، ثم الله الآب، آخرًا، الكلّ في الكلّ. بالمعنى ذاته يقول في ١ كو ١٥: ٢٨: "لكِنْ مَتى أُخضِعَ للابنِ كُلُّ شَيء، فحِينَئذٍ يُخضَعُ الابنُ نَفْسُهُ للذي أَخضَعَ لَهُ كُلَّ شَيء، حتَّى يَكونَ اللهُ الكُلَّ في الكُل"؛ إنّها صورة رائعة للمرحلة الأخيرة النهائيّة من تاريخ الخلاص، حين يصبح اللهُ السيّدَ الأوحدَ المُطاع، والكلُّ خاضعًا له، وهو الكلّ في الكلّ. في الواقع، وراء بولس هناك يسوع وكلمتُه الكلّيّة القدرة وعملُه الخلاصيّ. لذلك، إنّ ما يقوله الذهبيّ الفمّ في بولس هو أكثر من صحيح، لأنّ "قلبَ بولسَ هو قلبُ المسيح"(٥٨).

كما نرى، يهوى آباءُ الكنيسة تعظيمَ القدّيس بولس وتفوّقَه على الناس الباقين وعلى كلّ المخلوقات. بالنسبة إلى البابا القدّيس إكليمنضوس، هذا الرسول هو "النموذج الأسمى للصبر"(٥٩). وبالنسبة إلى القدّيس بُوليكربّوس† ١٠٠)، "لا مثيل للطوباويّ والمجيد بولس"(٦٠)؛ كذلك هو الأمر في نظر القدّيس أمبروسيوس(٦١). ويرى القدّيس إيريناوس في بولس مَثَلاً عظيمًا على التماسك الرسوليّ(٦٢). أمّا القدّيس غريغوريوس النزينزيّ (†٣٩٠)(٦٣)، فيعتبر أنّ بولس هو الأكثر بسالة "بين المصارعين"(٦٤).

ويؤكّد أوريجانوس "أنّ بولس هو

(٥٦) أوريجانوس، تفسير الرسالة إلى **الرومانيّين**، ٥، ١٠؛ رج **ضدّ سلسيوس**، المقدّمة، ٣.

(٥٧) AUGUSTIN, *In I Jo. Tr.* 2, 14.

(٥٨) يوحنّا الذهبيّ الفم، تفسير **الرسالة إلى الرومانيّين**، ٢٣، ٣.

(٥٩) إقليمندُس الروماني، الرسالة إلى **الكورنثيّين**، ٥، ٧.

(٦٠) بوليكربّوس، **الرسالة** ٣، ٢؛ رج ٩، ١ي.

(٦١) أمبروسيوس، **عظات حول البتوليّة** ٢، ٣، ٢١.

(٦٢) إيريناوس، **ضدّ الهراطقة**، ٤، ٢٦، ٤.

(٦٣) Voir Jean BERNARDI, *Saint Grégoire de Nazianze. Le Théologien et son temps (330-390)*, Cerf, Paris, 1995; André TUILIER, "Grégoire de Nazianze", *Dictionnaire de l'Antiquité*, dir. Jean Leclant, Presses universitaires de France, 2005.

(٦٤) غريغوريوس النزينزيّ، **في الصلاة**، ٢، ٤٨.

الأعظم بين الرسل"[٦٥]، و"الأعْلَم بين الأحبار، والأكثر خبرة بين الكهنة"[٦٦]. لكنّ الرسول هو كلّ هذا، يقول أوريجانوس، لأنّه "التلميذ الحقيقيّ ليسوع" أو "للربّ"[٦٧]، و"الذي يقتدي به"[٦٨] بطريقة مثاليّة، أي أنّ المعلّم الإلهيّ هو وحده حياتُه ورائدُه[٦٩].

هي المسيحيّة، في الواقع، التي تفتدي، فتجعل الإنسان نبيلاً وتعطيه ميزةً خاصّة؛ فهناك أناس أصيلون، وتامّون، وكاملون، لأنّهم يلبسون المسيح، كما يعلّم بولس ذاته، "إلى أن نصل كلّنا إلى وحدة الإيمان ومعرفة ابن الله، إلى الإنسان الكامل، إلى ملء قامة المسيح" (أف ٤: ١٣)؛ ويقول أيضًا: "إلبسوا الإنسان الجديد الذي خلقه الله على صورته في البرّ وقداسة الحقّ" (أ ٢٤)؛ ويضيف: "به ننادي ونبشّر جميع الناس ونعلّمهم بكلّ حكمة لنجعل كلّ إنسان كاملاً في المسيح" (كول ١: ٢٨).

وفي خطّ أوريجانوس، يعبّر القدّيس غريغوريوس النيصيّ (†٣٩٤) عن إعجابه بـ"الذكاء الحادّ"[٧٠] الذي كان لدى القدّيس بولس، ومثله لدى المسيحيّ، رجل الأمانة المطلقة للمسيح الرأسِ والنموذج[٧١]، وبالتالي الإنسان الأصيل والناضج، والمحرَّر بالتمام، والذي ارتقى إلى ما هو إلهيّ، على اعتبار أنّنا، من دون مسيح، "نحن كالسقط، وكالكائنات غير الناضجة"[٧٢]. في ما يلي نصٌّ جميل يكشف فيه النِيصيُّ نوعيّةَ مسيحيّةِ الرسول ويعظّمها: "لقد فَهِمَ القدّيس بولس أكثر من أيٍّ آخَر مَن هو المسيح، وشرح لنا بأفعاله كيف ينبغي أن يكون مَن يحمل اسمه (أي المسيحيّ). لقد اقتدى بولسُ بالربّ بطريقة راسخة، إلى حدّ أنّه بيّن هيئة ربّه في حياته كما في تعليمه؛ فاقتداؤه الدقيقُ بالمسيح حوّلَه إلى نموذج أصيل عن يسوع، إلى حدّ أنّه صار هناك انطباعٌ أنّ الذي كان يحيا ويتكلّم لم يكن بولس بل المسيح الذي كان يحيا فيه. هذا ما يقوله هو نفسُه لأنّه كان يعي كم كانت الخيرات التي أغدقها الربُّ عليه عظيمة: "لم أَعُدْ أنا أحيا بعد، بل المسيح يحيا فيّ" (غل ٢: ٢٠)؛ ويقول أيضًا: "أنتم تبحثون عن برهان أنّ المسيح هو الذي يتكلّم فيّ" (٢ كو ١٣: ٣).

كذلك يمدح الذهبيّ الفمّ في كلّ مناسبة عظَمةَ القدّيس بولس وعَمَلَه، وقد يكون هو أعظمَ المعجبين به بين آباء الكنيسة؛ فبالنسبة إليه، يتفوّق الرسولُ على كلّ المخلوقات البشريّة والملائكيّة، كما أنّه يسمو أيضًا على كلّ المدائح التي يمكن أن تُساق تجاهه. بعد يسوع الإله والإنسان، بولس هو حقًّا الذروة الخلائقيّة لتاريخ الخلاص، وبارتباط حميم بيسوع بالتأكيد. إنّه الإنسان المتفوّق بكونه إنسانًا قدّيسًا بشكل مثاليّ، صنعَ العجائب، وطردَ الشياطين، واكتنز الفضائل حتّى أصبح مُثقلاً بطاقة خلاصيّة فريدة[٧٣]. "أكثر من الناس كلّهم، يقول الذهبيّ الفمّ، بيّن بولس ما هو الإنسان، وكم هو عظيم نُبْلُ طبيعتنا البشريّة، وكم من الفضائل يقدر هذا الكائن الحيُّ أن يتلقّى في ذاته... في الواقع، من دون أن يتَقَبَّل طبيعةً أخرى، ومن دون أن يتقاسم نَفْسًا مختلفة، ولا أن يسكن عالَمًا آخَر، بل تربّى على الأرض

(٦٥) أوريجانوس، **عظات في سفر العدد**، ٣، ٣.
(٦٦) أوريجانوس، **عظات في سفر اللاويّين**، ٤، ٦.
(٦٧) أوريجانوس، **ضدّ سلسيوس** ١، ١٣، ٤٧.
(٦٨) أوريجانوس، **تفسير إنجيل متّى** ١٠، ١٥.
(٦٩) أوريجانوس، **تفسير إنجيل يوحنّا** ١٠، ٤٥.
(٧٠) غريغوريوس النيصيّ، **التطويبات** ٥؛ رج:
GRÉGOIRE DE NYSSE, *Les Béatitudes*, PDF 10 (rpr.), J. Y. Guillaumin, G. Parent, A. G. Hamman, 1997.
(٧١) غريغوريوس النيصيّ، **عظات في سفر الجامعة** ٥؛ رج *Homélies sur l'Ecclésiaste* , SC 416, F. Vinel, Paris, 1996.
(٧٢) غريغوريوس النيصيّ، **العظة** ٥.
(٧٣) يوحنّا الذهبيّ الفم، **تقاريظ القدّيس بولس**، في عدّة أماكن من الكتاب.

ذاتها، وفي المنطقة ذاتها، وبالشرائع والأعراف ذاتها، تفوّق على كلّ الناس الذين وُجِدوا، منذ ما وُجِدَ البشر"[٧٤].

ويضيف الذهبيّ الفمّ إنّ الرسول هو تلك العظمة المميّزة، التي لا شبيه لها، إمّا بفضل علاقته الحيويّة بالمسيح، "القدرة الإلهيّة التي لا تُقْهَر"[٧٥]، وإمّا بفضل "الالتزام الشخصيّ" الجدّيّ بالاقتداء "بربّه"[٧٦]. إنّه المبدأ اللاهوتيّ "للعمل الخلاصيّ المشترك"[٧٧] بين الله والإنسان، الغالي على قلب اللاهوت الشرقيّ[٧٨]. يعلّمنا بولس هكذا بمثله الشخصيّ، كيف نصبح مسيحيّين حقيقيّين، مسحاء آخَرين، أناسًا جُدُدًا وكاملين، عاملين للخير وصالحين.

ويتساءل القدّيس أمبروسيوس قائلاً: "مَن أقوى من بولس؟ مَن أكثر طوباويّة منه؟"[٧٩]. أمّا القدّيس إيرونيموس فيقول في بولس إنّه "الأخير في الترتيب الزمنيّ"، و"الأوّل من حيث الاستحقاقات"[٨٠]، بالمقارنة مع الرسل الباقين، مؤكّدًا بذلك ما يقوله بولس نفسُه: "إن كانوا خَدَمَ المسيح، أقول هذا كأحمق، فأنا أفوقهم: في الجهاد جاهدت أكثر منهم، في دخول السجون قاسيت أكثر منهم، في الضرب تحمّلته أكثر منهم بكثير..." (٢ كو ١١: ٢٣ي). ويُبرز القدّيس إيرونيموس مسيحيّةَ بولس بالكلام الرفيع التالي: "هو المسيح مَن يكرّر فيه أقواله"، تلك التي "كان قد فاه بها في الإنجيل"[٨١]، لذا إنّ "ما يقوله بولس، يقوله المسيح (نفسه)"[٨٢]؛ هذا ما سمح لبولس بأن يتفوّه بالكلام التالي: "تطلبون برهانًا على أنّ المسيح ينطق بلساني..." (٢ كو ١٣: ٣).

بدوره يعترف القدّيس أغوسطينوس بعظمة القدّيس بولس، فيرى فيه "الإنسان الأكثر صلاحًا والأقوى"، و"بطل المسيح"[٨٣]، "جنديّ الجيش السماويّ، وليس غبارًا كما نحن"[٨٤]، و"صديقَ العريس"[٨٥]. ونحن نعلم أنّ أغوسطينوسُ قد قرأ بولسَ بنَهَم، فاستفاد كثيرًا[٨٦]، ويدين له بتوبته النهائيّة[٨٧]، وبالدعم في نموّه الروحيّ، خاصّة مع كلمات الرسول التالية: "أستطيع كلّ شيء بالذي يهبني القوّة" (فل ٤: ١٣)، تلك "الكلمات التي أُحِبُّ كثيرًا"، يقول أغوسطينوس[٨٨].

٣ – بولس رسول المسيح

اعترفت الكنيسة أبدًا بأنّ القدّيس بولس هو "الرسول" بامتياز، وذلك لاتّساع حقلِ عمله، ولفعاليّة نشاطه التبشيريّ. قال البابا القدّيس إكليمنضوس: "إنّ بولس قد عَمِلَ من نفسِه بشيرًا (للإنجيل) إنْ في الشرق وإنْ في الغرب"، و"عَلَّمَ البرَّ للعالم بأسره، وبلغ حتّى أقاصي الغرب"[٨٩]، أي إلى إسبانيا. ويدعوه إكليمنضوس الإسكندريّ (القرن الثاني–الثالث) "رسولَ الربِّ المُلْهَمَ إلهامًا إلهيًّا"[٩٠]. إنّه

(٧٤) يوحنّا الذهبيّ الفم، **تقاريظ القدّيس بولس**، ٢، ١.
(٧٥) يوحنّا الذهبيّ الفم، **تقاريظ القدّيس بولس**، ٤، ١ي.
(٧٦) يوحنّا الذهبيّ الفم، **تقاريظ القدّيس بولس**، ٥، ١ي؛ رج ٦، ٣ي.
(٧٧) يستعمل الذهبيّ الفم الكلمة اليونانيّة συνεργια، التي تعني حرفيًّا "التعاون، والتعاضد، والتآزر، والعمل معًا"، ليتكلّم على تجاوب الإنسان مع تدبير الله الخلاصيّ، الأمر الذي يُفضي إلى تحقيق ما يصبو الله إليه.
(٧٨) Cf. P. EVDOKIMOV, *L'Ortodossia*, Bologna 1966, 142ss. 397ss.
(٧٩) أمبروسيوس، **حضٌّ على البتوليّة**، ١٤، ٩٢.
(٨٠) إيرونيموس، **الرسالة**، ٥٨، ١.
(٨١) إيرونيموس، **الرسالة**، ٥٥، ٤.
(٨٢) إيرونيموس، **في المزامير**، ٨٦، ٦.
(٨٣) أغوسطينوس، **مدينة الله**، ١٤، ٩، ٢.
(٨٤) أغوسطينوس، **الاعترافات**، ١٠، ٤٥.
(٨٥) أغوسطينوس، **الاعترافات**، ١٣، ١٤.
(٨٦) أغوسطينوس، **الاعترافات**، ٧، ٢١؛ ٨، ١٤؛ ١٣، ٨، ١٣–١٥.
(٨٧) أغوسطينوس، **الاعترافات**، ٨، ٢٩.
(٨٨) أغوسطينوس، **الاعترافات**، ١٠، ٤٥.
(٨٩) إقليمندُس الرومانيّ، **الرسالة إلى الكورنثيّين**، ٥، ٦ي.
(٩٠) CLEMENT d'ALEXANDRIE, *Protreptique aux grecs*, 1, 7, 2.

بنوع خاصّ "رسول الأمم وملفانها"، كما يصفه آباء الكنيسة، أوريجانوس[٩١]، ويوحنّا الدمشقي[٩٢]، وأومبروسيوس[٩٣]، وأغوسطينوس[٩٤].

وبكونه رسولاً، فإنّه حضورٌ حيٌّ وناشط للمسيح الإله والإنسان: "لقد قبلتموني كأنّي ملاك الله، بل المسيح يسوع" (غل ٤: ١٤؛ رج ٢ كو ١٣: ٣)؛ عن هذا القبول كان يسوع قد تكلّم قائلاً: "مَن قَبِلَكُم قبلني، ومَن قبلني قَبِلَ الذي أرسلني" (رج مت ١٠: ٤٠)؛ أيضًا: "الحقّ الحقّ أقول لكم: مَن قَبِلَ الذين أرسلهم قَبِلَني. ومَن قَبِلَني قَبِلَ الذي أرسلني" (يو ١٣: ٢٠). بولس بالتالي هو التجلّي الحقيقيّ للمسيح، لذلك أضحى هو تقريبًا كلّ شيء، أي: مبشّرًا بالإنجيل، ومفسّرًا للكتاب المقدّس، وليتورجيًّا، وأبًا روحيًّا، ومُربّيًا في الإيمان، وطاردَ الشياطين، وصانعَ العجائب، ومخلّصًا، إلخ، وكلّ ذلك بلا قياسٍ وبالنوعيّة الأَجْوَد والأفضل.

يمدح آباء الكنيسة عظمةَ رسوليّةِ بولس ومثاليّتَها؛ ويبلغ أوريجانوس حَدَّ إعطاء بولس لقب "مؤسِّسَ الكنائس المسيحيّة"[٩٥]، لكن بالطبع بعد المسيح، و"معلّمَ الكنيسة" في المجال البيبليّ، وبمعنى ما، أبَا التفسير المسيحيّ والكنسيّ للكتب المقدّسة[٩٦].

بالنسبة إلى الذهبيّ الفمّ، بولس الرسول هو تمامًا "الأبُ المشترَك لكلّ العالم"، أبٌ يفوق "أيَّ أبٍ، وذلك بسبب اعتنائه بالكلّ ماديًّا وروحيًّا معًا..."[٩٧]. إنّه حقًّا ظاهرةُ أبوّةٍ روحيّة وشاملة، وهذا ما نتبيّنه من كلامه هو بالذات: "لا أكتب هذا لأجعلكم تخجلون، بل لأنصحكم نصيحتي لأبنائي الأحبّاء؛ فلو كان لكم في المسيح عشرة آلاف مرشد، فما لكم آباء كثيرون، لأنّي أنا الذي ولدكم في المسيح يسوع بالبشارة التي حملتها إليكم" (١ كو ٤: ١٤-١٥)؛ ويضيف: "أمّا أنا فما استعملت أيّ حقّ من هذه الحقوق، ولا أنا أكتب هذا الآن لأطالب بشيء منها؛ فأنا أفضّل أن أموت على أن يحرمني أحد من هذا الفخر. فإذا بشّرت، فلا فخر لي، لأنّ التبشير ضرورة فُرِضت عليّ، والويل لي إن كنت لا أبشّر" (٩: ١٥-١٦)؛ وأيضًا: "ها أنا مستعدّ أن أجيء إليكم للمرّة الثالثة، ولن أثقّل عليكم، فأنا أريدكم أنتم لا مالكم؛ فالأبناء لا يوفّرون لآبائهم، بل على الآباء أن يوفّروا لأبنائهم" (٢ كو ١٢: ١٤ي). هذه حقيقةٌ يعيشها القدّيسون بحرارة وبكثافةٍ خاصّة. لقد اختار أوريجانوسُ بولسَ أبًا ونموذجًا وهاديًا روحيًّا، كما سيفعل القدّيس شارل دو فوكو لاحقًا[٩٨].

٤ – بولس مثال يُحتَذَى

كما علّم الربُّ يسوع[٩٩]، يتطلّب بولس بدوره من تلاميذه وتابعيه السيرَ على خطاه والاقتداءَ به، لأنّ "الوَرَع الحقيقيَّ هو اقتداء"، كما يعلّمنا القدّيسان أغوسطينوس[١٠٠] ويوحنّا الدمشقيّ[١٠١]. إنّه "اقتداء" لأنّ الوَرَع هو في الحقيقة فعل محبّة: "عندما يحبُّ

(٩١) أوريجانوس، **عظات في سفر الخروج**، ٥، ١.
(٩٢) يوحنّا الدمشقيّ، **مقالة في الإيمان الأرثوذكسيّ**، ٤، ١٦.
(٩٣) أمبروسيوس، **في البتوليّة** ١، ٥، ٢٣.
(٩٤) أغوسطينوس، **مدينة الله** ١٤، ٩، ٢.
(٩٥) أوريجانوس، **ضدّ سلسيوس** ١، ٦٣.
(٩٦) أوريجانوس، **عظات في سفر الخروج** ٥، ١. رج H. De LUBAC, *Storia e Spirito,* ed. Paoline 1971, 100ss.
(٩٧) يوحنّا الذهبيّ الفم، **تقاريظ القدّيس بولس** ٣، ٩؛ رج ٣، ٦؛ ٢، ٨.
(٩٨) CHARLES DE FOULCAUD, *Scritti spirituali* 9/1, Città Nuova 1974, p. 207.
(٩٩) لنقرأ بعض أقوال يسوع في هذا المجال: "تعلّموا منّي تجدوا الراحة لنفوسكم" (مت ١١: ٢٩)؛ "من أراد أن يتبعني، فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني" (١٦: ٢٤)؛ "أنا أعطيتكم ما تقتدون به، فتعملوا ما عملته لكم" (يو ١٣: ١٥).
(١٠٠) أغوسطينوس، **حول إنجيل يوحنّا**، ٨٤، ١.
(١٠١) يوحنّا الدمشقيّ، **الإيمان الأرثوذكسيّ**، ٤: ١٥. رج جوزف نصرالله، **منصور بنُ سرجون المعروف بالقدّيس يوحنّا الدمشقيّ، عصره، حياته، مؤلّفاته**، عرّبه بتصرّف عن النصّ الفرنسيّ أنطون هبّي، سلسلة الفكر المسيحيّ بين الأمس واليوم، المكتبة البولسيّة، لبنان ١٩٩١؛ رج القديس يوحنّا الدمشقيّ، **المئة مقالة في الإيمان الأرثوذكسيّ**.

المرءُ يقتدي"، كما جاء في تعليم القدّيس أغوسطينوس[١٠٢].

بالتأكيد، لا يريدنا بولس مستمعين للاهوته ومعجبَين به ومصفّقين له، بل "مقتدين" بسلوكه الحياتيّ، الذي هو تجسيدٌ مثاليٌّ لعقيدته، كما ينبغي أن تكونه حياة كلّ مسيحيّ[١٠٣]. لنقرأ مرّة أخرى قولَه الشهير: "إقتدوا بي كما أقتدي أنا بالمسيح" (١ كو ١١: ١؛ رج ٤: ١٦؛ ٢ تس ٣: ٧؛ فل ٣: ١٧). ونحن نعلم كيف كان هو، وإلى أيّ مستوى روحانيّ بلغ، إلى حدّ أنّه استطاع أن يقول: "لست أنا الحيّ بعد، بل المسيح يحيا فيّ" (غل ٢: ٢٠). في هاتين الجملتَين، اللتَين فسّرهما مرّات عدّة آباء الكنيسة، يكمن سرُّ بولس، وسببُ جودتِه كمسيحيّ وكرسول لا مثيل له.

في ١ كو ١١: ١، يعلن بولس مبدأً مقدّسًا، هو أنّه يمكن أن يُطلَب من الآخَرين أن يقتدوا، إذا كان الطالبُ يقتدي هو أوّلاً بالمسيح المعلّم، الإله والإنسان، "النموذج الأسمى". إنّه، كما أسلَفنا، "مبدأ مقدّس"، وبالتالي ينبغي أن يتجلّى في الممارسة، خاصّة لدى مَن عليهم أن يعطوا المثل الصالح للآخَرين، أعني بهم الرعاة الذين عليهم أن "يكونوا قدوة للرعيّة"، كما يوحي القدّيس بطرس (١ بط ٥: ٣)، وهذا مفتَرَض بالتحديد في حياة "مُعلّميّ إسرائيل"، كما قال يسوع لنيقوديموس: "أنت معلّم في إسرائيل ولا تعرف؟" (يو ٣: ١٠)؛ أو: "معلّمو الشريعة والفريسيون على كرسي موسى جالسون" (مت ٢٣: ٢ي)[١٠٤].

من ناحيتهم، يقتدي آباء الكنيسة ببولس، ويحضّون على ذلك؛ هكذا، في القرنَين الأول والثاني، مثلاً، فعل إكليمنضوس بابا روما[١٠٥]، وبوليكربُوس[١٠٦]. ويذكر أوريجانوس بنوع خاصّ المبدأ الذي يستطيع بولس أن يطلب منّا أن نعتمده وأن نقتدي به، لأنّه هو نفسه مقتدٍ بالمسيح، النموذج الأوّليّ والوحيد الذي ينبغي أن نقتدي به[١٠٧]. ويشير إليه بعد ذلك كمَثَل حياةٍ لجميع المسيحيّين: "الخطأة"، و"البسطاء"، وخاصّةً "الكاملون". لنقرأ في هذا السياق نصًّا وعظيًّا جميلاً جدًّا تركه لنا أوريجانوس العالِم الكنسيّ بامتياز:

"أنا أستطيع أن أكون بولس إذا اقتديتُ بمن يقول: "إقتدوا بي" (١ كو ٤: ١٦)، إذا كان لي الوَسْمُ الذي به وُسِمَ بولس، وإذا امتلكتُ الصورةَ ذاتَها التي وَفْقَها قَوْلَبَ ذاتَه في المسيح... بالمقابل، واستنادًا إلى تنوّع الوَسْم، إذا وَعيْتُ أنّ بولس كانت له صورة مختلفة عن تلك التي لي في نَفْسي، عندها أقول لذاتي: أنت ابنُه، أنتَ زَرْعُ بولس. لا تعجب من أنّك تصبح ابنَ الرسول؛ إمتلك فضائله فتصبح ابنَ المسيح الذي يقول: "يا أبنائي، أنا معكم لزمن قصير" (يو ١٣: ٣٣). عندما تصبح للمسيح، تصبح أيضًا لله، لأنّ الاثنين هما من طبيعة فريدة وغير متقسمة"[١٠٨].

إنّ هذا النصّ، وهو عَيِّنَة رائعة عن تفسير أوريجانوس البيبليّ، ينوّر منّا الأذهان ويجعل القلوب عامرةً بمحبّة الربّ وخفّاقة بحضوره. ليس الاقتداء المسيحيّ تقليدًا لأحدٍ أو لأمرٍ ما خارجيًّا أو مظهريًّا، بل أن يصبح الإنسان شريكًا في كينونة النموذج، ونسخة عنه أمينة، فيتكلّم، ويفكّر، ويعمل في كلّ شيء كالنموذج ذاته[١٠٩]. لكنّ بولس هو أكثر من نموذج مُتَفَرِّع عن يسوع؛ إنّه انقياد له ومطابقة معه، وفي النهاية، مطابقة مع النموذج

(١٠٢) أوغوسطينوس، **حول إنجيل يوحنّا** ٣٤، ٩؛ أنظر أيضًا **العظات** ٣٠٤، ٢. رج **شرح رسالة القدّيس يوحنا للقدّيس أوغوسطينوس**، ترجمة وتحقيق يوحنّا الحلو، سلسلة التراث الروحيّ، دار المشرق، بيروت ٢٠٠١.

(١٠٣) CLEMENT d'ALEXANDRIE, *Protreptique aux grecs*, 12, 123, 1.

(١٠٤) أوغوسطينوس، **العظات** ٤٧، ١٢.

(١٠٥) إقليمندُس الرومانيّ، **الرسالة إلى الكورنثيّين**، رقم ٥.

(١٠٦) بوليكربّوس، **الرسالة** ٩.

(١٠٧) أوريجانوس، **عظات في سفر حزقيال** ٧، ٣؛ **تفسير إنجيل متّى** ١٠، ١٥.

(١٠٨) أوريجانوس، **عظات في سفر حزقيال** ٤، ٥.

(١٠٩) أوريجانوس، **في المبادىء** ٤، ٤، ٤. رج جورج خوّام، **أوريجانس، في المبادىء**، ص ٤٢٥-٤٢٧.

الأصليّ والأوّل، يسوع الإله والإنسان، والوحيد الذي ينبغي الاقتداء به، كما أسلفنا. بالإمكان بالتالي أن نختم بالقول: ببولس إلى المسيح، كما بالمسيح إلى الله الآب: "أَمَّا أَنْتُم فَلِلْمَسِيحِ، والمَسيحُ لله" (١ كو ٣: ٢٣؛ رج كول ٣: ١٧؛ يو ١٤: ٦). قد لا يكون ممكنًا إبرازُ مسيحيّةِ بولسَ وخدمتِه الثمينةِ للمسيحيّين بطريقة أفضل، ولا مدحه على الاثنتين أكثر من ذلك.

وهناك أيضًا أمر هامّ ينبغي لفت الانتباه إليه، وهو أنّه، بالنسبة إلى أوريجانوس، لا يمكن أن يكون الإنسان تلميذًا حقيقيًّا للقدّيس بولس وابنًا روحيًّا له، وبالتالي للمسيح ولله الآب، دون الاقتداء "بفضائله". لا يكفي بالتالي معرفة عقيدته وفكره اللاهوتيّ وحسب، بل ينبغي مقاسمته فضائله المثاليّة، ومسيحيّته الصافية، وإلاّ كان ذلك تفانيًا ناقصًا ونافلاً، وغيرَ مُرْضٍ.

ويقترح القدّيس غريغوريوس النزينزيّ على رعاة الكنيسة مَثَلَ القدّيس بولس المُربّي[١٠٣]. كذلك يفعل الذهبيّ الفمّ[١١١] الذي يقدّم المَثَلَ عينَه في كلّ مناسبة لجميع المعمَّدين[١١٢]، حاثًّا إيّاهم، "ليس على إبداء الإعجاب فقط، بل على الاقتداء بهذا النموذج للفضائل أيضًا"[١١٣]. ويوضح أنّ الاقتداء بالرسول هو دائمًا ممكن، بالإضافة إلى كون ذلك متوجّبًا، لأنّه هو "قد تقاسم كلَّ شيءٍ معنا"[١١٤]، و"كان له جسد كجسدنا، وكان يغتذي مثلنا، وكانت له النَفْس ذاتُها"، لذا، "إذا ما سعينا في إثر الفضيلة بحرارة، لا شيء يحول دون أن نصبح مثل بولس"[١١٥]. أمّا على الانهزاميّ فيردّ الذهبيُّ الفم بما يلي: "ثمّ إذا قلتَ: كيف يمكن الاقتداء بأناس كهؤلاء؟، إسمع ما يقوله: "إقتدوا بي، كما أقتدي أنا بالمسيح" (١ كو ١١: ١). لقد أصبح هو مقتديًا بالمسيح، وأنت لا تستطيع أن تفعل مثله؟ إنّ الاقتداء بالقدّيسين يحضّ على الاقتداء بالمسيح الربّ ويسهّله.

خاتمة

لقد حاولنا في هذه العجالة أن نقدّم لوحة عامّة، ودون الدخول في تفاصيل المعطيات والأمور، عن مكانة القدّيس بولس لدى آباء الكنيسة، وعن شغفهم به، هو الذي شُغِف قبلهم بالمسيح حتّى صار طريقًا حقًّا إليه، وعمّا حرّروه من كتابات ثمينة عنه وعن رسائله. يبقى أن نأمل بأن تكون هناك مبادرات لنشر نتاج الآباء العظام هذا في العربية تعميمًا للخير الذي كانوا، وعلى مثال بولس، يتوقون إلى أن يروه يعمّ الدنيا كلّها وشعوب الأرض بأجمعهم.

على مثال هؤلاء الآباء القدّيسين، لا يكفي أن نكون معجبين بالرسول بولس وحسب، بل ينبغي أن نقتدي به بالطرق الأكثر فاعليّةً وتفعيلاً والتزامًا، وهذا ما يذكّروننا به بقوّة بكتاباتهم وبمثلهم الصالح، خاصّة القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفمّ؛ في النهاية، هذا ما يتوقعّه بولس ذاته منّا في الذكرى الألفيّة الثانية لمولده.

(١١٠) Grégoire de NAZIANZE, *Or.* 2, 51s.

(١١١) يوحنّا الذهبيّ الفم، **في الكهنوت** ٤، ٨ي؛ رج بولس الفغالي، "مقالات في الكهنوت للقدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم"، **المرجع المذكور**، ص ٢٩–٥٠.

(١١٢) يوحنّا الذهبيّ الفم، **التعليم الدينيّ** ، ٨، ٧ي؛ ٩، ١٩ي.

(١١٣) يوحنّا الذهبيّ الفم، **تقاريظ القدّيس بولس** ٢، ١٠؛ رج أيوب شهوان، "مديح يوحنّا الذهبيّ الفم للقدّيس بولس الرسول"، **بيبليا** ٣٧ (٢٠٠٨) ٧٧–٨٢.

(١١٤) المرجع السابق.

(١١٥) يوحنّا الذهبيّ الفم، **تقاريظ القدّيس بولس** ٥، ٢؛ رج ٣، ١.

المراجـــع

إقليمندُس الروماني، **الرسالة إلى الكورنثيّين**، تعريب جورج نصّور، أقدم النصوص المسيحيّة، سلسلة النصوص اللاهوتيّة ١، الكسليك ١٩٧٥.

حلاّق تيودو، **اللاهوت الصوفيّ حسب القدّيس غريغوريس النيصيّ ٣٣٥-٣٩٤**، سلسلة الفكر المسيحيّ بين الأمس واليوم، المكتبة البولسيّة، لبنان ٢٠٠١.

حلو (الـ) يوحنا (مترجم)، **اعترافات القدّيس أغوسطينوس**، سلسلة التراث الروحيّ، دار المشرق، بيروت ٢٠٠٣.

ـــــ، **شرح رسالة القدّيس يوحنّا الأولى للقدّيس أغوسطينوس**، سلسلة التراث الروحيّ، دار المشرق، بيروت ٢٠٠١.

ـــــ، **مدينة الله للقدّيس أوغسطينوس**، ٣ مجلّدات، سلسلة التراث الروحيّ، دار المشرق، بيروت ٢٠٠٢.

خوّام جورج، **أوريجانس، في المبادىء**، سلسلة الفكر المسيحيّ بين الأمس واليوم ٣١، منشورات المكتبة البولسيّة، لبنان ٢٠٠٣.

شديد إسكندر (ترجمة)، **أعمال بولس**، في: **الأعمال والرسائل المنحولة**، سلسلة الكنيسة في الشرق ٩، نِسْبَيْن-غوسطا ١٩٩٩، ص ١٥٣-١٩٥.

غريغوريوس النزينزيّ، **الخطب ٢٧-٣١ اللاهوتيّة**، سلسلة النصوص اللاهوتيّة، المكتبة البولسيّة، لبنان ١٩٩٣.

غريغوريوس النِيصِيّ، **رسائل**، سلسلة نصوص متنوّعة، المكتبة البولسيّة، لبنان ٢٠٠٤.

فغالي (الـ) بولس، "مقالات في الكهنوت للقدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم"، في: **يوحنّا الذهبيّ الفم في المئويّة السادسة عشرة لوفاته**، سلسلة آباؤنا المعلّمون ٢، المكتبة البولسيّة، لبنان ٢٠٠٨، ص ٢٩-٥٠.

ـــــ، **يوحنّا الذهبيّ الفم في المئويّة السادسة عشرة لوفاته**، سلسلة آباؤنا المعلّمون ٢، المكتبة البولسيّة، لبنان ٢٠٠٨.

كويتر إلياس (كتابة وجمع وتنظيم)، **خطيب الكنيسة الأعظم، القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفمّ: حياته وبعضٌ من مواعظه**، ترجمها آباء مخلّصيّون، المكتبة البولسيّة، لبنان ٢٠٠٢.

ـــــ، **القدّيس باسيليوس الكبير: حياته، أبحاث عنه، مواعظه**، المكتبة البولسيّة، لبنان ١٩٨٩.

نصرالله جوزف، **منصور بنُ سرجون المعروف بالقدّيس يوحنّا الدمشقيّ عصره، حياته، مؤلّفاته**، عرَّبه بتصرّف عن النصّ الفرنسيّ أنطون هبّي، سلسلة الفكر المسيحيّ بين الأمس واليوم، المكتبة البولسيّة، لبنان ١٩٩١.

يوحنّا الدمشقيّ (القديس)، **المئة مقالة في الإيمان الأرثوذكسيّ**، عرّبه عن النصّ اليونانيّ أدريانوس شكّور، سلسلة الفكر المسيحي بين الأمس واليوم، المكتبة البولسيّة، لبنان ١٩٩١.

يوحنّا الذهبيّ الفم، **تقاريظ القدّيس بولس**، سلسلة النصوص التقريظيّة، المكتبة البولسيّة، لبنان ٢٠٠٢.

يوسابيوس القيصريّ، **تاريخ الكنيسة**، ترجمة مرقس داود، مكتبة المحبّة ١٩٩٨.

يوستينوس (القدّيس)، **الدفاع عن المسيحيّين. الحوار مع تريفون**، تعريب جورج نصّور، أقدم النصوص المسيحيّة، سلسلة النصوص الليتورجيّة ٧، الكسليك ٢٠٠٧.

Actes de Paul et de Thècle, in B. BAUER, *Les apocryphes du NT*, coll. Lire la Bible, no 37, Cerf, Paris 1973, p. 78)édition originale allemande : 1988(.
ATHANASE, *Lettres festales*, CSCO 151, Cerf, Paris 1991.
AMBROISE, *Exhortatio virginitatis*, de 394 ou 395, PL, t. XVI, col. 335-364.
ALTANER B., *Patrologia*, Marietti 1977.
AUGUSTIN, *Tracatus in Joh. Ev.= Sur l'évangile de Jean*.
_____, *Retractationes = Les retractations*.
BAUER Johannes-Baptist, *Les apocryphes du NT*, coll. Lire la Bible, no 37, Cerf, Paris 1973.
BERNARDI Jean, *Saint Grégoire de Nazianze. Le Théologien et son temps (330-390)*,Cerf, Paris, 1995.
BOLLOK János, "The Description of Paul in Acta Pauli", in Jan N. BREMMER, *The Apocryphal Acts of Paul and Thecla*, Kampen 1996, p. 1-15.
BOVON F., ESBROECK van M., GOULET R., JUNDO E., KASTELI J.-D., MORARD F., POUPON G., PRIEUR J.-M., TISSOT Y., *Les Actes de Paul*, in : *Les Actes apocryphes des Apôtres*, Labor et Fides, Genève 1981, p. 295-298.
et GEOLTRAIN François (éditeurs), *Écrits apocryphes chrétiens* I, Bibliothèque de la Pléiade, Gallimard 1997.
BREMMER N., *The Apocryphal Acts of Paul and Thecla*, Kampen 1996.
CIGNELLI L., *Maria nuova Eva nella Patristica greca*, Assisi 1966.
_____, *Maria e la vita consacrata nei Padri della Chiesa*, Gerusalemme 2006.
_____, "Il rapporto Maria-Giovanni evangelista nell'exegesi patristica", in AA.VV., *Tuo padre e io ti cercavamo (Lc 2, 48)*, Jerusalem, Studium Theol. Salesianum 2007.
COCCHINI F., *Il Paolo di Origene*, Roma 1992.
DEBIÉ M., DESREUMAUX A., JULLIEN C. et JULLIEN F., *Les apocryphes syriaques*, Études syriaques 2, Geuthner 2006.
DRAGON Gilbert, *Vie et miracles de Sainte Thècle*, Subsidia Hagiographica, no 62, 1978.
Épître de Clément de Rome aux Corinthiens. Traduction de Suzanne-Dominique, in *Les Pères Apostoliques*, coll. Foi vivante, Cerf, Paris 1990.
ERBETTA M., *Gli apocrifi del NT*, II, Marietti 1966.
_____, *Gli apocrifi del NT,* I/1: *Vangeli, Scritti affini ai vangeli canonici, composizioni gnostiche, materiale illustrativo,* Marietti 1975.
_____, *Gli apocrifi del NT,* I/2: *Vangeli Infanzia e Passione di Cristo, Assunzione di Maria,* Marietti 1981.
_____, *Gli atti di Paolo, in Atti e leggende*, Marietti 1966, p. 243-302.
EUSÈBE, *Histoire Ecclésiastique.*
GRANT Robert, "The Description of Paul in the Acts of Paul and Thecla", *Vigiliae christianae*, 36 (1982) 1-4.
GRÉGOIRE DE NYSSE, *Oratio Catechetica*.
_____, *Les Béatitudes*, PDF 10 (rpr.), J. Y. GUILLAUMIN, G. PARENT, A. G. HAMMAN, 1997.
_____, *Homélies sur l'Ecclésiaste*, SC 416, F. VINEL, Paris, 1996.

IRÉNÉE DE LYON, *Adversus haereses*.
_____, *Contre les hérésies*, Cerf, coll. "Sources chrétiennes" : Livre I, 1979, 416 p.; Livre II 1982, 376 p.; Livre III : 1974, 448 p.; Livre IV : 1965, 2 vols., 1008 p.; Livre V : 1969, 480 p.
_____, *Contre les hérésies. Dénonciation et réfutation de la gnose au nom menteur*, trad. Adelin Rousseau, [3]1991, 752 p.
JEAN CHRYSOSTOME, *De laudibus Pauli*.
_____, *De sacerdotio*.
_____, *Catéchèses ou Instructions aux Catéchumènes*.
JEAN DAMASCÈNE, *L'exposé de la foi orthodoxe* (= *De fide orthodoxa*).
JÉROME, *De viris illustribus*.
MARGUERAT Daniel, "'Et quand nous sommes entrés dans Rome'. L'énigme de la fin du livre des Actes (28, 16-31)", *Revue d'Histoire et de Philosophie Religieuses* 73/1 (1993) 1-12.
MOPSIK Charles (présentation), *Actes de Paul*, in *Les évangiles de l'ombre*, Lieu Commun, Paris 1983, p. 225-253.
ORIGÈNE, *De oratio*.
_____, *De principiis*.
RENAN Ernest, *Saint Paul*, Paris 1869.
SAVON H., *Ambroise de Milan* (340-397), Desclée, Paris, 1997.
TERTULLIEN, *Ad uxorem*.
Transitus Romano.
TUILIER André, "Grégoire de Nazianze", *Dictionnaire de l'Antiquité*, dir. Jean Leclant, Presses universitaires de France, 2005.